Sayf bani Marwān

سيف بني مروان

الحجاج الثقفي

تأليف

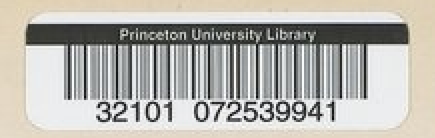
عبد الرزاق حميدة

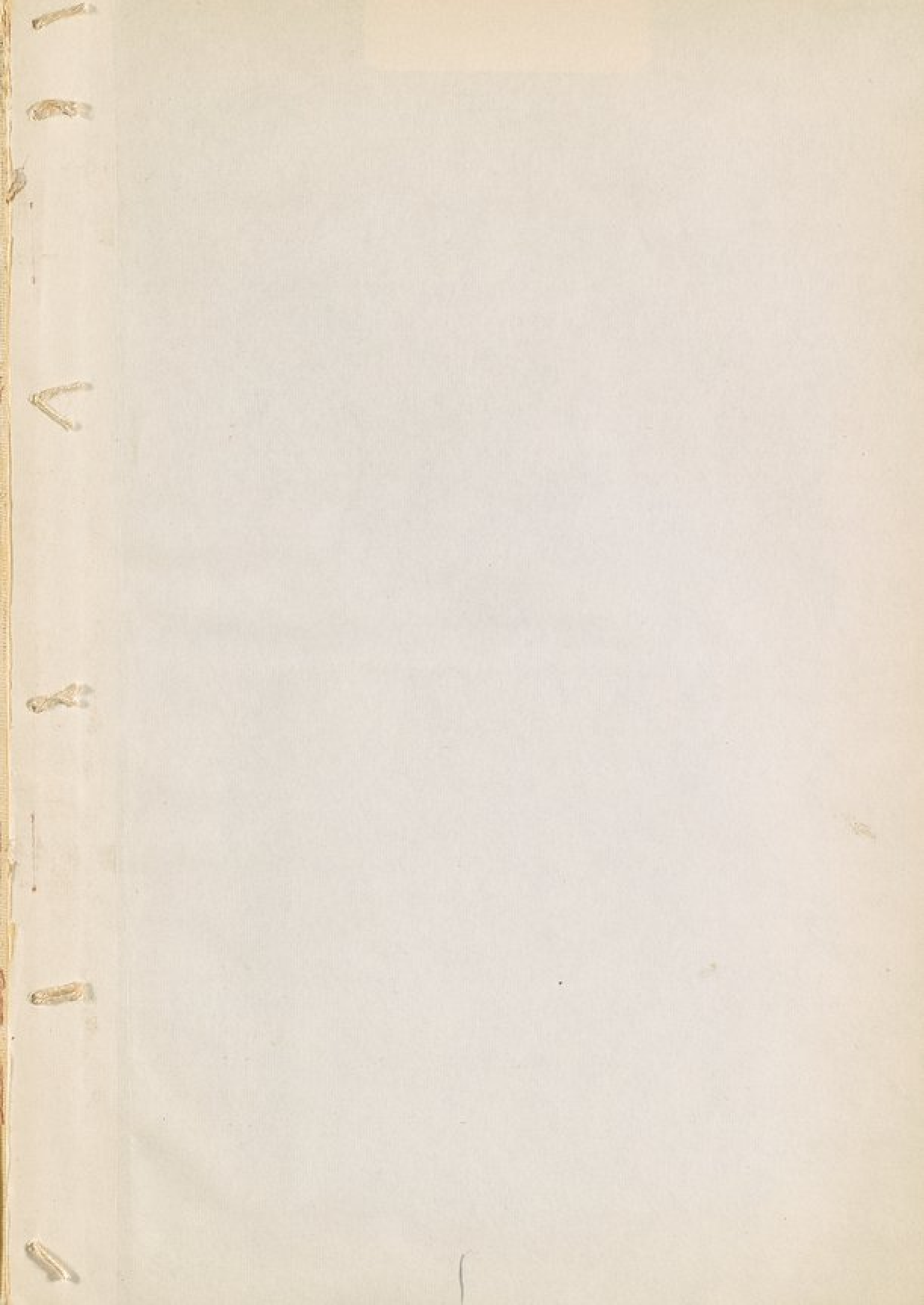
المدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

ʿAbd al-Razzāq Hamīdah

الناشر

دار الفكر العربي


Princeton University Library
32101 072539941



سيف بني مروان

الحجاج الثقفي

تأليف

عبد الرزاق حميدة

المدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

الناشر

دار الفكر العربي

القاهرة

مطبعة أحمد مخيمر بشارع فاروق تليفون ٤٧١٩٢



مقدمة

يحدثنا التاريخ السياسى عن الحجاج فى مواطن متعددة فى الشام والحجاز والعراق ، فى عهدالملك بن مروان ، والوليد بن عبد الملك .

ويحدثنا أنه كان له شأن مع كثير من الرجال يتولاهم أو يعاديهم أو يحاربهم ، كشأنه مع زفر بن الحارث، وابن الزبير، والملهب ، والخوارج ، وابن الأشعث ، وشبيب الحرورى .

ويحدثنا عنه قائدا عاما لحرب الخوراج ، وحرب ابن الزبير وحرب غيرهما، من ملوك العجم والهند والصين وجنوب التركستان .

وتحدثنا عنه كتب التراجم فتى من ثقيف ، يولد بالطائف فى أول خلافة معاوية، ويشب بها ولاذكر له ولاخطر ، حتى يتجاوز العشرين ، ثم يظهر شأنه فى الشام بعيداً عن موطنه ، فيتولى عملا لعبد الملك قد عجز عنه عبد الملك نفسه . وعندئذ يلتقى التاريخ السياسى بما كتبه رجال التراجم ، ثم يشترك تاريخ الأدب فى حديث التاريخ السياسى وأصحاب التراجم ، فيكشف كثيرا من صفات الحجاج النفسية والخلقية والسياسية التى تنم عنها آثاره الأدبية ، مما بدا فى رسائله، أو جرى على لسانه فى خطابته أوأحاديثه.

ويقف الباحث فى تاريخ الحجاج ، والناقد لأخلاقه وسياستهوأدبه، موقف الحكم ، يزن الروايات التاريخية . ويحقق أقوال كتاب التراجم ، ويفهم آثار الرجل الأدبية فى ضوء التاريخ السياسى ، ويستعين بهذه الآثار على تأييد أحكامه .

ولا بدله من أن يستمع كثيراً لحديث التاريخ السياسى عن الحجاج ؛ فالرجل لم يكن أديبا محترفا، لا كاتبا متخصصا ، ولا خطيبا متخصصا ، وإنما

كان سياسيا ، يظهر فى السياسة بالنبوغ فى الأدب . وبخاصة الخطابة ، كغيره من رجالات عصره المعدودين .

كان مطبوعا على القول الجيد، والبرهان القوى، ولكنه كان سياسيا قبل أن يكون أديبا ، وكان قائداً وواليا قبل أن يكون خطيبا . فلندرس تاريخه وسياسته وظروفه ، كى نعرف الأحوال التى نشأ فيها أدبه . ولندرس أخباره مع الأدباء والشعراء ، لنرى كيف وجه أدبهم ، وأنطق ألسنتهم . وهكذا .

وإذا كان الرجل قد ظهر فى عهد عبد الملك ، والوليد ابنه ، فقد قضى على كثير من الخصوم والفتن التى نشأت قبل عبد الملك بسنين ، كابن الزبير والخوارج ، فكيف لا نتحدث عن تلك الفتن قبل الحجاج ، ثم نسير معها إلى أن ولى الحجاج أمرها فقضى عليها ؟

الحق أنى مضطر إلى الحديث عن الظروف والأحوال التى عاش فيها الحجاج ، وإلى الحديث عما سبقه من أزمنة وأحوال فى الشام والعراق والحجاز لما تقدم .

وسوف أعنى بالنصوص والأخبار كما ترويها كتب الأدب ، وأسوقها كما هى ، معقبا عليها إذا رأيت فى التعقيب فائدة . أما الطريقة العلمية المحضة ، التى تعنى بالتحليل والتعليل والتعقيب ، وتكتفى من النصوص والآثار بفقرات مقتضبة للاستشهاد والاستدلال ، فهى — على مزاياها العلمية — طريقة جافة ، ليس فيها من خفة الروح ، وطلاوة الحديث ما فى النصوص والأخبار .

وأرجو أن أقضى حق التاريخ والأدب ، على طريقتى التى آثرتها فى الكتابة عن الحجاج ، السياسى أولا ، والأديب ثانيا .

وأسأل الله التوفيق ؟

عبد الرزاق حميدة

جمادى الآخرة سنة ١٣٦٦
مايو سنة ١٩٤٧

فهرس الكتاب

صفحة

مراجع الكتاب

الأغانى : لابى الفرج الأصفهانى فى ترجمة الأدباء الذين لهم صلة بالحجاج مثل جرير والفرزدق ومحمد النميرى وابن أبى ربيعة ، وكعب الأشقرى ونهار بن توسعة ، وغيرهم ممن ورد ذكرهم فى الكتاب .

الأمالى : لأبى على القالى حـ ١ ، ٢

تاريخ أدب اللغة العربية : لجورجى زيدان حـ ٢

تاريخ الإسلام : للمرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار

تاريخ الأمم الاسلامية : للمرحوم الشيخ محمد الخضرى بك

جمهرة خطب العرب : للأستاذ أحمد زكى صفوت حـ ١ ، ٢

جمهرة رسائل العرب : للاستاذ أحمد زكى صفوت حـ ١ ، ٢

الحجاج : للأستاذ عمر أبى النصر

ديوان جرير:

ذيل الأمالى والنوادر : لأبى على القالى

السيرة النبوية : لابن هشام حـ ١ ، ٢

العقد الفريد : لابن عبدربه حـ ١ ، ٢ ، ٣

فوات الوفيات: لابن شاكر الكتبى حـ ١ ، ٢

الكامل : لابى العباس المبرد حـ ١ ، ٢ ، ٣

مقدمة الإلياذة : لسليم البستانى

« : ابن خلدون

معاهد التنصيص : عبد الرحيم العباسى حـ ١ ، ٢

وفيات الأعيان : لابن خلكان حـ ١ ، ٢

وقعت بعض أخطاء لم يكن بد من التَّنبِيه إلى صوابها فيما يأتى :

الصفحة	السطر	الصواب
١٠	١٦	رَوْحَ بن زنباع
١٣	١٤	بنت يوسف
١٠	١٧	وِزْرَ
٢٥	١٦	أَبي بكر وابن الزبير
٤٠	(١٥، ١٧)	خالد بن يزيد
٤٣	١٤	دُرٌّ يزينها
٤٤	١	ملكى
٤٧	٤	الحجاز
٥١	١٠	طلب
٥٢	٤	أصحابى
٥٦	١٧	له
٥٧	٩	أذن الخليفة
٥٧	١٠	ابن محمد بن طلحة
٦٣		الاسلام
٧٥	١	عندى
١١٢	١	أنك
١٣٧	١٣	اشتهاره
١٤٠	٢٢	الازدواج
١٥٦	٨	بنو أمية والشعراء
١٦٠	٢٤	إليه

أول ظهور الحجاج

يتحدث التاريخ السياسى اول ما يتحدث عن الحجاج بن يوسف فى السنين الأولى من خلافة عبد الملك بن مروان ، فيذكر أنه كان ممتازا فى شرطه رَوْح بن زِنْبَاع الجذامى ، ثم صا رئيسا لها .

وكان عبد الملك يجاهد جهاد الأبطال ليعيد إلى بنى أمية ملكا أوشك أن يزول ، بعد أن كان واسعا عريضا فى أيام معاوية ، وبعد أن كانت دمشق فى أيامه حاضرة الإسلام ، ويدين لخليفتها كل الأقطار الإسلامية بالطاعة والولاء .

رأى عبد الملك أن ليس لبنى أمية من الأمر شىء فى غير مصر والشام ، وأن أقرب أعدائه إليه رجل من قيس ، هو زفر بن الحارث الذى كان واليا لبنى أمية على قنسرين ، ثم خرج عليهم فى عهد مروان بن الحكم ، وذهب إلى قرقيسيا بشمال العراق وتحصن بها ، ومات مروان وولى ابنه عبد الملك ، وزفر ما زال على عدوانه ، والخطر منه قريب .

أراد عبد الملك أن يخرج العسكر إلى حربه ، فرأى فيهم تخاذلا وعصيانا : كانوا لاينزلون بنزوله ولا يرحلون برحيله ، فشكا ذلك إلى روح بن زنباع أحد أعوانه المخلصين ، فدله على الحجاج ، وقال له : يا أمير المؤمنين ، إن فى شرطتى رجلا لو ولاه أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحلهم برحيله ، وأنزلهم بنزوله . يقال له الحجاج بن يوسف » قال عبد الملك : فإنا قد قلدناه ذلك .

فكان لايقدر أحد أن يتخلف عن الرحيل والنزول إلا أتباع روح زنباع ، فوقف الحجاج عليهم يوما وقد رحل الناس ، وهم على طعام يأكلون . فقال : ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين ؟

فقالوا له : انزل فكل معنا يا ابن اللخناء ، فقال : هيهات ! ذهب ما هنالك : ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط ، وطوفهم فى العسكر وأمر بخيام روح بن زنباع

فأحرقت بالنار . فدخل روح بن زنباع على عبد الملك بن مروان باكيا ، فقال له : مالك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ؛ الحجاج بن يوسف ، الذى كان فى عديد شرطتى ، ضرب عبيدى ، وأحرق فساطيطى !

قال عبد الملك : على به ، فلما دخل عليه قال له : ما حملك على ما فعلت ؟ قال : ما أنا فعلته يا أمير المؤمنين . قال ، ومن فعله ؟ قال : أنت والله فعلت ؛ إنما يدى يدك ، وسوطى سوطك ، وما على أمير المؤمنين أن يُخْلف على روح ابن زنباع للفسطاط فسطاطين ، وللغلام غلامين ، ولايكسرنى فيما قدمنى له .

فأخلف عبد الملك لروح بن زنباع ما ذهب له ، وتقدم الحجاج فى منزلته ، وكان ذلك أول ما أعجب عبد الملك منه .

هذه أول قصة يتحدث بها التاريخ عن الحجاج ، وفيها دليل قوى على أن الحجاج كان ممتازا ، ارتقى فى شرطة روح بن زنباع حتى صار رئيسا لها ، ولم يصل إلى هذا المنصب إلا بكفايته التى جعلت روحا يذكره للخليفة ليقوم بأمر عظيم ، هو تأديب عسكر متخاذلين ، لم يستطع الخليفة نفسه أن يؤدبهم ويملك زمامهم .

وهى تدلنا على أنه كان لايحابى فيما يراه صوابا ، فلم يغض عن أتباع روح زنباع وهم مخالفون ؟ ولم يتركهم قدوة سيئة فى هذا الظرف الحرج ؟ وما حجته — لو تركهم — إذا تخلف غيرهم عن الرحيل والنزول ؟ وإذا كانت لروح عنده يد فليس شكرها فى أن يسكت عن جند خارجين على النظام ، متخاذلين عن خليفة يبنى دولة ويسترد ملكا أوشك أن يضيع .

وانظر إلى قوة حجته عند الخليفة بعد أن شكاه روح : « ما أنا فعلته يا أمير المؤمنين » ، إنه ينسب الفعل إلى الخليفة ، وهو لم يأمره ، ولم تكن عنده فكرة عن وقوع مثل هذا من الحجاج ، ولكن الحجاج فعل ما كان يجب أن يفعله الخليفة ، وما تفرضه الظروف الحرجة التى كان فيها عبد الملك .

وكان الحجاج يستطيع أن يعتذر إلى روح ، ولكنه لايعبأ بغضب الناس

ولا رضاهم إذا فعل ما يراه واجبا ، وعلى الخليفة ألا ينقض ما عمله الحجاج ، وإن شاء فليعوض روحاعما فقده من غلمان وخيام . أما ما عمله الحجاج فقد ترك فى قلوب العسكر رعبا منه ، وأصبحوا يخشون انتقامه .

وإذا كان روح لم يستطع أن يحمى أتباعه فغيرهم أقل خطرا ، وليس لكل الناس صلة بالخليفة ، والذين لهم صلة لا يضمنون أن يعوضهم عبد الملك ، وقد يكون هناك ما يعز تعويضه إذا فقد ، كالأرواح ، فخير لهم جميعا أن يكونوا عند أمره .

بهذا البدء المنذر بالشر والقوة وبالحزم وتقدير المواقف ، يبدأ التاريخ حديثه عن الحجاج ، وهو فى الخامسة والعشرين من عمره .

نسب الحجـــاج

يحدثنا ابن خلكان[١] فى ترجمة الحجاج فيذكر أنه ابن يوسف بن الحكم بن عقيل من ثقيف ، وأن ثقيفا من إياد .

ويشير إلى أنه قد ولد فى أول خلافة معاوية حوالى سنة ٤١ هـ ، وينقل عن مروج الذهب للمسعودى ، أن أمه اسمها الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفى ، وأنها كانت زوجا للحارث بن كلدة الثقفى طبيب العرب فدخل عليها يوما فى الصباح الباكر ، فوجدها تتخلل ، فخرج من عندها ، وبعث إليها بطلاقها ، فلما رأته سألته : لم بعثت إلى بطلاقى ؟ أكان ذلك لشىء رابك منى ؟ قال نعم . دخلت عليك فى السحر وأنت تتخللين ، فان كنت بادرت الغداء فأنت شرهة ، وإن كان من طعام البارحة فأنت قذرة . فأجابته : ما هو بشىء مما ظننت ، ولـكنى تخللت من أثر السواك .

وابن عبد ربه يروى[٢] مثل هذه الرواية . ولـكنه يقول إن أم الحجاج كانت زوجة للمغيرة بن شعبة ، وأن هذه الحادثة كانت بينها وبين المغيرة ، فلما عرف الحقيقة بعد فوات الوقت ندم ، وخرج من عندها أسفا ، فلقى يوسف بن الحكم بن عقيل ، فقال له : هل لك إلى شىء أدعوك إليه ؟ قال وما ذاك ؟ قال : نزلت الساعة عن سيدة نساء ثقيف فتزوجها فانها تنجب لك . فتزوجها فولدت له الحجاج .

ولا يخلو مولد رجل مثل الحجاج من غرابة . فقد روى أنه ولد مشوها . وأبى أن يقبل ثدى أمه أو غيرها ، حتى أعيا أمره أهله . فيقال إن الشيطان تصور لهم فى صورة الحارث بن كلدة الثقفى طبيب العرب ، فقال لهم : ما خبركم ؟ فقالوا ولد ليوسف ولد من الفارعة ، وقد أبى أن يقبل ثدى أمه ،

---

(١) ص ١٥٤ ج ١

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٣٣

فقال لهم اذبحوا له جدياً أسود وأولغوه دمه . ثم افعلوا مثل ذلك فى اليوم الثانى ، فاذا كان اليوم الثالث ، فاذبحوا له تيساً أسود وأولغوه دمه ، ثم اذبحوا له أسود سالخاً[١] وأولغوه دمه ، واطلوا به وجهه ؛ فانه يقبل الثدى فى اليوم الرابع . ففعلوا به ذلك فكان لا يصبر عن سفك الدماء لما كان منه فى أول أمره .

ورواية الشيطان والدم هـذه غريبة قد تقرأ لغرابتها ، أما المؤرخ فلا يقف عندها كثيرا ، ويراها شبيهة فى غرابتها بما يروى عن غير الحجاج من خوارق العادات التى يخترعها الخيال وينسبها إلى البارزين من النـاس ، ولو كان بروزهم فى سفك الدماء . ومثلها قصة تيمورلنك الاعرج التترى . فقد قالوا إنه ولد ويداه مخضبتان بالدماء ، فجاء من أجل ذلك سفا كا فظيعا يبنى منازل من جماجم قتلاه .

ولا نعرف عنه فى طفولته أو مراهقته أو أول شبابه إلا ما يحدثنا به تاريخ الأدب من أنه كان غيورا يكره من محمد النميرى أن يقول شعرا فى أخته زينب بنت الحجاج ويشتم النميرى من أجل ذلك . ومن أنه كان صاحب رأى فى نسبة زياد إلى أبى سفيان ، وأن ابن زياد حقد عليه من أجل ذلك ، واختصم الحجاج مرة إليه فى أول ميراث بينه وبين عروة بن المغيرة بن شعبة ، وأغلظ الحجاج لعروة فأمر ابن زياد بضرب الحجاج أسواطا على رأسه . وما يقصه من أنه كان معلم صبيان بالطائف هو وأبوه وأخوه . وسوف نتحدث عن قصته مع النميرى فى أخباره مع الشعراء .

أما أنه كان معلم صبيان . فذلك ماترويه المبرد فى الجزء الثانى من الكامل فيقول : وممن هرب من سجن الحجاج مالك بن الريب المازنى .... وفى ذلك يقول :

---

(١) الأسود السالخ يقصد به الحية ، وقد يكون المقصود به : جملا أسود أجرب .

فإن تنصفونا يال مروان نقترب إليكم وإلا فأذَنُوا ببعاد
فإن لنا عنكم مراحا ومزحَلا(١) بعيس إلى ريح الفلاة صوادى
فنى الأرض عن دار المذلة مذهب وكل بلاد أوطنت كبلادى (٢)
فماذا ترَى الحجاجُ يبلغ جَهْدُه إذا نحن جاوزنا حفير زياد ؟
فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان، عبدا من عبيد إياد
زمانَ هو العبد المقر بذُله يراوح صبيان القرَى ويُغادى

ويعقب المبرد على ذلك فيقول : « قال ذلك لأن الحجاج كان هو وأخوه معلمين بالطائف » ، ويروى شعرا آخر فى أن لقبه كان كليبا ، وأنه كان صغير الخطر فى بلده .

أينسى كليبٌ زمانَ الهزالِ وتعليمه سورة الكوثر

وماوراه المبرد من الشعر للتهوين من شأن الحجاج كان شعرا فى الهجاء ، فهو موضع للاتهام ، والمبرد نفسه يقص علينا بعد ذلك بقليل أنه كان عظيم النسب كما تقدم ، وكفاه أن جده لأمه كان عروة بن مسعود الثقفى أحد الذين عنتهم قريش فيما يرويه القرآن فى سورة الزخرف : « وقَالُوا لَولا نُزِّلَ هذَا القُرْآنُ علىَ رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَينِ عَظيم(٣) » .

ويقول المبرد تأكيدا لهذا : « ولما دخل الحجاج مكة اعتذر إلى أهلها لقلة ماوصلهم به . فقال قائل منهم : إذا والله لانعذرك وأنت أمير العراقين ، وابن عظيم القريتين .

فليس الحجاج وضيع النسب ، وأما تعليمه القرآن وهو صغير فليس مما يهون من شأنه ، فالناس حديثو عهد بالقرآن ، وحفاظه كانت لهم منزلة

---

(١) مراحا ومزحلا : أى مكانا نفر إليه منكم .
(٢) أوطنت : آوت واستطعنا أن نقيم فيها .
(٣) القريتان مكة والطائف .

غير مجهولة . ولعل ذلك كان من أهم الأسباب التى أعانته على أن يصبح علماً من أعلام الخطابة فى كل عصور اللغة والأدب .

ولما كان الزمن الذى يعيش فيه الرجال عاملا من العوامل المهمة ، المؤثرة فى أدبهم وسياستهم وعلمهم وصفاتهم رأيت أن أذكر عن الزمن الذى عاش فيه الحجاج ما نستطيع به أن نتبين بوضوح ، فى أى عصر عاش الحجاج ، وكيف كانت سياسة صالحة لزمنه ، وكيف كان أدبه نتيجة طبيعية لظروف ذلك العصر .

عصر الحجاج

بنو أميـــة : وابن الزبير

ولد الحجاج فى خلافة معاوية ، ولمع نجمه فى أيام عبد الملك بن مروان والوليد ابنه ، واشترك فى أعظم الأحداث التى وطدت عرش عبـد الملك ، فقضى على ابن الزبير وأخمد ثورات العراق، وشرد الخوارج حتى كاد يبيدهم، وفتح قواده فتوحا فى المشرق امتدت إلى بلاد الهند والصين، وامتدت آثاره إلى الـكتابة العربية فكان له أثر فى إصلاحها ، وعمل غـير ذلك كما سيأتى تفصيله ، فمن هم بنو أمية ؟ ومن هم أولئك الرجال الذى اتصل تاريخهم بتاريخ الحجاج ؟ وما تلك الأعمال التى قام بها حتى خلدت له ذكرا باقيا ؟

١ — معـــاوية

أما بنو أمية فهم أول أسرة وليت أمر المسلمين بعد الخلفاء الراشدين ، ومؤسس دولتهم هو معاوية بن أبى سفيان ، نازع عليا رضى الله عنه بعد مقتل عثمان ، واتهمه بالاشتراك فى دمه ، وأبى بيعته ، وحاربه فى « صفين ». ودبر له مكيدة عظيمة أوقع بهـا الخلاف بين جنوده وأعوانه : هى رفع المصاحف والاحتكام إلى كتاب الله ، وانتهت بإيقاع الشقاق فى جند سيدنا على ، وكانت سببا مباشرا لظهور طائفة الخوارج الذين شغلوه عن حرب معاوية ، فحاربهم فى النهروان والنخيلة ، وقتل منهم كثيرا ، وانتهى أمره على أيديهم فقتله واحد منهم هو عبد الرحمن بن ملجم سنة ٤٠ هـ .

فلما قتل سيدنا على عظم شأن معاوية ، وقوى أمره بمبايعة الحسن بن على له سنة ٤١ فى « عام الجماعة » ، وانضم زياد والمغيرة إلى صفوفه بجانب عمرو بن العاص فقوى بهم ، واستعان بزياد والمغيرة فى العراق فكانا من خير

الولاة وأحزمهم وفى عهد معاوية فى عام الجماعة ولد الحجاج بن يوسف سنة ٤١ هـ .

زياد : أما زياد فقد حاول معاوية أن يضمه إلى أعوانه فى أيام سيدنا على — وكان زياد واليا له على خراسان — وكتب إليه يعرض له بأن أبا سفيان قد ولده فلما علم بذلك سيدنا على كتب إلى زياد يقول له :

« إنى وليتك ماوليتك ، وأنا أراك له أهلا ، وقد كانت من أبى سفيان فلتة من أمانى الباطل ، وكذب النفس، لاتوجب له ميراثا . ولاتحل له نسبا، وإن معاوية يأتى الإنسان من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، فاحذر ، ثم احذر . والسلام » .

ولكن معاوية استعان عليه بالمغيرة بن شعبة بعد قتل سيدنا على حتى بايعه ، فولاه البصرة سنة ٤٥ بعد أن استلحقه بأبى سفيان سنة ٤٤ هـ .

ولا يعنينا من أمر زياد إلا أعماله فى العراق ، فإن سياسته كانت مرشدا للحجاج فيما سلكه من سياسة أيام ولايته العراق .

خطبة زياد : جاء زياد إلى البصرة والفسق ظاهر فاش ، فخطبهم خطبته الشهيرة بالبتراء[1] وهى :

أما بعد ، فإن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغى الموفى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم . من الأمور العظام ينبت فيها الصغير . ولا يتحاماها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعده من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته ، فى الزمن السرمدى[2] الذى لا يزول . أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولاتظنون أنكم

---

(١) سميت البتراء لأنه لم يبدأها بحمد الله ، وهذا هو المشهور فيها . وقال صاحب العقد إنه بدأها بحمد الله على إفضاله وسأله المزيد من نعمه وإكرامه ، وطلب منه أن يلهمه الشكر على النعمة .

(٢) الدائم ، ويفسره الوصف الذى بعده « الذى لايزول » .

أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا إليه : من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ما له ؟

ما هذه المواخير[١] المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر ، والعدد غير قليل ؟ ألم يكن منكم نُهاةٌ يمنعون الغُوَاةَ عن دَلَجِ[٢] الليل وغارة النهار ؟ قربتم القرابة ، وباعدتم الدين . تعتذرون بغير العذر ، وتَغُضُّونَ على المختلس . كل امرىء منكم يذُبُّ[٣] عن سفيهه ، صنيع من لا يخاف عاقبة ، ولا يرجو معادا .

ما أنتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم[٤] الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كنوسا[٥] فى مكانس الريب . حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدما وإحراقا .

إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف . وإنى أقسم بالله لآخذن الولى[٦] بالمولى ، والمقيم بالظاعن[٧] والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصى ، والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول :

« أنْجُ سَعدُ فقد هلك سُعَيْد[٨] » ، أو تستقيم لى قناتكم[٩]

---

(١) المواخير جمع ماخور ، وهو بيت الريبة .

(٢) نهاة : جمع ناه ، وغواة : جمع غاو ، ودلج الليل : السير من أوله ، والمقصود : الاغارة ليلا .

(٣) يذب : يدفع .

(٤) الحرم : جمع حرمة ، وهى ما لا يحل الاعتداء عليه ، روى الشعبى : قال : إن زيادا أخبر أن المرأة من أهل المصر لتأخذها الفتيان الفساق ، فيقال لها : نادى ثلاثة أصوات ، فان أجابك أحد ، وإلا فلا لوم علينا فيما نصنع .

(٥) كنوسا : مستترين : جمع كانس . ومكانس الريب : مكامنها المستترة : جمع مكنس كمجلس .

(٦) الولى السيد ، والمولى العبد أو العكس . (٧) الراحل .

(٨) هذا مثل يضرب لمن أصبح الشر منه وشيكا بعد أن حل بغيره ، ويريد الفرار منه ، وأصله أن سعدا وسعيدا ابنى ضبة بن أد خرجا فى طلب إبل لهما ، فوجدها سعد فردها وقتل سعيد ، فكان أبوهما إذا رأى سوادا بالليل قال : سعد أم سعيد ؟

(٩) القناة معناها الرمح ، والمقصود أنه إذا كان فى رماحكم عوج فاما أن أكسرها أو أقومها .

أن كذبة الأمير بلقاء[١] مشهورة . فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتى فإذا سمعتموها منى فاغتمزوها[٢] فِىَّ ، واعلموا أن عندى أمثالها . من نُقِبَ منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه ، فإياى ودَلَج الليل،فإنى لا أوتى بمُدْلج إلا سفكت دمه ، وقد أجلتكم فى ذلك بمقدار ما يأتى الخبر الكوفة ويرجع إلى. وإياى ودعوى الجاهلية[٣] فإنى لا أجد أحدا دعا بها إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثا لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوما غرقناه . ومن أحرق قوما أحرقناه ، ومن نقب بيتا نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبرا دفناه فيه حيا . فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدى ولسانى ، ولا تظهر من أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم[٤] إلا ضربت عنقه .

وقد كانت بينى وبين أقوام إحن[٥] فجعلت ذلك دبر[٦] أذنى وتحت قدمى فمن كان محسنا فليزد إحسانا ، ومن كان مسيئا فلينزع عن إساءته . إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعا ، ولم أهتك له سترا ، حتى يبدى لى صفحته[٧] . فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبتئس بقدومنا سيسر ، ومسرور بقدومنا سيبتئس .

أيها الناس : إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة[٨] ، نسوسكم

---

(١) بلقاء : واضحة ، والبلق البياض يرتفع من قوائم الفرس إلى تخذيه ، فيتميز به .

(٢) عدها فى ضمن عيوبى .

(٣) دعوى الجاهلية ، استعانة الناس بعضهم ببعض على أساس العصبية القبلية لا على أساس الحد ، وأصله أن يقول الرجل : يال فلان ، فتخرج قبيله لنصرته ظالما أو مظلوما .

(٤) أى تخالف ما اجتمع عليه عامة القوم .

(٥) جمع إحنة ، وهى الضغينة والحقد .

(٦) خلف أذنى .

(٧) يجاهرنى بالعداوة .

(٨) ساسة : جمع سائس ، وذادة : جمع ذائد .

بسلطان الله الذى أعطانا ونذود عنكم بفىء الله الذى خوّلنا (١) ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا . واعلموا أنه مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة ولو أتانى طارقا بليل ، ولا حابساً عطاء ولا رزقا عن إبانه(٢) ، ولا مجمرا لكم بعثاً (٣) ، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فانهم ساستكم المؤدّبون ، وكهفكم الذى اليه تأوون . ومتى تصلحوا يصلحوا ، ولا تُشربوا قلوبكم بغضهم(٤) ، فيشتد لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا حاجتكم . مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرا لكم .

أسأل الله أن يعين كلاًّ على كل . وإذا رأيتمونى أنفذ فيكم أمرا فأنفذوه على أذلاله(٥) . وايم الله(٦) ، إن لى فيكم لصرعى . فليحذر كل منكم أن يكون من صرعاى .

فقام اليه عبد الله بن الأهتم فقال : « أشهد أيها الأمير ، لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب » . فقال له : « كذبت ، ذاك نبى الله داود صلوات الله عليه » . فقام الأحنف بن قيس فقال : إنما الثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنا لن نثنى حتى نبتلى » فقال له « صدقت » . فقام أبو بلال مرداس بن أديّة من رؤساء الخوارج ، فقال وهو يهمس : أنبأنا الله بغير ما قلت : قال الله تعالى : وإبراهيم الذى وفّى ، ألا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى ، وأنْ ليسَ للإنسانِ إلا ما سَعَى » ، وأنت تزعم أنك تأخذ البرىء بذنب

---

(١) الفىء الخراج ، أو الظل ، ومعنى بفىء الله : بالخراج الذى جعل الله لنا حق جبايته والتصرف فيه ، أو بظل الله ونعمته ، والأولى أولى . خولنا : ملكنا .

(٢) عن وقته وزمانه .

(٣) تجمير البعوث معناه حبسها فى بلاد العدو ، وعدم السماح لها بالعودة إلى بلادها .

(٤) لاتملئوا قلوبكم من بغضهم .

(٥) أى على وجوهه وطرقه التى أمرتم بها .

(٦) وايم الله : وحق الله .

المسيء فسمعه زياد، فقال: «إنا لن نصل إلى الحق فيك وفى أصحابك حتى نخوض فى الباطل خوضاً».

هـذه الخطبة دستور وضعه زياد ليعامل به أهل البصرة أولا، ثم أهل الـكوفة من بعدهم وهو دستور شديد عنيف، فهو إعلان للأحكام العرفية التى يلجأ إليها الحكام فى أيام الفتن والثورات، فيضعون القوانين الاستثنائية الصارمة التى يقصد منها تأديب العصاة، والعودة بالأمور الى الحالة الهادئة، التى يطمئن فيها الحاكم والمحكوم إلى القوانين العادية، وينزلون على حكمها عن رضى وطواعية.

ويحس القارىء أنهـا عنيفة، وأن ألفاظها سياط ألهب بهـا زياد ظهور أهل البصرة فتركهم حيارى ذاهلين. وفيها خروج على قواعد العدل. فكيف يؤخذ البرىء بذنب المسيء والصحيح بالسقيم، إلى آخر ما هنالك؟ وعلى هذا اعترض أبو بلال مرداس بن أدية. فرد زياد بمـا يبرر هذه الشدة من شيوع الفساد والمخازى فى البصرة، كالسلب والفسق والسرقة والعصبيات.

ولـكن زيادا كان منصفاً جدا، فقد أجل التنفيذ حتى يعلم الناس جميعاً، وأخبر أنه سيتناسى الأحقاد الخاصة، وأنه سيفتح بابه لكل شاك أومظلوم، ولن يؤخر عطاء، ولا يجمر بعثا.

وقد كان عند وعده ووعيده. فاستقامت الأمور وصلحت، يقول الطبرى فى تاريخه: «وكان زياد أول من شد أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية، وألزم الناس الطاعة، وتقدم فى العقوبة، وجرد السيف، وأخذ بالظنة، وعاقب على الشبهة، وخافه الناس فى سلطانه خوفاً شديدا، حتى أمن بعضهم بعضاً، وكان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة، فلا يعرض له أحد حتى يأتى صاحبه فيأخذه. وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها». وكان زياد يقول: «لو ضاع حبل بينى وبين خراسان علمت من أخذه».

ومما يدل على إنصافه أنه كان يؤخر العشاء ثم يصلى ويأمر رجلا من

الناس أن يقرأ سورة البقرة أو مثلها ، يرتل القرآن . فاذا فرغ أمهل بمقدار ما يرى أن إنساناً يبلغ أقصى البصرة ، ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج ، فلا يرى إنسانا فى شوارع البصرة إلا قتله ولو كان له عذر .

المغيرة بن شعبة : وممن استعان بهم معاوية المغيرة بن شعبة الثقفى . ولاه الكوفة ، كانت سياسته أرفق وألين من زياد . وقد خرج الخوارج عليه ، فدعا رؤساء القبائل ، وتوعدهم ، وطلب منهم أن يمنعوا من يخرج من قبائلهم ، ومما قاله لهم : ليكفنى كل امرىء منكم سفهاء قومه فوالذى لا إله غيره لأتحولن عما كنتم تعرفون إلى ما تنكرون ، وعما تحبون الى ما تكرهون . فلا يلم لائم إلا نفسه ، وقد أعذر من أنذر .

ولكن الرؤساء لم يستطيعوا أن يمنعوا الخوارج . وإن سكتوا الى حين.

البيعة ليزيد : كبرت سن المغيرة وخاف أن يستبدل به غيره ، فوفد إلى معاوية ، وزين له بيعة يزيد كى يبقى عليه ، ومما قاله لمعاوية : ياأمير المؤمنين : إن الأنفس ليغدى عليها ويراح . ولست فى زمن أبى بكر وعمر . فلو نصبت لنا علما من بعدك نصير إليه ، فإنى قد دعوت أهل العراق إلى بيعة يزيد . فقال معاوية : ياأبا محمد . انصرف إلى عملك. ورم هذا الأمر لابن أخيك .

وبهذا ضمن المغيرة بقاءه واليا على الكوفة إلى أن مات سنة ٥٠ هـ .

زياد والى المصرين : فلما مات المغيرة ضم معاوية الكوفة إلى زياد ، وهو أول من جمعا له ، وظل زياد واليا عليها إلى مات سنة ٥٣ هـ بالطاعون. وسار فيها سيرته فى البصرة ، ولكنه كان أخف بأسا من الذين ولوا من بعده كابنه عبيد الله ، وكالحجاج .

صادفت مقالة المغيرة هوى فى نفس معاوية ، ولعله كان يفكر فيها من قبل . فلما سمع من المغيرة ما قال : امتلأت نفسه بالفكرة . وحاول إخراجها إلى الوجود . وأراد أن يهيء الأذهان والنفوس لها ، وأراد أن يستوثق من

أهل الأمصار فقال له المغيرة أنا أكفيك أهل الكوفة ، وزياد يكفيك أهل البصرة ، وليس بعد هذين المصرين من يخالفك .

ورجع إلى الكوفة ، وتحدث مع من يعلم أنهم شيعة لبنى أميه ، فأجابوه إلى ما طلب ، فأوفد منهم وفدا مع ابنه موسى الى معاوية ، فزينوا له أمر البيعة ليزيد . فقال لهم : لا تعجلوا باظهار هذا ، وكونوا على رأيكم .

وأرسل معاوية الى زياد يستشيره ، فلم يوافق ولم يخالف ، وإنما أرسل إلى يزيد يطلب منه أن يكف عن أمور يكرهها منه الناس كالتهاون والولع بالصيد . ففعل يزيد أكثر مما طلب منه زياد .

وحاول معاوية أن يجعل ليزيد منزلة عند المسلمين . ويقدمه فى مهام الأمور فجعله قائدا لجيش وجهه الى القسطنطينية ، واراد أن يسير معه عبد الله بن عباس ، وتلطف معاوية فى ذلك فقال لابن عباس : « إن أحببت أن تخرج مع ابن أخيك فيأنس بقربك ، وتشير عليه برأيك » . فأبى ابن عباس أن يخرج معه وأخفقت الحملة .

وكان معاوية حريصاً على أن يعرف اتجاه الرأى العام ، وبخاصة كبار الناس ، فى بيعة يزيد ، وكان يحاول تهيئة الأمة لقبول هذه البيعة ، فاذا كان ليزيد بيعة فى أعناق الناس لم يختلفوا عليه . وقد كان حبه ليزيد عظيما ، وحبه للخلافة والسلطان عظيما ، كذلك وقد كان يزيد وحيد معاوية ، بعد أن ثكل ابنين قبله فلعله أراد أن يضمن له البيعة والخلافة .

من ذلك أنه سأل ابن الزبير : ما ترى فى بيعة يزيد ؟ قال : يا أمير المؤمنين : إن أخاك من صدقك ، فانظر قبل أن تتقدم ، وتفكر قبل أن تندم . فضحك معاوية ، وقال : ثعلب رَوَّاغ .

وسأل الأحنف بن قيس ، وسأل غيره ، وفى سنة ٥٥ هـ كتب الى الأمصار أن يفدوا عليه ، فوفد من كل مصر قوم ، وتكلمت وفود الأمصار

بعضها يدعو معاوية الى حسن الاختيار المجرد عن الهوى . وبعضها يؤيد البيعة ليزيد .

وأوعز الى الشعراء أن يهيئوا الأذهان لذلك أيضاً . وقصيدة مسكين الدرامى فى ذلك مشهورة . ويقول فيها بمحضر من عبد الله بن عامر ومروان ابن الحكم وسعيد بن العاص .

ألا ليت شعرى مايقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيد
بنى خلفـــاء الله مهلا فإنما يبوئها الرحمن حيث يريد
اذا المنبر الغـــربى خلاه ربه فإن أمير المؤمنين يزيد

فلما فرغ منها قال معاوية : ننظر فيما قلت ونستخير الله يامسكين . فلم يخالف أحد من الحاضرين .

ولـكنه كان يخشى أبناء الصحابة وعرف أن الحسين بن على وعبد الرحمن ابن أبى بكر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير خاصة لايرون رأيه فى بيعة يزيد . فخرج الى الحجاز ، وقابلهم ورحب بهم ، وسألهم رأيهم ، وكان ذلك فى مكة ، فأجاب عنهم ابن الزبير برفض البيعة ، ولـكنه خرج بهم الى البيت الحرام ووضع له منبر قرب الـكعبة ، ووكل بكل واحد منهم رجلين بسيفهما من أهل الشام . وخطب فقال : ان هؤلاء الأربعة قد بايعوا . فبايع الناس .

ثم نزل وارتحل الى الشام . وأخذ الناس يلومونهم ، وهم يقسمون أنهم لم يبايعوا . وانما سكتوا رهبة من السيوف المسلولة على رءوسهم .

وطال عمر معاوية الى سنة ٦٠ هـ . ومات وأكثر المسلمين راضون عنه : طمعا أو خوفا أو ولاء له ، والبلاد الاسلامية كلها تدين له بالطاعة والولاء .

---

٢ – يزيد

يؤثر التاريخ أن يتحدث عنه حديثاً مختصرا لأن حياته هو كانت مختصرة، فقد حكم ثلاث سنين، ومات وهو فى التاسعة والثلاثين من عمره. ولكنه مات بعد أن وصم تاريخه بحوادث ثلاث جرت عليه سخط المسلمين. تلك هى :

قتل الحسين . وقعة الحرة . رمى الكعبه .

(١) قتل الحسين سنة ٦١هـ .

كان قتل الحسين بالعراق على يد جيش أرسله اليه عبيد الله بن زياد والى تلك البلاد لمعاوية ثم ليزيد من بعده .

كانت حيلة معاوية التى سبقت الاشارة اليها – وهى أن يخبر أهل مكة بمبايعة الحسين وابن أبى بكر وابن عمر وابن الزبير ليزيد – سبباً فى بيعة الناس له . ولكن هؤلاء الكرام أبوها عليه . فلما حضرت معاوية الوفاة كتب ليزيد ، وكان بعيدا عنه :

« وإنى لست أخاف أن ينازعك فى هذا الأمر إلا أربعة نفر من قريش، الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبى بكر . فأما ابن عمر فإنه رجل قد وقذته[1] العبادة ، فإذا لم يبق أحد غيره بايعك . وأما الحسين ابن على فهو رجل خفيف . ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه ، فإن خرج وظفرت به فاصفح عنه ، فإن له رحما ماسة ، وحقا عظيما ، وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم . وأما ابن أبى بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثله ، ليس له همة الا فى النساء واللهو . وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد .

---

(١) غلبت عليه العبادة حتى أنهكته .

ويراغك مراغة الثعلب فذاك ابن الزبير ، فإنه هو فعلها فظفرت به فقطعه إرْباً إرباً[1] واحقن دماء قومك ما استطعت » .

فلما مات معاوية لم يكن ليزيد هم إلا مبايعة هؤلاء الكرام لما يعلمه من خطرهم ـ وهم منكرون لامامته ـ بسبب صحبتهم وسابقتهم ودينهم ومنزلتهم فى نفوس المسلمين ، فأرسل الي واليه على المدينة ، الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أن يرغمهم على البيعة .

أما ابن الزبير ففر الى مكة عائذا بالبيت ، وكان لا يصلى بصلاتهم ولا يفيض فى الحجج بافاضتهم ، ولا يقف معهم فى عرفات .

وخرج بعده الحسين الى مكة ومعه آل بيته الا أخاه محمد بن الحنفيه ، وكان الناس يختلفون اليه من الآفاق .

وعرف أهل الكوفة بموت معاوية فكتبوا إلى الحسين كتباً كثيرة ، فاستجاب لها ، وارسل إليهم مسلم ابن عمه عقيل ليتعرف امرهم ، وكان والى الكوفة ليزيد النعمان بن بشير الأنصارى ، فلم يعرض لمسلم ولا لأصحابه بسوء ، فعزله يزيد وولى مكانه عبيد الله بن زياد امير البصرة ، وامره بطلب مسلم وقتله او نفيه ، فظفر به عبيد الله وقتله بعد ان انخذل عنه اكثر الذين دعوا الحسين الى بلادهم .

وعزم الحسين على الخروج الى العراق فنصح له ابن عباس ألايخرج حتى يعلم أن الأمر هناك لأنصاره ، وأن الخراج بأيديهم ، وأنهم خلعوا عبيد الله ابن زياد . أو اذا كان لا بد من الخروج فليخرج الى اليمن ، فإن بها شعابا وجبالا ، ولأبيه فيها شيعة وأنصارا ، وهى بعيدة عن مركز الخلافة ، وقال له : ان العراق قد خذلت أباه من قبله . فلما رأى من الحسين رغبة ملحة فى الخروج الى العراق نصح له أن يخرج وحده ، ويترك نساءه وأولاده . فلم يستمع لنصيحته .

---

(١) الأرب العضو : أى فقطعه عضوا عضوا .

وخرج يريد العراق وقابله الفرزدق الشاعر بالطريق — وكان الفرزدق يتشيع — فسأله الخبر فقال له : «قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بنى أمية، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء » .

ثم جاءه كتاب من ابن عمه عبد الله بن جعفر يقسم عليه لما انصرف ، ومعه كتاب أمان من عمرو بن سعيد والى المدينة ، ويسأله الرجوع ، فأبى . ثم قابله عبد الله بن مطيع فلما عرف غايته نصح له ألا يعرض نفسه للقتل ، فإذا قتله بنو أمية لم يدعوا لأحد بعده حرمة ، فأبى .

ثم بلغه مقتل مسلم بن عقيل، وعرض عليه أصحابه أن يرجع فثار بنو عقيل، وأبوا إلا أن يسيروا ليدركوا ثأر أبيهم . فسار حتى نزل « شراف » فقابله جيش لعبيدالله بن زياد عليه الحر بن يزيد التميمى ، فأراد أن يعود إلى الحجاز، فأبى عليه الحر حتى يقدم به على عبيد الله بن زياد بالكوفة ، فأبى أن يقدم عليه ، وسار إلى شمال العراق ، فأرسل إليه ابن زياد جيشا عليه عمر بن سعد ابن أبي وقاص ، فعرض الحسين أن يعود الى الحجاز ، فكتب عمر بذلك الى ابن زياد ، فرد عليه :

الآن إذ عرضت مخالبنـــا به   يرجو النجاة ولات حين مناص

وطلب منه أن يدعو الحسين الى بيعة يزيد ، ثم يرى رأيه فيه بعد ذلك ، وأن يمنعه الماء هو ومن معه . فأبى الحسين أن ينزل على حكم ابن زياد ، فلم يكن الا القتال . ولم يكن مع الحسين جيش ، فقتل هو ومن معه وكانوا قريباً من مائة ، وأخذ رأسه الى ابن زياد ، وحمل معه بنات الحسين وأخواته وآل بيته ، وفيهم على بن الحسين وهو صغير مريض . فأمر ابن زياد أن يحمل الرأس الى يزيد بالشام ، ومعه النساء والصبيان ، وكان قتله فى عاشر المحرم سنه ٦١ .

ويقال ان يزيد بكى عند ما علم بالخبر ، وقال : لقد كنت أرضى من ابن سمية — يعنى عبيد الله — بدون هذا ، أما والله لو كنت صاحبه لعفوت عنه .

ويقال ان ابن زياد تنصل من التبعة ، وقال : لولا أمر يزيد ما قتلته — فرحم الله الحسين وجزى من غرروا به وأسلموه !

ويرى المرحوم الخضرى أن خروج الحسين لم يكن صواباً ، وظاهر من كل ما تقدم أنه كان مخدوعا فى أهل العراق . ولم يستمع لنصيحة ابن عباس ولا لنصيحة أخيه محمد بن الحنفية ولا لغيرهما من الناصحين . وأمن عرب العراق الذين قتلوا أباه وخذلوا أخاه ، وقد كانت لهما بيعة فى أعناقهم وهو ليست له بيعة وانما البيعة ليزيد .

وعلى كل فلم يكن قتل الحسين مما يشرف يزيد ، ولا مما ينفع ابن زياد فقد جرّ على بنى أمية عامة ، ويزيد خاصة لعنات وسخطا من المسلمين ، واستغلها الشيعة وآل البيت فوجدت آذاناً صاغية ، وقلوبا حساسة ، فكانت مع غيرها من أخطائهم سبباً فى ذهاب ملكهم .

وقعة الحرة فى ذى الحجة سنة ٦٣ هـ :

وهى وقعة عظيمة بين جيوش يزيد بقيادة مسلم بن عقبة المرى . وبين أهل المدينة بالجانب الشرقى منها ، عند مكان يقال له : « حَرَّة وَاقِم » .

أما سببها فهو أن أهل المدينة ثاروا على يزيد فى إمارة عثمان بن محمد بن أبى سفيان بعد أن بايعوه ، وذهبوا إليه بالشام ، وأعطاهم مئات الألوف لهم ولأولادهم . فلما بلغته ثورتهم ومحاصرتهم لبنى أمية فى دار كبيرهم مروان ابن الحكم تمثل بقول الشاعر :

لقد بدّلوا الحكم الذى فى سَجِيَّتى　　فبدّلْتُ قَوْمى غِلْظَة بِليان

وجاءهم مسلم بن عقبة فى اثنى عشر الفاً ، وأمره يزيد أن يدعوهم ، فإن أجابوا وإلا قاتلهم ، فإذا ظفر بهم أباح المدينة ثلاثا . فدعاهم مسلم فأبوا ، فحاربهم فهزمهم ، وأباح المدينة ثلاثة أيام للسلب والقتل وهتك الاعراض .

وهذه ثانية العظائم التى سودت تاريخ يزيد . كيف يستبيح هذا البلد

الطاهر ، ويعتدى جنوده بأمره على بنات الأنصار ونسائهم اعتداء محرما ، وهؤلاء هم الذين آووا ونصروا . وأحبوا من هاجر إليهم ، وآثروا على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة؟ وليت هذا فقط ، بل إن يزيد تمثل عند ما بلغه انتصار جيشه بقول ابن الزبعرى فى أحد :

ليت أشياخى ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسَلْ

لعل أهل المدينة كانوا مخطئين فى نقض البيعة بعد أن بايعوا وأخذوا عطاء يزيد ، ولكن للإسلام حدوداً فى معاملة المغلوبين فى الحرب من المسلمين فلم لا يلتزمها يزيد ، وقد كانت له فى رسول الله أسوة حسنة إذ دخل مكة فاتحا ، فعفا عن أجداد يزيد هذا ، وقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وما هذه العصبية الجاهلية من خليفة المسلمين ؟ يتمثل بقول ابن الزبعرى وهو يتشفى من المسلمين ؟ أما كان يكفيه ما كان من جده يوم أحد إذ قال : يوم بيوم بدر ؟

رمى الكعبة سنة ٦٤ هـ :

أمر يزيد جيشه أن يتقدم إلى مكة ليخلصها من ابن الزبير ، وقد كان ابن الزبير ساكتا طول إقامة الحسين بمكة فلما خرج عنها إلى العراق رأى أن الجو قد خلا له ، فدعا الناس إلى بيعته والخروج على يزيد ، فسار اليه جيش يزيد بعد وقعة الحرة وكان قائده مسلم بن عقبة المرى مات قبل أن يصلها، وخلفه على الجيش رجل يقال له : الحصين بن نمير ، فسار إلى مكة فبلغها فى أواخر المحرم سنة ٦٤ هـ وخرج ابن الزبير لملاقاته ، فانتصر جيش الشام ، ورجع ابن الزبير إلى مكة عائذا بالبيت ، فنصب أهل الشام المجانق على جبلى أبى قبيس وقعيقعان ، ورموا الكعبة بالحجارة الثقيلة حتى أصابها بعض الوهن . ولم يكن أحد يستطيع أن يطوف بالبيت خشية أن تصيبه الحجارة . فأقام ابن الزبير ألواحا من ساج تحمى البيت ، فكانت الحجارة تقع عليها وتنبو عنه . ونصب فى الحرم خياما ، فأخذ رجل من أهل الشام نارا وألقاها

على هذه الخيام ، فطار منها شرر ووقع على الـكعبة فاحترق السقف ، وانصدع الركن واحترقت الأستار ، وتساقطت على الأرض ، وعرف ابن الزبير فى أثناء ذلك بموت يزيد قبل أن يعرفه أهل الشام .

وقصة معرفته بذلك طريفة لا بأس من إيرادها :

« كان ابن الزبير جالساً يوما مع أهل مكة فى جانب الحجر وأهل ، الشام يرمونهم بالنبل والحجارة ، فوقعت نبلة بين يديه ، فقال : فى هـذه خبر ، فأخذها فوجد فيها مكتوباً . مات يزيد بن معاوية يوم الخميس لأربع عشرة خلت من ربيع الأول . فلما قرأ ذلك قال : يا أهل الشام ، يا أعداء الله ومحرق بيته . علام تقاتلون وقد مات طاغيتكم ؟ فقـال الحصين بن نمير ، موعدك البطحاء الليلة يا أبا بكر — وهى كنية ابن الزبير — فلما كان الليل خرج ابن الزبير بأصحابه وخرج حصين بأصحابه إلى البطحاء . ثم انفردا ، فقال حصين : يا أبا بكر ، أنا سيد أهل الشام لا أدافع ، وأرى أهل الحجاز ، قد رضوا بك ، فتعال أبايعك الساعة ، ويهدر كل شىء أصبناه يوم الحرة ، وتخرج معى الى الشـام فانى لا أحب أن يكون الملك بالحجاز . فرفض ابن الزبير ، وقال : والله لا أفعل ولا آمن من أخاف الناس ، وأحرق بيت الله ، وانتهك حرمته .

قال الحصين : بلى فافعل ، على ألا يختلف عليك اثنان !

فأبى ابن الزبير . فقـال له الحصين . والله لا تفلح أبدا . ووقف القتال وانصرف الحصين إلى الشام هو وجنوده .

أكان لابن الزبير جواسيس فى أهل الشام فأخبروه بموت يزيد فى كتاب معلق بتلك النبلة التى وقعت بين يديه ؟ لادليـل على هذا ، ولعل التعليل القريب من العقل ، أن هؤلاء الناس قد كرهوا أمراءهم ، ورأوا أن يزيد لم يترك بعد موته خلفا يصلح لأمر الخلافة ، وظنوا أنهم إن فعلوا ذلك مع ابن الزبير فربما كانت هذه يدا يحفظها لهم ، ويكرمهم بسببها بعد .

أما خروج ابن الزبير على يزيد فلا غرابة فيه ، وموقفه أسلم من موقف الحسين ، فهو لم يبايع ، ولم يخرج على يزيد حتى وثق من أصحابه ، وكان خروجه فى بلده ، وله أنصار وأعوان فيه ، والمكان نفسه حرم آمن جعله الله قياما للناس وأمنا ، فمن انتهك حرمته فقد عرض لنفسه لسخط الناس — وسخط الله أعظم — وصرف القلوب عن نصرته وقد يصرفها عن بيعته كذلك ، ولكن أهل الشام كانوا لايحفلون ، أو كانوا يتأولون ، فحاربوا ابن الزبير فى مكة . ولم يكتفوا بهذا بل رموا الكعبة حتى صدعوها ، واحترقت .

والحضين ابن نمير دعا ابن الزبير إلى الشام ، فهل كان ابن الزبير مخطئا فى رفض دعوته ؟ الشام مقر بنى أمية والولاء فيها لهم فكيف يأمن ابن الزبير المقام بين أعدائه ؟ وكيف يثق بعدو كان يحاربه ويطلب دمه ؟ ولم يخرج عن الحجاز وهو يتخذ من البيت وقاية وحمى ؟ ولم لا تعود خلافة المسلمين إلى الحجاز ، وقدنشأت أول أمرها فيه ؟ لعل كل هذه الأسئلة كانت تدور بخلد ابن الزبير عند ما رفض دعوة الحضين ولم يثق به ، وهو على صواب إلى حد كبير .

وابن الزبير صحابى جليل ، وأبوه الزبير بن العوام حوارى رسول الله وأحد المبشرين بالجنة ، وجدته صفية عمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجده الصديق رضى الله عنه ، وأمه أسماء ذات النطاقين ، وخالته عائشة أم المؤمنين . وليس بالحجاز من كبار الصحابة من يطلب هذا الأمر لنفسه ، فالحسين قد قتل وابن عباس وابن عمر وابن الحنفية قد بايعوا لبنى أمية من قبل ، وبايعوا ليزيد ، وكل هذا يقوى موقفه ، ويثبت قدمه فى الخلافة ، وفى الحجاز بوجه خاص .

ولكن بعض المؤرخين يرون فى رفضه دعوة الحضين خطأ لأنه كان يجب أن يستغل الظرف ، ويذهب الى الشام لأنها أصلح من الحجاز : لخيراتها ، وكثرة أهلها ، وتوسطها بين البلاد الاسلامية ، بمايسهل تموين الجيوش منها

وسرعة انتقالهم الى غيرها من الأقطار الإسلامية اذا دعت الحاجة .

وعلى كل فقد رضى ابن الزبير عن الحجاز ، وكان له فيها شأن عظيم ، امتد حتى كاد يشمل البلاد الإسلامية كلها ، ثم تراجع نفوذه وسلطانه ثم زال على يد الحجاج والملك لله يؤتيه من يشاء .

هذه الحوادث الثلاث وصمت تاريخ يزيد وما زال موضع سخط كثير من المسلمين من أجلها إلى الآن .

معاوية الثانى :

ولى الخلافة بعد أبيه بعهد منه وكان شابا بعد العشرين بقليل ولكنه فيما يروى التاريخ كان زاهدا وكان ضعيفا لايرى نفسه أهلا للخلافة فتنازل عنها وأبى أن يولى أحدا ، وترك الأمر للمسلمين ، ثم مات بعد ثلاثة أشهر من خلافته سنة ٦٤ هـ .

---

٣ ــ سلطان ابن الزبير

كانت الأمور تجرى باليُمْـن لابن الزبير ؛ ولـكنها صارت إلى بنى أمية فيما بعد وذهب ملك ابن الزبير بعد أن كان يشمل الحجاز والعراق ومصر . وكانت الشام توشك أن تبايع له ولـكن دولته ذهبت لما لقيه من جد عاثر . فقد كان له شأن مع الخوارج : والشيعة فى العراق ، والأمويين فى الشام : وانتهى ذلك كله بزوال سلطانه وقتله ، وقيام دولة بنى مروان .

بينه وبين الخوارج :

لما ذهب مسلم بن عقبة إلى المدينة وتوقع الخوارج أن يسير بعدها إلى مكة لحرب ابن الزبير خرجت جماعة منهم بزعامة نافع بن الأزرق ونجدة بن عامر الحنفيين وقالوا : يجب أن نذهب إلى مكة ، ونمنع حرم الله ، ونمتحن ابن الزبير ، فإن كان على رأينا بايعناه . ثم جاءوه وقالوا له :

« إنا جئناك لتخبرنا رأيك ، فان كنت على الصواب بايعناك . وإن كنت على غيره دعوناك إلى الحق » . ثم سألوه عن أبى بكر وعمر « فقال : خيراً ثم قالوا : « فما تقول فى عثمان الذى أحمى الحمى ، وآوى الطريد ، وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه ، وأوطأ آل أبى معيط رقاب الناس [١] . وآثرهم بفىء المسلمين [٢] ؟ وفى الذى بعده الذى حكم الرجال فى دين الله [٣] ، وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم ؟ وفى أبيك وصاحبه وقد بايعا علياً وهو إمام عادل

---

(١) يقصدون بذلك الوليد بن عقبة بن أبى معيط وقد ولاه عثمان الكوفة .

(٢) خصهم بأموال الخراج .

(٣) يقصدون بذلك على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ويشيرون إلى قبوله الاحتكام إلى كتاب الله ، ليحكم بينه وبين معاوية ، والغريب أن الخوارج هم الذين حملوه على ذلك ، بعد أن بين لهم أنها خدعة من معاوية .

مرضى لم يظهر منه كفر ، ثم نكثا بعرض من أعراض الدنيا ، وأخرجا عائشة تقاتل ، وقد أمرها الله وصواحبها أن يَقَرْنَ[١] فى بيوتهن، وكان فى ذلك ما يدعو إلى التوبة ؟ فإن أنت قلت كما نقول فلك الزُّلْفَةُ عند الله والنصر على أيدينا ، ونسأل الله لك التوفيق ، وإن أبيت إلا نصر رأيك الأول . وتصويب أبيك وصاحبه . والتحقيق بعثمان ، والتولى فى السنين الست التى أحلت دمه ، ونقضت بيعته ، وأفسدت إمامته خذلك الله ، وانتصر منك بأيدينا » .

فقال ابن الزبير : إن الله أمر — وله العزة والقدرة — فى مخاطبة أكفر الكافرين ، بأرأف من هذا القول ، فقال لموسى وأخيه صلى الله عليهما فى فرعون: « فَقُولا له قَولا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تؤذوا الأحياء بسبِّ الموتى » . فنهى عن سب أبى جهل من أجل عِكْرِمةَ ابنه ، وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول ، والمقيم على الشرك ، والجاد فى المحاربة والمستبغض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة ، والمحارب له بعدها ، وكفى بالشرك ذنباً .

وكان يغنيكم عن هذا القول الذى سميتم فيه طلحة وأبى أن تقولوا : أتبرأ من الظالمين ؟ فإن كانا منهم دخلا فى غُمار[٢] الناس ، وإن لم يكونا منهم لم تحفظونى بسب أبى وصاحبه ، وأنتم تعلمون أن الله جل وعز قال للمؤمن فى أبويه : « وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفاً » وقال جل ثناؤه : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً » . وهذا الذى دعوتم إليه

---

(١) يقعدون ، ويشيرون بهذا إلى خروج عائشة إلى العراق ، وقد انتهى هذا الخروج بوقعة الجمل .

(٢) غمار بالضم والفتح جماعة الناس .

أمر له ما بعده ، وليس يقنعكم إلا التوقيف والتصريح . ولعمرى إن ذلك أحْرَى بِقطْعِ الحجج ، وأوضح لمنهاج الحق ، وأولى بأن يعرف كل صاحبه من عدوه ، فروحوا إلى من عَشيتكم هـذه ، أكشف لكم ما أنا عليه إن شاء الله .

فلما كان العشى راحوا إليه ، فخرج إليهم وقد لبس سلاحه . فلما رأى ذلك نجدة بن عامر قال : هذا خروج مُنَابذ [١] لكم . فجلس على رفيع من الأرض ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم . ثم ذكر أبا بكر وعمر أحسن ذكر ، ثم ذكر عثمان فى السنين الأوائل من خلافته ، ثم وصلهن بالسنين التى أنكروا سيرته فيها . وخبر أنه آوى الحكم بن أبى العاص بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذكر الحمى وما كان فيه من الصلاح ، وأن القوم استعتبوه [٢] من أمور ، وكان له أن يفعلها أولا مصيباً ، ثم أعتبهم بعد محسناً » واستمر فى دفاعه عن عثمان وسكت عن على ، ثم دافع عن أبيه وطلحة فقال :

« وأبى وصاحبه صاحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله يقول عن الله تعالى يوم أحد لما قطعت إصبع طلحة: « سبقته إلى الجنة » . ثم قال : والزبير حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوته . وقد ذكر أنهما فى الجنة . وبين لهم بعد ذلك أن الله رضى عنهم يوم بيعة الرضوان [٣] ، وأنه لم يخبرنا أنه سخط عليهم بعد ذلك . ثم يقول :

«فإن يكن ما سعوا فيه حقاً فأهل ذاك ، وإن يكن زلة فى عفو الله

---

(١) منابذ : مكاشف بالعداوة .

(٢) طلبوا منه أن يرضيهم فأرضاهم .

(٣) بيعة الرضوان : خرج صلى الله عليه وسلم فى سنة ٦ من الهجرة معتمراً فأبت قريش عليه دخول مكة ، فأرسل سيدنا عثمان ليبلغهم أنه جاء معتمراً معظما للبيت لامحاربا ، فحبست قريش سيدنا عثمان ، فبايع النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه « بيعة الرضوان » تحت شجرة الرضوان على ألا يرجعوا حتى يحاربوا قريشا ، ثم تبين له بطلان الخبر وصالح قريشا صلح الحديبية الذى نزلت فيه سورة الفتح .

تمحيصها [١] ، وفيما وفقهم له من السابقة مع نبيهم صلى الله عليه وسلم ، ومهما ذكرتموهما فقد بدأتم بأمكم عائشة رضى الله عنها ، فإن أبى آب أن تكون له أماً نبذ اسم الايمان عنه . قال الله جل ذكره وقوله الحق « النَّبِيُّ أوْلَى بالمؤمنين من أنفسهم وأزْوَاجُه أُمَّهَاتُهُم » .

فلما أتم كلامه عرفوا أنه لا يرى رأيهم ، فانصرفوا عنه وتركوا مكة وساروا إلى العراق ، ونزلوا البصرة ، ثم أمَّرُوا عليهم نافع بن الأزرق ، ثم تحولوا عنها إلى الأهواز وأثاروا حروباً وجدلا ، ورأوا فى الدين آراء ، ثم اختلف نافع ونجدة فسار نجدة إلى اليمامة .

واستمرت جماعة نافع تحارب حتى أصابها المهلب بن أبى صفرة إصابات قاتلة فى معارك كثيرة . وقتل نافع بالأهواز فى يوم دولاب سنة ٦٥ هـ .

ابن الزبير والمختار :

كان المختار بن أبى عبيد الثقفى يتشيع ، ولعله كان ممن كاتب الحسين فى خلافة يزيد ، وكان بالعراق عند مقتل مسلم بن أبى عقيل ، فتمرد وأظهر الشر ، فخافه عبيد الله بن زياد فحبسه ، ولكن عبد الله بن عمر بن الخطاب — وكان زوجا لأخت المختار — شفع له عند يزيد فأطلق سراحه .

وخرج المختار من سجن ابن زياد فوجد الحسين قد قتل ، ولم يبق أمامه من يرجو أن يحقق له أطماعه إلا ابن الزبير — وكان المختار طموحا راغباً فى العظمة والسلطان — فذهب إليه بمكة لعله يوفق معه .

ولم يستطع فى أول أمره أن ينال ثقة ابن الزبير ، فخرج المختار إلى الطائف ، ومكث بها سنة ، ثم عاد إلى مكة ، فدعاه ابن الزبير إلى بيعته ، فقال المختار : أبايعك على ألا تقضى أمراً دونى ، وعلى أن أكون أول داخل ، وإذا ظهرت فاستعن بى على أفضل عملك .

---

(١) أن يغفر لصاحبها .

فأبى ابن الزبير أن يبايعه إلا على سنة الله ورسوله .

فقال المختار : وَشَرُّ غلماني تبايعه على ذلك . ثم أبي أن يبايع ونزل ابن الزبير عند رغبته ، فشهد معه قتال الحضين بن نمير ، وكان من أشد الناس على جند الشام ، ولكنه مكث مدة وابن الزبير لا يوليه عملا فخرج إلى العراق مطالباً بدم الحسين ، وكان له شأن مع عبيد الله بن زياد ومع مصعب ابن الزبير كما سيأتي :

الأمر فى العراق والشام

١ — فى العراق :

مات يزيد الأول سنة ٦٣ هـ والوالى على العراق هو عبيد الله بن زياد ، فلما سمع بنعيه جمع الناس فى مسجد البصرة ثم خطب فيهم فذكر فضله فى استتباب الأمن وزيادة الجيش ، وذكر موت يزيد واختلاف الناس ، ودعاهم أن يختاروا لدينهم وجماعتهم رجلا يرضونه ، أو يصبروا حتى يروا ما يفعل أهل الشام .

وأرادوا بيعته فأباها عليهم ثلاثا ثم رضى ، ولكنهم لم يكادوا يخرجون من عنده حتى مسحوا ايديهم من بيعته،وقالوا : أيظن ابن مرجانة أنا ننقاد له ؟

أما أهل الكوفة فأبوا بيعته ، وكانوا اكثر تشيعا ، فلما علم بذلك أهل البصرة خلعوه ، وظهرت الدعوة إلى ابن الزبير فاستجاب لها كثير من الناس ورأى ابن زياد أن حياته أصبحت فى خطر فاستجار بالحارث بن قيس الأسدى حتى سنحت له فرصته فهرب إلى الشام،وكان له شأن فى إقامة مروان بن الحكم خليفة فى الشام .

وكتب أهل المصرين بالبيعة إلى ابن الزبير فأرسل إليهم العمال من عنده وكذلك دخل فى بيعة ابن الزبير أهل مصر . بعد تنازل معاوية الثانى،ولم يبق إلا الشام .

٢ — فى الشام :

مات معاوية الثانى ، وأمير دمشق الضحاك بن قيس، وأمير حمص النعمان بن بشير وأمير قنسرين زفر بن الحارث الكلابى ، وهو أهم جميعا فى ابن الزبير ، وكان أمير فلسطين حسان بن مالك بن بجدل الكلبى ، وهواه فى بنى أمية . فجمع إليه من يرون رأيه ، وفكروا فى الأمر ، وعرفوا أن الناس يأبون

تولية غلمان عليهم فى الشام وخشوا أن ينتقل الملك من الشام إلى الحجاز ، وفكروا فى عمرو بن سعيد فرأوه صغير السن وفى خالد بن يزيد بن معاوية فرأوه صغيراً .

ونظروا فوجدوا مروان بن الحكم شيخ بنى أمية وأكبرها ، ولكنه لم يكن بينه وبين أهل الشام صلة متينة لأنه كان يقيم أكثر وقته بالمدينة والياً عليها أو معزولا عنها وكان يرى أن أمر ابن الزبير قد عظم ، فحمله ذلك على أن يفكر فى البيعة لابن الزبير ، ولكن نشاط حسان بن مالك الكلبى ورغبته فى أن تكون الخلافة لبنى أخته من ذرية يزيد بن معاوية جعلت الأمور تجرى مجرى آخر ، فلما رأى رغبة الناس عن هؤلاء الشبان كف عن التفكير فى أمر خالد ، وإن كان قد بقى على رأيه فى بنى أمية ، وكتب إلى الضحاك وإلى اهل دمشق يعظم حق بنى امية ويذم ابن الزبير ، فاشتد ساعد بنى أمية وأنصارهم من كلب فى دمشق .

وجاء عبيد الله بن زياد فى ذلك الوقت إلى الشام هاربا من العراق ، وكان يفكر فى الأمر ، فلما رأى هذا الاختلاف أراد أن يجمع أمر بنى أمية وأنصارهم فدعا لمروان بن الحكم ولخالد بن يزيد من بعده ، فأرضى بذلك أنصار خالد ، وتخلص من الصعوبة القائمة فى سبيله بحجة أنه صغير . واتفقوا على ذلك ، وتمت البيعة لمروان فى مؤتمر « الجابية » (سنة ٦٤ هـ فى ذى القعدة) .

رأى مروان وأعوانه أن يسيروا بجموعهم إلى دمشق — مركز الخلافة — ليخلصوها من الضَّحاك ، وخرج الضحاك بجموعه فنزل « مرج راهط » والتقت الجيوش فقتل من قيس وأعوانهم عدد عظيم ، ومات الضحاك نفسه فى المعركة سنة ٦٥ هـ فى المحرم ، ودخل مروان دمشق ، ونزل بدار معاوية ابن ابى سفيان .

ولما بلغ أمر هذه الهزيمة النعمان بن بشير والى حمص هرب فتبعه جماعة من أهلها ممن كانوا يميلون إلى بنى أمية فقتلوه .

وهرب زفر بن الحارث والى قنسرين ، ونزل بقرقيسيا فى شمال العراق ، وغلب عليها وتحصن بها ، وظل بها حتى صالحه عبد الملك ، بعد أن أعياه أمره فى ميدان القتال .

أما هزيمة الضحاك فى « مرج راهط » فكانت خديعة وغشاً ، فقد كان فى ستين ألفاً ، وكان مروان فى ثلاثة عشر ألفاً ، فرأى عبيد الله بن زياد المخادعة وأفضى بذلك إلى مروان فوافقه . فأرسلوا إلى الضحاك بالموادعة ، فظنهم قد عدلوا عن رأيهم ، وأرادوا البيعة لابن الزبير . ولكنه لم يكد يطمئن اليهم ويلق سلاحه هو وجُنوده حتى ثارت بهم جنود مروان ، واستمرت المعركة زمناً ، وكانت عاقبتها ما قدمنا . وقد خلفت ثارات وإحنا بين قبائل العرب ، وأهم ذلك ماكان منها بين « قيس » رهط الضحاك - « وكلب » رهط حسان بين مالك .

ولما تم الأمر لمروان الأمر بالشام سار إلى مصر فافتتحها ، وبايعه أهلها ، ثم عاد إلى دمشق .

لم يكن مروان يخشى إلا خالد بن يزيد ، وكان يميل إلى جعل الخلافة لابنه عبد الملك من بعده ، فأشار عليه مشيروه أن يتزوج من أم يزيد ليذل نفسه ففعل ، وقالوا إن مروان كان يفحش فى سبابه ، فشتم خالد بن يزيد يوما على ملأ من الناس . شتيمة عرض فيها بأمه ، فدخل يزيد عليها وهو يبكى ، فطيبت خاطره ، وقالت له : لا عليك ، فانه لا يعود إليك بمثلها . ويقال إنها أمرت الجوارى بقتله وهو نائم عندها ففعلن .

وروى أن عبد الملك لما ولى الخلافة : قالة لعاتكة أم خالد : لولا أن يقول الناس إنى قتلت امراة بأبى لقتلتك بأمير المؤمنين .

ولم تطل مدة مروان فى الخلافة فقد مات فى رمضان سنة ٦٥ هـ وولى الأمر من بعده ابنه عبد الملك .

ونسمع لأول مرة باسم الحجاج فى التاريخ فى عهد عبد الملك ، وذلك فى قصة خروجه لحرب زفر بن الحارث التى تقدمت فى أول صفحة من هذا الكتاب .

ولم يكن عبد الملك خامل الذكر ، ولا بالذى يغفل أمره عن الكلام عن بنى مروان ودولتهم ، وما كان فيها من أحداث وسياسة وأدب ، وحرب وإصلاح ، ولكنى مضطر إلى الحديث عنه حديثاً مختصراً ، إذ ليس الكتاب خاصاً به ، ولا مؤلفاً من أجله .

---

٤ – عبد الملك

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم ، ولد سنة ٢٦ هـ بالمدينة ، ولما شب كان عاقلا حازما أديبا وكان معدوداً من فقهاء المدينة ، يُقرَنُ بسعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وقال الشعبي ، ما ذاكرت أحداً إلا وجدت لى فضلا عليه ، إلا عبد الملك ، فإنى ما ذاكرته حديثاً إلا زادنى فيه ، ولا شعراً إلا زادنى فيه .

وسيمر بنا فى أثناء الحديث عن الحجاج كثير من البراهين على صدق الشعبي فى حكمه على عبد الملك ، وكان معدوداً من الفصحاء الخطباء ، والرواة للأشعار ، وأصحاب الذوق فى الشعر ونقده ، ورابع اربعة لم يلحنوا فى جد ولا هزل .

ولى الخلافة بعد أبيه بعهد منه ، وكانت الأمور مضطربة عليه ، فليس له من الأمر شيء فى غير مصر والشام . والشام نفسها كان فيها من ينفس عليه ويود ذهاب سلطانه ، ويحاول خلعه ، وهو عمرو بن سعيد ، وكان جنوده فى تمرد ، وسوء طاعة ، كما سبق فى أول الكتاب ، حتى شكا ذلك إلى روح ابن زنباع فدله على الحجاج ، فألزمهم طاعته ، وأدبهم فأحسن أدبهم .

كان يشغله أمر عمرو بن سعيد بن العاص بالشام .
وأمر الشيعة والخوارج وأنصار ابن الزبير بالعراق .
وأمر ابن الزبير نفسه بالحجاز .

بينه وبين عمرو بن سعيد :

أما عمرو بن سعيد هذا فهو ابن عم مروان بن الحكم ، وكان فصيحاً خطيباً ، وكان طموحاً ، اتجهت اليه الآراء قبل مروان بن الحكم فى مؤتمر الجابية لولا صغر سنه .

وقد ولاه مروان أمر جيش لمحاربة ابن الزبير عندما أرسل هذا أخاه مصعباً ليفتح الشام ، فهزمه عمرو بن سعيد ، ويقال إن مروان قد عهد بالخلافة اليه بعد خالد بن يزيد . ثم خلعهما وولى عبد الملك .

وفى سنة ٦٥ هـ أراد عبد الملك أن يلحق بزفر بن الحارث فى قرقيسيا ، بعد أن استعصى أمره على جيش لمروان بقيادة عبيد الله بن زياد ، وكان يخشى عمرو بن سعيد وغيره ، فأخرج معه من كان يخافهم ومنهم عمرو بن سعيد . ويقال إنه لما أخذ فى جهازه والاستعداد للخروج اقبلت زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية فى جواريها ، وقد تزينت بالحلى فقالت : يا أمير المؤمنين : لو قعدت فى ظلال ملكك ، وبعثت اليه كلباً من كلابك لكفاك أمره ، فقال : هيهات ! أما سمعت قول الأول :

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم ... دون النساء ولو باتت بأطهار

فلما أبى عليها وعزم ، بكت ، وبكى معها جواريها ، فقال عبد الملك ، قاتل الله ابن أبى ربيعة [1] ! كأنه ينظر الينا حيث يقول :

إذا ما أراد الغزو لم تثن همه ... حصان [2] عليها نظم دُرٍّ يزينها

نهته فلما لم تر النهى عاقه ... بكت فبكى مما شجاها قَطِينها [3]

ثم خرج فلما كان على ثلاث مراحل من دمشق عاد عمرو بن سعيد بعدد من الجيش فعاد عبد الملك وراءه ، فوجده قد استولى على المدينة وعلى بيت المال ، وجمع الناس وخطب فيهم ، فحاصره عبد الملك ، ثم صالحه على أن يكون له الأمر من بعده ، ولكن عبد الملك الذى كان يريد الخلافة لابنه ، ويفضله على أخيه ، ما كان ليرضى أن تذهب الى فرع من بنى أمية بعيد منه ، فلما اطمأن اليه عمرو غدر به وقتله ، ويقال إن هذا أول غدر حدث فى الاسلام .

---

(١) يروى صاحب الآمالى أنه كان خارجا لقتال مصعب ، وقال : قاتل الله كثيراً . وبهذا تكون نسبتها الى كثير عند صاحب الآمالى .

(٢) الحصان : العفيفة .　　(٣) القطين : الخدم .

وقد قال له عبد الملك لما أراد قتله : إنى لو علمت أنك تبقى ويصلح ملكك لفديتك بدم الناظر ، ولكن قلما اجتمع فحلان فى ذود [١] إلا عدا أحدهما على الآخر ، ثم أدرج فى بساط وأدخل تحت السرير ، ودعا عبد الملك قبيصة ابن ذؤيب الخزاعى ، فسأله رأيه فى عمرو بن سعيد . فلما لمح الرجل قدم عمرو تحت السرير قال : اضرب عنقه يا أمير المؤمنين ، فقال له قد فعلت فقال له الخزاعى : اطرح رأسه وانثر الدنانير على الناس يتشاغلون بها ، ففعل عبد الملك وتفرق الناس وبخاصة أعوان عمرو ، وهرب أخوه يحيى بن سعيد إلى ابن الزبير بمكة .

ومما يرويه صاحب العقد أن عبد الملك أرسل إلى رجل من خاصته وكان يستشيره ويصدر عن رأيه إذا ضاق عليه الأمر . فقال له : ما ترى ما كان من فعلى بعمرو بن سعيد ؟ قال : أمر قد فات دَرْكه . قال . لتقولن : قال : حَزْمٌ لو قتلته وحييت أنت . قال . أولستُ بحى ؟ قال : هيهات ! ليس بحى من أوقف نفسه موقفا لا يوثق منه بعهد ولا عقد .

ولما بلغ ابن الزبير مقتل عمرو بيد عبد الملك صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إن عبد الملك بن مروان ، قتل لطيم الشيطان [٢] ، وكذلك نُوَلّى بعضَ الظالمين بَعضاً بما كانُوا يَكسِبُون » .

وقد يرى المؤرخ فى عمل عبد الملك كرأى مستشاره فيه ، ويرى الغدر قبحاً ، لكن ماذا كان يكون لو أبقى عليه عبد الملك ؟ الذين يعتذرون لعبد الملك يرون فى فعله قطعاً لجذر من جذور الفتنة قبل أن ينمو ويتفرع ، ولكنه غدر على كل حال .

---

(١) الذود الجماعة من الابل من ثلاث إلى عشر . وهو مؤنث . والمقصود : لا يجتمع عظيمان فى جماعة إلا عدا أحدهما على الآخر .

(٢) لطيم الشيطان . لقب سوء لعمرو بن سعيد ، وذلك بسبب ميل كان فى فمه ، ولعلهم تخيلوا أن الشيطان لطمه فأمال فمه .

العراق فى أول عهد عبد الملك :

(ا) الشيعة والمختار : قدمنا أن الحسين قتل بالعراق فى زمن يزيد ، وأن أهل العراق ندموا على خذلانه . فأرادوا الثأر له من ابن زياد ، وكان زعيم تلك الجماعة هو سليمان بن صرد الخزاعى ، وهو صحابى — وقد سموا أنفسهم « التوابين » . ولكنهم كانوا يرون ذلك أمراً صعباً ، ويرون الاناة والتريث حتى تحين الفرصة لأن قتلة الحسين من الأشراف ، ولا طاقة للشيعة التوابين بحربهم .

فلما وصل المختار حاول أن يضم الشيعة إليه ، وجعل يبين لهم أن سليمان ابن صرد لا علم له بالحرب . وأنه هو الذى سيقتص للحسين ، وكان المختار جريئاً مغامراً فصيحاً شجاعا ، ففضله بعض الشيعة على سليمان بن صرد ، ولكن أكثرهم كانوا مع سليمان فثاروا بالمختار وحبسوه .

أما سليمان فرأى الفرصة سانحة بعد هرب ابن زياد ، فجمع جموعه ، وسار بهم إلى شمال العراق فى ربيع الأول سنة ٦٥ وأرسل مروان جنداً بقيادة ابن زياد ، فالتقى الجيشان فى « عين الوردة » فقتل سليمان وهزم جنده، فعادوا إلى الكوفة،فكتب المختار من سجنه إلى من بقى منهم يمنيهم ويبشرهم ، ويخبرهم أنه رسول محمد بن الحنفية إليهم ، وأنه يدعو إليه . فكثر أنصاره وأخرجوه من السجن ، فخرج أولا على عبد الله بن مطيع والى الكوفة لابن الزبير وطرده ، وجعل نفسه أميرا باسم محمد بن الحنفية ، وقتل كثيراً من قاتلى الحسين . وساعده على هذا النجاح أن محمد بن الحنفية لم يبايع ابن الزبير ؛ وبلغه أن جيش ابن زياد قد ترك حصار زفر بن الحارث فى قرقيسيا بعد أن حاصره سنة ولم ينجح ، وسار إلى الموصل ، فأرسل إليه المختار جيشاً من من الكوفة بقيادة إبراهيم بن الأشتر ، والتقى الجيشان على نهر الخازر ، فقتل عبيد الله بن زياد والحضين بن نمير الذى تقدم ذكره فى حصار مكة

ورمى الكعبة . وقطع رأس ابن زياد وأرسل إلى على زين العابدين ابن الحسين ، ويقال إنه وصل إليه وهو يتغدى . فلما رآه قال : سبحان الله ! لقد ادخل رأس أبي على ابن زياد وهو يتغدى كذلك !

مصعب فى العراق :

كان انتصار المختار على ابن زياد سببا فى أن عظم أمره بالعراق وزاد خطره . وخشى ابن الزبير أن يطرد من بقى له من العمال هناك ، وكان المختار يتولى بنى هاشم ويدعو لمحمد بن الحنفية ، ويصفه بصفات لا يرضاها ابن الحنفية نفسه . ومن أشهر مبادئه القول بعودة محمد بن الحنفية بعد موته ، وبتناسخ الأرواح ، وبأن الحسن والحسين نبيان ، وان ابن الحنفية نبي ورث عنهما النبوة كذلك . وأنه يحيط بالعلوم كلها .

ومما زاد خطر المختار أن حيله امتدت إلى الحجاز ، فإن ابن الزبير لما حبس محمد بن الحنفية وجماعة من بنى هاشم لعدم بيعتهم له حبسهم فى سجن يقال له « سجن عارم » وقد قال فى ذلك كثيّر يخاطب ابن الزبير :

تُخَبر من لاقيت أنك عائذ ... بل العائذ المظلوم فى سجن عارم
سمِيُّ النبي المصطفى وابن عمه ... وفكّاك أغلال وقاضى مَغارِمِ

فانتخب المختار رجالا يثق بهم من الشيعة ووجههم إلى الحجاز فساروا يكمنون النهار ويسيرون الليل حتى وصلوا مكة ، وكسروا « سجن عارم » وأخرجوا من كان فيه من الهاشميين وأبلغوهم مأمنهم .

لهذا رأى ابن الزبير أن هذا الرجل خطر لفساد رأيه ودينه ، وازدياد سلطانه ، فانتدب أخاه مصعبا ليخلص العراق من شره . فاتى البصرة ودخل المسجد وصعد المنبر متلثما ، ثم حسر لثامه فعرفه الناس ، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال : « طسِم تلك آياتُ الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعونَ بالحق لقوم يُؤمنون . إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شِيَعاً . يستضعف طائفةً منهم يُذبّحُ

أبناءَهم ويَستَحيِي نساءَهم . إنه كان من المفسدين . » وأشار بيده نحو الشام « ونُريد أن نَمُن على الذين استُضعِفوا فى الأرض ونجعلَهم أئمة ونجعلَهمُ الوارثين ، ونمكنَّ لهم فى الأرض » وأشار بيده نحو الشام . « ونُرى فرعونَ وهامانَ وجنودَهما منهم ما كانوا يحذرون » وأشار نحو الكوفة . ثم قال : يا أهل البصرة بلغنى أنكم تلقبون أمراءكم ، وقد لقبت نفسى بالجزار .

قتل المختار :

ثم أخذ يتجهز لقتل المختار واستدعى إليه المهلب بن أبى صفرة من فارس — وكان عاملا عليها لابن الزبير ، يتولى قتال الأزارقة — فجاءه فى عدد كثير ومال كثير ، فسار بهم نحو الكوفة ، فتلقاه المختار بقواته واقتتلوا ، وهزم جند المختار . ثم قتل . وقتلت امرأته هند بنت النعمان بن بشير الأنصارى فقال فى ذلك عمر بن أبى ربيعة :

إن من أكبر الكبائر عندى قتلُ حسناء غادة عُطبولِ
قتلت باطلا على غير ذنب إن لله دَرَّها من قتيل
كتبَ القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

والعَجب أن يقول ابن ربيعة هذا وكان مقامه فى مكة بجوار ابن الزبير .

ومما سهَّل على مصعب القضاءَ على المختار أنه ادعى النبوة ، فخذله ابن الأشتر وأهل الكوفة . وكان قتله فى سنة ٦٧ هـ .

عبد الملك يسير الى العراق :

بعد أن تخلص عبد الملك من عمرو بن سعيد . سار إلى العراق . وصالح زفر بن الحارث . وبلغه أمر الحرب السائرة بين مصعب والمختار بن ابى عبيد فرأى أن يتريث حتى يقضى احدهما على صاحبه ويكون الغالب منهما ضعيفاً قد أنهكته الحرب ، فينازله وينقض عليه . وسار يكاتب أهل العراق ويمنيهم

كى يخذلوا مصعباً إذا التقى الجيشان . وكان أهل العراق قد كرهوا عبد الله ابن الزبير بعد موت المختار ، إذ أنهم وفدوا عليه مع مصعب فاساء إليهم وقال لأخيه فيهم : « جئتنى بعبيد أهل العراق لأعطيهم من مال الله ؟ وددت لو أن لى بكل عشرة منهم رجلا من أهل الشام ، صَرْفَ الدينار بالدرهم » وحرمهم ابن الزبير ، ففسدت قلوبهم ومالوا إلى عبد الملك .

مقتل مصعب سنة ٧١ هـ :

والتقى الجيشان قريبا « مَسْكِن » ، فهزم أهل العراق وأسلموا مصعبا. وقالوا : إن عبد الملك أرسل إليه الأمان فاباه واستبسل فى المعركة ، وجاءه غلام لعبيدالله بن ظبيان فقتله ، وحمل عبيدالله رأسه إلى عبدالملك وهو يقول :

نُطيعُ ملوكَ الأرضِ ماقَسطُوا لنا   وليس علينا قتلُهم بِمُحرَّم

فلما رآه عبد الملك خر ساجداً . قال عبيدالله بن ظبيان — وكان فاتكا من فتاك العرب :

« ما ندمت على شىء قط ندمى على عبد الملك بن مروان ، إذ أتيته برأس مصعب فخر ساجدا ألا أكون ضربت عنقه فأكون قد قتلت ملكى العرب فى يوم واحد .

ولما أتى عبد الملك برأس مصعب ابن الزبير ، نظر إليه ملياً ثم قال : متى تلدقريش مثلك ؟ وقال هذا سيد شباب قريش . وقيل لعبد الملك : أكان مصعب يشرب الطِّلاء[1] ؟ فقال : لو علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه .

وكان مصعب من أجَلّ الناس وأشجع الناس وأسخى الناس . وكان تحته عقيلتا قريش عائشة بنت طلحة وسُكَيْنة بنتُ الحسين . ولما قتل مصعب خرجت سكينة تريد المدينة ، فأطاف بها أهل العراق وقالوا : أحسن الله صحابتِك يا ابنة رسول الله . فقالت : لاجزاكم الله عنى خيراً ولاأخلف

---

(١) الطلاء : الخمر .

عليكم بخير من أهل بلد ؛ قتلتم أبى وجدى وعمى وزوجى[١] ، أيتمتمونى صغيرة وأرملتمونى كبيرة ! ثم تركتهم إلى الحجاز .

بقتل مصعب أصبح الأمر فى العراق لعبد الملك . ولم يبق هناك ثائر إلا الخوارج . وكان المهلب بن أبى صفرة يلى حربهم لأهل العراق أولا ثم لآل الزبير ثانياً ، ثم ولى أمرهم فى خلافة عبدالملك . ويخيل إلىّ أنه كان مغرماً بقتلهم والقضاء عليهم وكان يعرف مقاتلهم ويتوقع مكايدهم فيصدق ظنه فيهم. وكان ولاة الأمر يعرفون له هذا جميعاً . فحاربهم هو وأبناؤه حتى شتت شملهم فى أواخر عهد عبد الملك .

بين عبد الملك وابن الزبير :

والذى كان يشغل عبدالملك هو ابن الزبير لأنه كان خليفة وله فى أعناق الناس بيعة ، ومعه مكة والمدينة . وكان عبدالملك يرغب عن حرب ابن الزبير لأنه صحابى جليل وعائذ بالبيت ، وكان يرى حربه آخر دواء ؛ فاختار لذلك رجلا من رجاله الأشداء أظهرتهم كفايتهم ومواهبهم سريعا ، وأرسل معه كتاب أمان لابن الزبير ، ذلكم هو الحجاج بن يوسف الثقفى .

وكان من عادة عبد الملك أن يلى قتال أعدائه بنفسه فمن هو هذا الرجل العظيم الذى أحله عبد الملك محل نفسه فى هذا الأمر الخطير ؟ إنه الحجاج ابن يوسف الشاب الثقفى الذى تقدم الحديث عن بعض همته فى أول صفحة من هذا الكتاب .

---

(١) أبوها الحسين ، وجدها على ، وعمها مسلم ، وزوجها مصعب .

الحجاج فى الحجاز

سمعنا عن الحجاج موظفاً مشهوداً له بالحزم وحسن الإدارة والتدبير . سمعنا عنه وقد عُهِد إليه بعمل عجز عنه الخليفه ، وأى خليفة ؟ إنه عبدالملك ابن مروان ! سمعنا عنه وقد حمل الجند حملا على طاعة عبد الملك وأرهبهم وأفزعهم ، فاستجابوا لأمر الخليفة ، فهزم بهم مصعب بن الزبير وفتح بهم العراق . ولا نسمع للحجاج ذكرا واضحاً إلا بعد مقتل مصعب . نسمع به فجأة وقد عهد إليه عبد الملك بأمر عظيم . هو أعظم ما كان يشغل باله ، وهو قيادة جيش لمحاربة ابن الزبير ، الخليفة المبايع له فى الحجاز والذى كاد يتم له من عهد قريب حكم الإمبراطورية الإسلامية كلها .

وأين كان ابن الزبير ؟ كان فى مكة عائذا بالبيت ، بالحرم الآمن . الذى لا يحل فيه قتال ، ومن أحل حرمته فقد عرض نفسه لوصمة من وصمات التاريخ ، وباء بسخط من الله والمسلمين ! ورأى عبد الملك نفسه فى حرج ، ولـكن الحجاج لها ولكل عظيمة . إنه كان شابا تجاوز الثلاثين قليلا ، وجعله عبد الملك قائداً لحرب ابن الزبير ، وأرسله إلى الحجاز فى ألفين من أهل الشام سنة ٧٢ هـ . فسار إلى الطائف لا إلى مكة ، فما الذى دعاه إلى ذلك ؟ الطائف بلده القديم وقد قضى فيه أيام طفولته وصدر شبابه ، وهو يعرف أهله ويمت إليهم بصلة القربى ، وهو بلد منيع من الوجهة الحربية وطعامه موفور ، وهو قائم على جبل غزوان ، فيستطيع المتحصن به أن يمتنع فيه اذا أخطأه الحظ فى الهجوم .

كان عبد الملك يميل إلى اللين والسياسة فأوصى الحجاج أن يدعو ابن الزبير إلى البيعة وأن يكتب له ما يشاء من الأمان ولمن معه من أشياعه كذلك . لهذا وقف الحجاج موقف المتريث واكتفى بمناوشات قليلة كان ينتصر فيها

دائماً على جند ابن الزبير . ولكن صبر الحجاج نفد . ولم يكن من طبعه أن يصبر فى الحرب على عدوه طويلا كما سنرى من مواقفه مع المهلب ومع ابن الأشعث ونراه فى مراسلاته مع هذين القائدين.

نفد صبر الحجاج سريعاً ، فأرسل إلى عبد الملك يستمد منه العون ويستأذنه فى القتال فى البلد الحرام والشهر الحرام ، وذكر له ضعف ابن الزبير وتفرق الناس عنه . فأمده عبد الملك بخمسة آلاف من الجند وأذن له فى الحرب . فهاجم مكة ، ونصب المجانيق على جبل أبى قبيس وجبل قعيقعان ، ورمى الكعبة ، فأكبر الحجيج فعله ، فكف حتى انتهى الموسم . ثم عاد إلى الحصار ورمى الكعبة ، واشتد الأمر على ابن الزبير ، وتفرق عنه كثير من أصحابه ، ورأوا أن دولته قد أدبرت وأن الأمر صائر إلى غيره ، وطلبوا منه بعضهم أن يأذن لهم بأخذ الأمان من الحجاج ، وأشار اليه بعضهم أن يكتب إلى عبد الملك ، ورأى أخوه عروة أن يفعل ما فعل حسن بن على إذ خلع نفسه وبايع معاوية ، فأبى وقال له : « قلبى إذاً مثل قلبك ، والله لو قبلت ما يقولون ما عشت إلا قليلا ، وقد اخذت الدَّنيَّة ، وإن ضربة سيف فى عز ، خير من لطمة فى ذل » .

ثم دخل على أمه أسماء بنت أبى بكر ذات النطاقين وقد بلغت مائة سنة وكف بصرها . ولندع بن الزبير يحدثنا عن ذلك الموقف الرهيب ، موقفه عند أمه وقد خذله أصحابه وأولاده ، وتراءى الموت فى صوره .

دخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت ابى بكر فى اليوم الذى قتل فيه ، وقد رأى من الناس ما رأى من خذلانهم له ، فقال وأحسبه من الصادقين :

« يا أمَّه ، خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ، فلم يبق معى إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟ » فقالت :

« أنت والله يابنى أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو ، فامض له ، فقد قُتِلَ عليه أصحابك : ولا تمكن من رقبتك يَتَلَعَّبْ بها غلمانُ بنى أمية . وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك . وإن قلت : كنتُ على حق ، فلما وهن أصحابه ضعفتُ ، فليس هذا من فعل الأحرار ولا أهل الدين ، وكم خلودك فى الدنيا ؟ القتل أحسن . » قال :

« إنى أخاف إن قتلونى أن يمثلوا بى » قالت :

« يابنى إن الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها »

فدنا منها وقبل رأسها وقال :

« هذا والله رأيى والذى قمت به داعيا إلى يومى هذا ، ما ركنت الى الدنيا ، ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله أن تُسْتَحلَّ حُرمُه ، ولكنى أحببت أن أعلم رأيك فزدتنى بصيرة مع بصيرتى ، فانظرى ياأمَّهْ ! إنى مقتول من يومى هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسلمى لأمر الله ؛ فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر ، ولا عملا بفاحشة . ولم يجر فى حكم الله ، ولم يغدر فى أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ، ولم يبلغنى ظلم عن عمالى فرضيت به ، بل أنكرته . ولم يكن شىء آثر عندى من رضا ربى . اللهم إنى لا أقول هذا تزكية منى لنفسى — أنت أعلم بى — ولكن أقوله تعزية لأمى لتسلو عنى » .

فقالت أمه : إنى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حسنا إن تقدمتنى ، وإن تقدمتك ففى نفسى حرج حتى أنظر إلام يصير أمرك .

قال : « ياأمَّهْ ، جزاك الله خيراً ! فلا تدعى الدعاء لى قبل وبعد » ،

فقالت : لا أدعه أبدا ، فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق . ثم قالت : اللهم ارحم طولَ ذلك القيام فى الليل الطويل ، وذلك النَّحِيب والظمأ فى

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ١٦١

هواجر المدينة ومكة . وبرّه بأبيه وبى ، اللهم قدسلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت ، فأثبنى فى عبدالله ثواب الصابرين الشاكرين »

ثم ودعها وخرج . ولما قتل أرسل رأسه إلى المدينة ، وقتل معه من صفوة أصحابه عبدالله بن صفوان ، وعبد الله بن مطيع ، وعمارة بن حزم ، فقطعت رءوسهم جميعاً ، وبعث بها الحجاج إلى المدينة . فنصبوها للناس ، وجعلوا يقربون رأس ابن الزبير من رأس بن صفوان كأنه يُسَارُّه ، ويلعبون بذلك ثم بعث برءوسهم إلى عبد الملك .

ويحفظ تاريخ الأدب كثيراً من النصوص والروايات عماحدث فى تلك الفتنة الكبيرة ، التى استحل فيها الحَرَم ، وزَهِقَتْ فيها نفوس طاهرة كريمة ، وباء بإثمها قوم ، ورُمِىَ فيها بيتٌ مبارك وهُدًى للعالمين .

ومما يحفظه تاريخ الأدب خطبة للحجاج بعد مقتل ابن الزبير . فقد ارتجت مكة بالبكاء بعد مقتله ، فخشى الحجاج أن يكون هناك من يطلب ثأره ، أو أن تستمر القلوب على محبته ، فخطب الناس فقال :

« ألا إن بن الزبير كان من أحبار هذه الأمة حتى رغب فى الخلافة ونازع فيها ، وخلع طاعة الله ، واستكن بحرم الله ، ولو كان شىءٌ مانعا للعصاة لمنع آدمَ حرمة الجنة . لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأباحه جنته ، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته . وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة » .

وهو فيها لبق عظيم البيان قوى الحجة ، فأنظر إلى اعتذاره عن قتل ابن الزبير ، وبراعته فى تبرير اعتدائه على البيت :

فالعصيان عنده يجازى مهما كان صاحبه ، وفى أى مكان كان ، فآدم وهو أكرم على الله من ابن الزبير ، أخذ بمعصيته ، ولم تمنعه حرمة الجنة من أن يَحُلَّ به جزاؤها .

يا له من خطيب يكاد يستولى على قلوبنا نحن بعد ثلاثة عشر قرنا !

سبب فشل ابن الزبير :

من المؤرخين من يرى لابن الزبير عيوبا وأخطاء سببت ضياع ملكه كاختياره الحجاز دار إقامة ، وهو بعيد عن غيره من الأقطار الإسلامية ، وهو إقليم قحل لا يكفى أهله ، ولا يمد جيوشاً ، ولا يمون جنداً . وعدوه فى جنات وعيون ، وفواكه مما يشتهون ، فى الشام .

وقالوا إنه كان بخيلا ، وكان عبد الملك جوادا ، فقد حرم أهل العراق فصار مكروها . واضطرهم إلى الميل عنه إلى عبد الملك . وقالوا إن عبد الله ابن ظبيان لما سمع مقالته لمصعب فى أهل العراق قال له : أتدرى يا أمير المؤمنين ، ما مثلنا ومثلك فيما ذكرت ؟ قال وما ذاك . قال : فإن مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام ، كما قال أعشى بكر بن وائل :

عُلِّقْتُها عَرَضاً وعُلِّقَتْ رَجُلا غيرى ، وعُلِّقَ أُخْرَى ذلك الرجل

أحببناك نحن ، وأحببت أنت أهل الشام ، وأحب أهل الشام عبد الملك .

وأراد الحصين بن نمير أن يخرجه إلى الشام ليبايع له الناس هناك بعد موت يزيد ، فشك فى ابن نمير وفى أهل الشام ، ورضى بالبقاء فى الحجاز ولم يطمئن إلى عدوه .

وترك شيوخ بنى أمية يخرجون من المدينة إلى الشام فى ذلك الوقت الذى ضعف فيه أمرهم فى الشام ، وتفرق الناس عنهم ، ولو حبسهم فى الحجاز لما وجد الناس مثل مروان بن الحكم وعبد الملك ابنه وعمرو بن سعيد ، وربما كانوا يرغمون على البيعة لابن الزبير .

وكان يسىء إلى بنى هاشم فى الحجاز ، وهم آل الرسول ، فصرف ذلك عنه قلوبا كان يمكن أن تكون معه . وأخرج عليه قوما فى العراق بحجة الانتصار لآل البيت كالمختار الثقفى .

وقد يجد المدافع عن سياسته مايرد به على هذا . ويكون دفاعه قويا فأما بخله ، فقد كان لا يتجاوز حدود الله فى العطاء ، وذلك هو الدين

الصحيح ، ولم يرض بترك الحجاز لأنه كان يؤثر جوار بيت الله ، وأساء إلى بنى هاشم لأنهم كانوا أعداءه وقد بايعوا ليزيد وتركوه ، وهو خير دينا وعلما وفضلا وأبا وأما وأقرب اليهم نسبا من يزيد .

وقد آثرت أن أقص مقتل ابن الزبير بشيء من التفصيل ليتبين للقارىء كيف تتفجر ينابيع البيان مع ينابيع الدماء ، وكيف يتخضب القرطاس بدماء الشهداء وكيف تجرى المقادير فى أعنتها ، وتسير إلى غاياتها . فتدول دول ، وتعلو دول . وكيف يصدق قوله تعالى :

قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ ، تُؤْتِى المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنزِع المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وتُعِزُّ من تشَاءُ وتُذِلُّ مَنْ تشَاءُ ، بِيَدِكَ الخيرُ ، إنَّكَ عَلى كلِّ شَىء قَدِيرٌ . »

الحجاج وال على الحجاز :

ولاه عبد الملك مكة ثم المدينة ثم اليمن واليمامة . ولا نسمع له فيها عملا خاصا اللهم إلا شدته على من يظن فيهم ميلا عن بنى أمية ، حتى كبار الصحابة ، وبخاصة فى المدينة . وكان يتهمهم بقتل عثمان ، وختم على أيدى كثير منهم بالرصاص كما كان يفعل بأهل الذمة ، ومنهم جابر بن عبدالله وأنس بن مالك خادم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسهل بن سعد ، فتركوا المدينة . وشكوا أمره إلى عبد الملك .

وأما من بايع منهم لعبد الملك كمحمد بن الحنفية ، وعبد الله بن عمر فقد أمن ، وكتب عبد الملك إليه ألا يعرض لمحمد بن الحنفية ولا لأحد من آل بيته وأصحابه ، وقال له فى كتابه :

« جَنِّبْنى دِمَاء بنى عبدالمطلب فليس فيها شفاءٌ من الحرْب . وإنى رأيت بنى حَرب سُلِبُوا ملكهم لما قتلوا الحسين بن على .

بناء الكعبة

وأهم عمل له هناك هو بناء الكعبة على قواعد النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد هدمت الكعبة مرتين فى زمن ابن الزبير، الأولى بفعل جيش يزيد، والثانية بفعل جيش الحجاج، أو عبد الملك. فلما أصابها الوهن فى المرة الأولى، أراد ابن الزبير هدمها وبناءها على قواعد سيدنا ابراهيم، فخالفه بعض الصحابة منهم ابن عباس الذى اقترح عليه أن يرقعها، فأبى وقال: والله ما يرضى الواحد منكم أن يرقع بيت أبيه، فكيف أرقع بيت الله سبحانه! وأنا أنظر إليه ينقض من أعلاه إلى أسفله؟ إن الحمام ليقع عليه فتتناثر حجارته.

ثم هدمها وبناها على قواعد سيدنا إبراهيم، وذلك بأن زاد فى بنائها من الجهة الشرقية مقدار ستة أذرع وشبر. وجعل لها بابين لاصقين بالأرض، بعد أن كان لها باب واحد مرتفع عن الأرض قدر قامة، ورفع جدرانها سبعاً وعشرين ذراعا. وقالوا إنه فرشها بالرخام، وجعل المفاتيح وصفائح الأبواب من الذهب.

وكان اعتماده فى بنائها من جديد على قواعد إبراهيم. على حديث روته خالته السيدة عائشة: «لولا قومك حديثو عهد بكفر لرددت البيت على قواعد إبراهيم وجعلت لها بابين شرقياً وغربياً».

ثم أصيبت فى أيام محاصرة الحجاج، فلما مات ابن الزبير استشار الحجاج عبد الملك فأذن له أن يعيد بناءها فهدمها وردها كما بنتها قريش قبيل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم.

ويقال إن عبد الملك ندم لما علم صحة رواية ابن الزبير لحديث عائشة.

وظل الحجاج بالحجاز ثلاث سنين حتى ولاه عبد الملك العراق سنة ٧٥ هـ.

نقل الحجاج إلى العراق

يروى تاريخ الأدب أن عبد الملك نقل الحجاج من الحجاز إلى العراق بعد وفادة وفدها عليه ومعه إبراهيم بن محمد بن طلحة — وكان الحجاج قد استخلصه لنفسه، وقربه، وعظم منزلته — فلما دخل عليه لم يبدأ بشىء بعد السلام إلا أن قال له: «قدمت عليك أميرَ المؤمنين برجل الحجاز لم أدع له بها نظيراً فى الفضل والأدب والمروءة وحسن المذهب، مع قرابة الرحم وعظم قدر الأبوة. وما بلوت منه فى الطاعة والنصيحة وحسن المؤازرة، وهو إبراهيم بن محمد بن طلحة. وقد أحضرته بابك ليسهل عليه إذنك، وتعرفَ له ما عرفتُه. فقال: «أذكرتنا رحماً قريبة، وحقاً واجباً».

ثم أذن الحجاج لإبراهيم وأجلسه على فراشه، وذكر له مدح الحجاج له مما يعرفه عبد الملك ويقر الحجاج عليه، ثم سأله حاجته، فأجابه محمد بن طلحة:

«يا أمير المؤمنين، إن أول الحوائج، وأحق ما قُدم بين يدى الأمور ما كان لله فيه رضاً، ولحق نبيه صلى الله عليه وسلم أداء، ولك فيه ولجماعة المسلمين نصيحة، وعندى نصيحة لا أجد بداً من ذكرها، ولا أقدر على ذلك إلا وأنا خال». فقال له: دون أبى محمد! يعنى الحجاج، فقال له إبراهيم: نعم».

فأمره عبد الملك أن يخرج. ثم قال. يا ابن طلحة. نصيحتَك. فقال: يا أمير المؤمنين، لقد عمدتَ إلى الحجاج فى تغطرُسِه وتعجرُفه، وبعده من الحق، وقربه من الباطل، فوليته الحرمين، وهما ما هما، وبهما ما بهما من المهاجرين والأنصار، والموالى والأخيار، يطؤهم[1]، ويسومهم الخسف[2]، ويحكم فيهم بغير السنة، بعد الذى كان، من سفك دمائهم،

(١) يدوسهم. (٢) يذلهم.

وما انتُهِك من حُرَمهم ، ثم تظن أن ذلك ينجيك من عذاب الله ، فكيف إذا جاثاك[١] محمد صلى الله عليه وسلم غداً ، للخصومة بين يدى الله تعالى ! أما والله لن تنجو إلا بحجة تضمن لك النجاة . فأربع على نفسك أو دعْ[٢] » .

وكان عبد الملك متكئا فاستوى جالسا ، وكأنه راعه أن يكون هذا رأى ابن أبي طلحة فى الحجاج وهو ولى نعمته ، وصاحب الرأى الحسن فيه . والذى مدحه أمام عبد الملك بما جعله خير أهل الحجاز .

فقال له : كذبت و مِنْتَ[٣] فيما جئت به . ولقد ظن بك الحجاج ظناً لم نجده فيك ، قم ، فأنت المائن الحاسد !

قال فقمت والله ما أبصر شيئاً ، فلما خطرف الستر[٤] لحقنى لاحق ، فقال احبسوا هذا ، وأذن للحجاج ، فدخل ، فلبث ملياً ولا أشك أنهما فى امرى . ثم خرج الإذن لى ، فدخلت فلما كشف لى الستر . إذا أنا بالحجاج خارج ، فاعتنقنى . وقبل ما بين عينى ، وقال : « أما إذا جزى الله المتواخيين خيراً بفضل تواصلهما ، فجزاك الله عنى أفضل الجزاء . فوالله لئن سلمت لك لأرفعن ناظريك ، ولأعلين كعبك ، ولأتبِعنَّ الرجال غبار قدميك » .

قال فقلت فى نفسى إنه ليسخر بى ، فلما وصلت إلى عبد الملك أدنانى حتى أدنانى من مجلسى الأول . ثم قال : « يا ابن طلحة : هل أعلمت الحجاج بما جرى أو شاركك أحد فى نصيحتك ؟ فقلت : لا والله ، ولا أعلم أحداً أظهر يداً عندى من الحجاج ، ولو كنت محابيا أحداً بدينى لكان هو ، ولكنى آثرت الله ورسوله والمسلمين » . قال : علمت أنك لم ترد الدنيا ، ولو أردتها لكانت لك فى الحجاج . ولكن أردت الله والدار الآخرة . وقد عزلته

---

(١) أجلسك أمامه على ركبتيك ليخاصمك .

(٢) ربع على نفسه وقف وانتظر وتحبس ، والمقصود تمهل ولا تسترسل فى نوك الحجاج بغى كما يشاء .

(٣) مان يمين : كذب يكذب . والمائن الكاذب .

(٤) خطرف الستر : استرخى وأسدل وراءه .

عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما . وأعلمته انك استنزلتنى له عنهما استقلالا لها . ووليته العراقين وما هنالك من الأمور التى لا يدحضها[1] إلا مثله ، وإنما قلت له ذلك ليؤدى ما يلزمه من ذمامك[2] ، فإنك غير ذام لصحبته مع يده عندك[3] . »

قال : فخرجت مع الحجاج . وأكرمنى أضعاف إكرامه :

هذه رواية تاريخ الأدب عن سبب نقل الحجاج من الحجاز إلى العراق ، والقصة ذاتها لا تصلح سببا لمثل هذا الأمر العظيم ، ولكنها تبين السبب الحقيق فى أثنائها ، فإن طلحة يعبر عما يحس به أهل الحجاز من ظلم الحجاج وشدته وبطشه ، وسوء معاملته لأهل تلك البلاد المقدسة ، وفيهم كبار الصحابة ، والتابعين ، وعبد الملك يخشى أن تثور نفوسهم عليه من أجل وال كهذا ، ويخشى غضب الناس من أجلهم ، وقد أحس أن الحجاج قضى عمله فى الحجاز فقضى على ابن الزبير ، وألزم أهلها طاعة عبد الملك . ولو استمر هناك أكثر من هذا فقد يكون من وراء شدته انفجار لا يعلم عبد الملك ما ينجلى عنه ، ولكن أهم من هذا كله ما ذكره فى آخر خطابه إذ قال : « ووليته العراقين وما هنالك من الأمور التى لا يدحضها إلا مثله . » فما هى هذه الأمور التى كانت فى العراق ، ولم يكن لها إلا الحجاج الذى جربه عبدالملك قبل ذلك مرتين ، فأغنى غناء ليس لأحد غيره من رجال عبد الملك ؟

العراق قبيل مجىء الحجاج

خرج أهل العراق على طاعة بنى أمية وطردوا عبيد الله بن زياد ، ثم جاءهم المختار يدعوهم إلى قتالهم فقاتلوهم فى شمال العراق وقتلوا عبيد الله بن زياد ،

---

(١) لا يدحضها : يبطلها ويقضى عليها .

(٢) العهد والأمان والضمان والحرمة . ومعناه ليؤدى لك ما يجب عليه من حقوقك .

(٣) العقد الفريد ج ، ص ١٩٩ .

ثم بايعوا لابن الزبير ، وجاءهم مصعب ، وحارب المختار حتى قتله بالكوفة سنة ٦٧ هـ .

ثم جاء عبد الملك نفسه الى العراق وحارب مصعباً ، وقُتِل مصعب سنة ٧١ هـ ، وولى عبد الملك أخاه بشرا على الكوفة ، وخالد بن عبدالله بن أسيد على البصرة ووكل إليه حرب الخوارج .

أمر الخوارج قبيل الحجاج :

لما ترك نافع بن الأزرق ونجدة بن عامر مكة مغاضبين لابن الزبير ، إذ لم يجدا رأيه كرأى الخوارج فى عثمان وطلحة والزبير خرجا من الحجاز حتى أتيا العراق ، وبايعت طائفة كبيرة منهم نافع بن الأزرق ، وسموه أمير المؤمنين ، فخرج بهم إلى الأهواز ، فغلبوا عليها ، وعلى ما وراءها من أرض فارس وكرمان . وجبوا الفيء ، ثم شجر بينهم الخلاف بسبب اختلاف الرأى فى بعض مسائل الدين وحكمه فى قتل الأطفال واستحلال النساء وأداء الأمانات إلى أهلها والقعود عن الخروج لحرب من خالفهم . ونفر جماعة منهم بزعامة نجدة بن عامر إلى اليمامة ، وكانت هناك مراسلات بين نجدة ابن عامر ونافع بن الأزرق حول المسائل المتقدمة ، كل منهما يدلى بحجته ويؤيدها بحكم الكتاب الكريم وآياته ، ويكفى أن نذكر كتابين بينهما ، أولهما من نجدة بعد مخالفته لنافع ، والثانى من نافع يرد عليه ، ففيهما بيان وجهة النظر . ومذهب الخوارج بعد اختلافهم .

كتاب نجدة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإن عهدى بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم ، وللضعيف كالأخ البر ، لا تأخذك فى الله لومة لائم ، ولا ترى معونة ظالم . كذلك كنت أنت وأصحابك ، أما تذكر قولك : لولا أنى أعلم أن للإمام العادل مثل أجر رعيته ما توليت أمر رجلين من المسلمين ؟ فلما

شرَيْتَ (١) نفسك فى طاعة ربك ابتغاء رضوانه ، وأصَبْتَ من الحق فصّه (٢) ، وركبت مُرَّهُ ، تجرد لك الشيطان — ولم يكن أحد أثقل عليه وطأة منك ومن أصحابك — فاستمالك واستهواك ، واستغواك وأغواك فغويْتَ فأكفرت من عذرهم الله فى كتابه من قعَد (٣) المسلمين وضَعَفَتهم فقال جل ثناؤه ـ وقوله الحق ، ووعده الصدق ـ « ليْسَ عَلى الضُّعَفاءِ وَلا عَلى المرضَى وَلا على الذِينَ لا يجِدُونَ مَا يُنفِقونَ حرَجٌ ، إذا نصَحوا الله ورسوله » ، ثم سماهم أحسن الأسماء فقال : « ماعلى المحسنين من سبيل » (٤)

ثم استحللت قتل الأطفال ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلهم ، وقال الله عز ذكره ، « وَلا تزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرَى ، وقال سبحانه فى القَعَد خيراً ، وفضل الله من جاهد منهم ، ولا تدفع منزلة أكثر الناس عملا منزلة من هو دونه ، أو ما سمعت قوله عز وجل ، « لا يَسْتَوى القاعِدُون من المؤمنين غيرُ أولى الضرَرِ » ، (٥) فجعلهم الله من المؤمنين ، وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم .

ورأيت ألا تؤدى الأمانة إلى من خالفك ، والله يأمر أن تؤدى الأمانات إلى أهلها ، فاتق الله ، وأنظر لنفسك ، واتق يوما « لا يجزِى والدٌ عَنْ ولده ، ولا مولودٌ هُو جاز عن والدِه شيئاً » ، (٦) فإن الله عز ذكره بالمرصاد ، وحكمه العدل ، وقوله الفصل ، والسلام »

فكتب اليه نافع :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فقد أتانى كتابك تعظنى فيه ، وتذكرنى

---

(١) شرى نفسه باعها : ويسمى الخوارج أنفسهم الشراة : جمع شار كقاض وقضاه ، أخذوه من قوله تعالى : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » أى يبيعها .

(٢) أى وأصبت الحق عينه ولم تخطئه .

(٣) قعد : اسم جمع كخدم ،

(٤) سورة التوبة آية ٩١ .

(٥) سورة النساء آية ٩٥ .

(٦) سورة لقمان آية ٣٣ .

وتنصح لى وتزجرنى ، وتصف ما كنت عليه من الحق ، وما كنت أوثره من الصواب ، وأنا أسأل الله عز وجل أن يجعلنى من « الذين يَسْتَمِعُون القولَ فيَتبِعُونَ أحسَنه » ،[١] وَعِبت على ما دنت به من إكفار القعد . وقتل الأطفال ، واستحلال الأمانة ، فسأفسر لكَ لم ذلك إن شاء الله :

أما هؤلاء القعد . فليسوا كما ذكرت ممن كان بعهد النبى صلى الله عليه وسلم . لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين ، لا يجدون إلى الهرب سبيلا ، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقا . وهؤلاء قد فَقِهوا فى الدين وقرءوا القرآن ، والطريق لهم نَهْج واضح ، وقد عرفت ما قال الله عز وجل فيمن كان مثلهم ، إذ « قالوا كنا مُستضعَفين فى الأرض » . فقيل لهم : « ألم تكنْ أرضُ اللهِ واسعةً فتُهاجروا فيها » ، وقال : « فرِح المخلَّفون بمقعدهم خلافَ رسولِ الله[٢] » ، وقال : « وجاء المُعَذِّرون[٣] من الأعراب ليُؤذنَ لهم » ، فخبر بتعذيرهم ، وأنهم كذبوا الله ورسوله ، وقال : « سيُصيبُ الذين كفروا منهم عذاب أليم » فانظر إلى أسمائهم وسماتهم[٤] .

وأما أمر الأطفال فإن نبى الله نوحا عليه السلام كان أعلم بالله يا نجدة منى ومنك فقال : « ربِّ لا تذَرْ على الأرض من الكافرين ديّاراً[٥] ، إنك إن تذرهم يُضلوا عبادَك ولا يَلدوا إلا فاجراً كفّاراً » ، فسماهم بالكفر وهم أطفال ، وقبل أن يولدوا ، فكيف كان ذلك فى قوم نوح ،

---

(١) سورة الزمر آية ١٨ .

(٢) أى فرحو بقعودهم عن الغزو مع رسول الله ، وذلك فى غزوة تبوك سنة ٩ من الهجرة وبقية الآية الكريمة : وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . وقالوا لا تنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون » . سورة التوبة آية ٨١ .

(٣) المعذرون : المعتذرون ، ويقصد بهم أسد وغطفان ، اعتذروا عن الجهاد بالفقر وكثرة العيال . أو يكون معناها : المقصرون : من عذر فى الأمر إذا قصر فيه موهما أن له عذراً ولا عذر له .

(٤) السمات : جمع سمة . وهى العلامة .

(٥) أحداً : سورة نوح آية ٢٦ ، ٢٧ .

ولا نكون نقوله فى قومنا ؟ والله يقول : « أكفارُكم خيرٌ من أولئكم أم لكم براءة فى الزُّبُر[١] » وهؤلاء كمشركى العرب ، لا تقبل منهم جزية ، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام .

وأما استحلال أمانات من خالفنا ، فإن الله عز وجل أحل لنا أموالهم كما أحل لنا دماءهم ، فدماؤهم حلال طَلْق[٢] ، وأموالهم فىءٌ للمسلمين .

فاتق الله وراجع نفسك ، فإنه لا عذر لك إلا بالتوبة ، ولن يسعك خذلاننا والقعود عنا ، وترك ما نهجناه لك من طريقتنا ومقالتنا ، والسلام على من أقر بالحق وعمل به » .

حرب الأزارقة :

غلب نافع على الأهواز كما تقدم ، وخشى أهل البصرة أن يجتاحوا مصرهم ، فاجتمعوا إلى الأحنف بن قيس ، وقالوا له : ليس بيننا وبين العدو إلا ليلتان ، وسيرتهم ماترى . قال الأحنف : إن فعلهم فى مصركم إن ظفروا به كفعلهم فى سوادكم . فجدوا فى جهاد عدوكم .

فاجتمع إليه عشرة آلاف فأتى أمير البصرة من قبل ابن الزبير ، وهو عبد الله بن الحرث بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب ، وسأله أن يولى على هؤلاء أميراً يقودهم فى حرب الخوارج ، فولى عليهم رجلا يقال له مسلم بن عبيس ، والتقى أهل البصرة بالخوارج فى « دولاب[٣] » فاقتتلوا ، وقتل فى المعركة قائداً الفريقين ، نافع قائد الخوارج ، وابن عبيس قائد جند البصرة فى تلك المعركة .

---

(١) جمع زبور ، وهو الكتاب . ومعناها : أنزل فى الكتب السماوية أن من كفر منكم فهو فى أمان من كتاب الله ؟ سورة القمر آية ٤٣ .

(٢) طلق أى حلال .

(٣) دولاب قرية بينها وبين الأهواز مسافة أربعة فراسخ ، قد حدثت فيها هذه المعركة التى التى قتل فيها نافع سنة ٦٥ هـ . وقد ذكرها قطرى بن الفجاءة فى شعره فى قصيدته التى مطلعها

لعمرك إنى فى الحياة لزاهد وفى العيش ما لم ألق أم حكيم

وصف فيها بلاء الناس فى ذلك اليوم .

وعزل ابن الزبير واليه عبد الله بن الحرث ، وولى على البصرة مكانه عمر بن عبيد الله بن معمر ، فولى هذا أخاه عثمان محاربة الأزارقة فهزموه وقتلوه

وعزل ابن الزبير واليه الجديد عمر بن عبيد الله ، وولى مكانه على البصرة الحارث بن عبد الله بن ربيعة ـ وهو أخو عمر بن عبد الله بن ربيعة الشاعر الغزل المشهور ـ واشتد أمر الخوارج واقتربوا من البصرة فضج الناس إلى الأحنف بن قيس ، فأتى الحرث بن عبد الله . فقال : أصلح الله الأمير ، إن هذا العدو قد غلبنا على سوادنا وفيئنا ، فلم يبق الا أن يحصرنا فى بلدنا حتى نموت هُزْلا . قالوا : فسموا رجلا فقال الأحنف : ما أرى لها الا المهلب ابن أبى صفرة ، فولاه قتالهم .

المهلب يلى حرب الخوارج :

كان المهلب يحمل عهداً من ابن الزبير على خراسان ، فلما أجمع رأى القوم على انتدابه لحرب الخوارج ، ترك خراسان ، وتولى قتال الخوارج لابن الزبير ، ولعبد الملك ، وظل يلى حربهم حتى شتت شملهم فى زمن الحجاج كما سيأتى قريباً .

ولى الخوارج عليهم بعد قتل نافع عبيد الله بن بشير بن الماحوز السليطى فهزم أهل البصرة حتى ولى المهلب واختار جنده كما أراد لحارب الخوارج حتى أبعدهم عن البصرة ، ودخل سوق الأهواز ، ثم نازلهم فى وقعة « سِلَّى وسِلَّبْرَى[1] » فهزمهم بعد معركة عنيفة قتل فيها أميرهم عبيد الله بن بشير ابن الماحوز ، فارتفعوا إلى كرمان وجانب أصفهان ، وكتب المهلب بذلك إلى أمير البصرة .

ثم جاء المصعب إلى العراق سنة ٦٧ هـ فاستقدم المهلب من حرب الخوارج وولاه الموصل ، فازداد خطر الخوارج وولوا أمرهم رجـــلا من شجعانهم

---

(١) سلى وسلبرى موضع واحد بالأهواز قرب جنديسابور .

وبطلا من أبطالهم هو قطرى بن الفجاءة ، الخطيب الشاعر ، فشاور مصعب الناس فأجمعوا رأيهم على إعادة المهلب فأعاده فحاربهم حتى نفاهم إلى «رامهرمز»

وفى تلك الآونة قتل مصعب (سنة ٧١ هـ) فبلغ الخبر الخوارج قبل أن يبلغ المهلب ، فسأل الخوارج جند المهلب : ماتقولون فى مصعب ؟ قالوا إمامُ هُدَى . قالوا : فماتقولون فى عبد الملك ؟ قالوا ضال مُضِلّ . ولما كان بعد يومين أتىَ الخبر المهلب ، فبايع الناس لعبد الملك ، فناداهم الخوارج : ماتقولون فى مصعب ؛ فسكتوا . قالوا فما تقولون فى عبد الملك؟ قالوا : إمام هدى . فقال الخوارج : يا أعداء الله ، بالأمس ضال مضل ، واليوم إمام هدى؟ ياعبيد الدنيا . عليكم لعنة الله !

عبد الملك سيد العراق :

ولى عبد الملك على البصرة خالد بن عبد الله بن أسيد ، وكان واليها هو الذى يلى حرب الخوارج ، فعزل المهلب ، وولى أخاه عبدالعزيز بن عبد الله حرب الخوارج مكانه فهزموه هزيمة منكرة « بدرا بجرد » . وكان عبد العزيز قد خرج بامرأته أم حفص بنت المنذر بن الجارود ، فسبى الخوارجُ النساء ، وكانت أم حفص فيهن ، فأقاموها فى السوق حاسرة بادية المحاسن، فاعترضوها وقلبوها . وكانت من أكمل الناس كمالا وحسنا ، فتزايدت فيها العرب والموالى حتى بلغوا بها تسعين ألفا ، فقام رجل من قومها « عبد القيس » وكان من رءوس الخوارج ، فقال : تنحوا هكذا ، ماأرى هذه المشركة إلا قد فتنتكم فضرب عنقها. فأخذوه إلى قطرى ، فقالوا : ياأمير المؤمنين إن هذا استهلك تسعين ألفا من بيت المال ، وقتل أمة من إماء المؤمنين فقال الرجل : ياأمير المؤمنين ، إنى رأيت هؤلاء تنازعوا عليها حتى ارتفعت الأصوات، وأحمرت الحَدَق ، فلم يبق إلا الخبط بالسيوف ، فرأيت أن تسعين ألفا فى جنب ماخشيتُ من الفتنة بين المسلمين هينة . فقال قطرى : قد أصبت وأحسنت خلوا عنه ، عين من عيون الله أصابتها .

آلم عبد الملك ما حدث ، وكان حسن الرأى فى المهلب عظيم الثقة به ، فأرسل إلى أخيه بشر والى الكوفة أن يمد خالدا بجيش لقتال الخوارج فأمده بخمسة آلاف عليهم عبد الرحمن بن الأشعث ، وكتب له عهدا ، على « الرى » إذا انتهى من غزوته هذه ، وأمدهم بشر بعد ذلك بأربعة آلاف من أهل الكوفة عليهم عتاب بن ورقاء ، فكايدهم الخوارج فى أرض فارس ، وفروا أمامهم حتى أجهدوهم وماتت خيول أكثرهم ، وأصابهم الجوع ، ورجع أكثر الجند مشاة إلى الأهواز .

وكان لخالد بن عبدالله أخ اسمه أمية أرسله إلى البحرين لمحاربة أبي فديك الخارجى الذى غلب على تلك البلاد بعد أن قتل نجدة بن عامر وجاء أمية بجند كثيف إلى البحرين فهزمه الخوارج

بشر والى البصرة

عزل عبد الملك خالدا لهذه الهزائم ، وجعل مكانه بشر بن مروان ، وأمره أن يولى المهلب أمر الحرب مع الخوارج ، وقال له : فابعث المهلب فى أهل مصره إلى الأزارقة ، ولينتخب من أهل مصره وجوههم وفرسانهم وأولى الفضل والتجربة منهم فإنه أعرف بهم ، وخله ورأيه فى الحرب ، فإنى أوثق شىء بتجربته ونصيحته للمسلمين

وأمره أن يرسل جيشاً آخر من أهل الكوفة ، فجهز جيشاً منها عليه عبد الرحمن بن مخنف وأمره أن يخالف المهلب ولا يقبل له مشورة ولا رأيا . وذلك أنه كره أن يرغم على إرسال المهلب ، وأن تكون توليته من عبدالملك ، وأى نصيحة هذه ؟ إنه لو عمل بها عبد الرحمن بن مخنف لأضاعت الجيشين معا ، ولكن ابن مخنف كان عاقلا ، فأبى أن يستمع له . وقال : ما أعجبَ ماطمع فيه هذا الغلام ! يأمرنى أن أصغر شيخا من مشايخ أهلى ، وسيداً من ساداتهم !

ولكن ماسبب هذه الغيرة من المهلب ؟ يعزله خالد بن عبد الله ، ويكرهه بشر ويعارضه فى اختيار جنده ، ويأمر قائدا آخر يجب أن يتعاون معه ، بأن يفسد عليه رأيه ؟

يخيل إلى أن هذين الرجلين كانا يريدان أن يطير لهما ذكر فى حرب الخوارج ولا ينالان ذلك إلا إذا أبْعَدَ المهلب ، وقد يلتمس بعض المؤرخين لهما العذر فيقول : هذا الرجل حارب لابن الزبير . ولا حرج على بنى أمية أن يبعدوه ، ويتولوا أمورهم بأنفسهم . ولكن عبد الملك كان يراه قائداً مخلصا بصيراً بالحرب ، ولا يرى هواه مع آل الزبير ، وكان أبعد نظراً من أخيه وقريبه .

شدة بشر على العصاة

كان الخوارج أشداء على جيوش العراق . وكانوا قد أفزعوا الجنود التى تحاربهم وأرهقوهم وكثر فرار الجند إلى بلادهم وأهليهم ، فاضطر بشر بن مروان أن يعاقب الفارين ، ويحدثنا تاريخ الأدب بذلك فى قصة لانرى بأسا بذكرها :

كتب أبو على القالى فى صفحة ٣٠ من الجزء الثانى من الأمالى : يقول كان بشر بن مروان شديدا فى معاقبة العصاة ، فكان إذا ظفر بالعاصى أقامه على كرسى ، وسمر كفيه فى الحائط بمسمار ، ونزع الكرسى من تحته فيضطرب معلقا حتى يموت .

وكان فتى من بنى عجل مع المهلب ، وهو يحارب الأزارقة . وكان عاشقا لابنة عم له ، فكتبت تستزيره ، فكتب إليها :

لولا مخافة بشر أو عقوبتُه   أو أن يُشدَّ على كفَّىَّ مسمارُ
إذاً لعطلت ثغرى ثم زرتكمُ   إن المحب إذا ما اشتاق زوار

فكتبت إليه :

ليس المحب الذى يخشى العقاب ولو   كانت عقوبتُه فى إلفه النارُ
بل المحب الذى لا شىء يمنعه   أو تستقر ومن يهوى به الدار

قال : فلما قرأ كتابها عطل ثغره ، وانصرف إليها وهو يقول :

أستغفر الله إذ خفت الأمير ولم أخش الذى أنا منه غير منتصر
فشأن بشر بلحمى فليعذبه أو يعف عفو أمير خير مقتدر
فما أبالى إذا أمسيت راضية ياهند ، ما نيل من شعرى ومن بشرى

ثم قدم البصرة ، فما أقام إلا يومين حتى وشى به واش إلى بشر . فقال ، على به . فأتى به . فقال : يافاسق عطلت ثغرك ! هلموا الكرسى . فقال أعز الله الأمير ، إن لى عذرا . فقال : وما عذرك ؟ فأنشده الأبيات ، فرَقّ له ، وكتب إلى المهلب فأثبته فى أصحابه .

طارد المهلب الأزارقة من الفرات إلى الأهواز ثم إلى فارس وأبلى ابنه يزيد أحسن البلاء وهو فى الحاية والعشرين من عمره ، وكذلك ابنه المغيرة .

ثم بلغه نعى بشر بن مروان فاضطرب أمر جند الكوفة على بن مخنف ، يقول أبو العباس المبرد [1] « فجعل الجند من أهل الكوفة يتسللون حتى اجتمعوا بسوق الأهواز ، وأراد أهل البصرة الانسلال من المهلب ، فخطبهم فقال : إنكم لستم كأهل الكوفة : إنما تذبون عن مصركم وأموالكم وحرمكم » .

فأقام منهم قوم وتسلل كثيرون . وعلم خليفة بشر على البصرة بذلك فأرسل إليهم كتابا يهدد من ينصرف عاصيا بالقتل ، فلم يغن هذا الكتاب شيئا ، وتسلل الجند وجاءوا إلى الكوفة ، وأرادوا دخولها فمنعهم أميرها ، فدخلوها عنوة وبقى المهلب ومعه بن مخنف وعدد قليل .

كان من الطبيعى أن يعلم عبد الملك بهذا كله ، وأن يدبر أمره سريعا بعد موت أخيه ، فلم يجد فى ولاته من هو أشد بطشا وأحزم رأيا من الحجاج وقد جربه من قبل مرتين مع جند الشام ، ومع ابن الزبير فى الحجاز ، فليجربه هذه المرة كذلك . فولاه العراق .

---

(١) الكامل ح ٣ ص ٢٠١

ولاية الحجاج على العراق سنة ٧٥ هـ

نقله عبد الملك من الحجاز إلى العراق ، وينص صاحب العقد الفريد ، على أنه جاء ليحشر الناس لحرب الأزارقة مع المهلب بن أبي صفرة ، والحجاج نفسه ينص على ذلك فى أول خطبة له على منبر الكوفة.

ومادامت غايتنا الأدبية من هذا الكتاب واضحة فلامانع من إيراد هذه الخطبة هنا لأنه مكانها الطبيعي ، بعد أن ذكرنا المقدمات التاريخية التى تعين على فهمها ، ومعرفة ظروفها وملابساتها .

أول خطبة له بالعراق :

يقول المبرد : سار الحجاج من الحجاز إلى الكوفة فى اثنى عشر راكبا على النجائب فلما دخلها بدأ بالمسجد ، فدخله معتما بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه ، متقلدا سيفا ، متنكبا قوسا [1] وسار حتى صعد المنبر . ويحدثنا كذلك أن أهل الكوفة كانوا يعلمون بقدومه ، وأن الناس كانوا فى فزع منه فلما خطب هذه الخطبة الملتهبة ، وقد سبقته إليهم شهرته ، استكانوا وفزعوا .

صعد الحجاج المنبر ومكث ساعة لايتكلم ، وكان متلثما ، فقال بعض الجالسين لعن الله هذا ولعن من أرسله إلينا ، أرسل إلينا غلاما لايستطيع أن ينطق عيا . وأراد بعض الجالسين أن يرميه بالحصا ، فقال له جليسه : لاتعجل حتى ننظر ما يصنع . فلما رأى عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه وقال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفونى [2]

---

(١) متقلدا سيفا ، قد علق السيف فى عنقه ، متنكبا قوسا : وضع القوس على كتفه .

(٢) معنى البيت : أنا الرجل المشهور المعروف ، الذى يخوض الصعوبات ، وإذا لبست ملابس الحرب ظهر لكم أمرى وعرفتم حقيقتى : أما ابن جلا فقيل معناه : ابن رجل جلا الأمور ووضحها وقيل : هو كناية عن الصبح لأنه يجلو الظلام ، وقيل ابن جلا رجل بعينه كان فاتكا من فتاك العرب يطلع =

ثم قال : يا أهل العراق ، إنى لأرى رءوسا قد أينعت [١] وحان قطافها وإنى لصاحبها ، وكأنى أنظر إلى الدماء تترقرق بين العمائم واللحى ، ثم قال :

هذا أوان الشد فاشتدى زِيَم   قد لفها الليل بسواق حطم
ليس براعى إبل ولا غَنم   ولا بجزار على ظَهر وضَم [٢]

ثم قال :

قد لفها الليل بعَصلبىٍّ [٣]   أرْوَعَ [٤] خَرّاج من الدَّوِّىّ [٥]
مهاجر ليس بأعرابى

ثم قال :

قد شمرت عن ساقها فشُدُّوا   وجدّت الحربُ بكم فجِدُّوا
والقوس فيها وتَرٌ عُرُدُّ [٦]   مثلُ ذراع البكر أو أشَدُّ
لا بدَّ مما ليس منه بُدُّ

إنى والله يا أهل العراق ، ما يُقَعْقَعُ لى بالشِّنان [٧] ، ولا يُغمز

على الناس من ثنايا الجبال ، والثنايا جمع ثنية كقضية ، وهى الطريق فى الجبل ، والعمامة المغفر والبيضة تلبس فى الحرب لتحفظ الرأس من ضربات السيوف . والبيت لسحيم بن وثيل الرياحى .

(١) أينعت : نضجت وأنى أوان قطعها .

(٢) هذه الأبيات لشاعر قديم اسمه رويشد بن رميض العنبرى . الشد : العدو ، زيم : اسم فرسه أو ناقته . والسواق الحطم : القاسى الذى يسوقها بعنف وشدة فتتدافع فيهشم بعضها بعضاً : والوضم . كل ما قطع عليه اللحم . فهو يريد أن يقول : إن هذا وقت الجد فكونى شديدة يا فرسى ، فقد رمى الله هذه الرعية بوال شديد قاس عنيف ، يسوس جماعة من العصاة لا قطيعاً من الابل والغنم ، وليس مهيناً حقيراً بل هو معروف مشهور .

(٣) العصلبى : الشديد القوى .

(٤) الأروع : الذكى .

(٥) الدوى والدوية ، الفلاة المتسعة ، والتى يسمع لها دوى بالليل . أى خراج من كل شدة . وهو مهاجر أى ليس غراً ساذجا كالأعراب .

(٦) الوتر العرد : الشديد ، فاذا رمى أرسل السهم قوياً فيقتل . وجدت بهم الحرب أى اشتدت . وهذه الأبيات استشهد بها الحجاج ليبين لأهل العراق أنه جاءهم فى وقت شدة وأنه سيأخذهم بالشدة كما يأخذ السواق الحطم ماشيته ، وأنه بصير مجرب ذكى .

(٧) قعقع بالشنان : ضرب عليها فسمع لها صوت فخافت الابل . والشنان جمع شن بالفتح : الجلد اليابس كالقربة البالية ونحوها .

جانبي كتغماز التين(١) ، ولقد فُرِرتُ(٢) عن ذكاء ، وفتشت عن تجربة .
وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه — نثر كنانته(٣) بين يديه ، فعجم(٤) عيدانها ،
فوجدني أمرَّها عوداً ، وأصلبها مكسراً ، فرماكم بي ، لأنكم طالما
أوضعتم(٥) في الفتنة ، واضطجعتم في مراقد الضلال . والله لأحزمنكم
حزم السَّلَمَة(٦) ، ولأضربنكم ضربَ غرائبِ الإبل(٧) ، فإنكم لكأهل
قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم
الله ، فأذاقها الله لباسَ الجوع والخوفِ بما كانوا يصنعون .

وإني والله لاأقول إلا وفيت ، ولا أهُمُّ إلا أمضيت(٨) ، ولاأخلُق
إلا فريت(٩) . وإن أمير المؤمنين قد أمرني أن أعطيكم أعطياتكم(١٠) ،
وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة ، وإني أقسم بالله لاأجد
أحداً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه ، وأنهبت ماله(١١) ،
وهدمت منزله » .

ثم قال : يا غلام ، إقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ، فقرأ عليهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين ، إلى

---

(١) ولست لين المغمز .

(٢) فررت : أي اختبرت فكشف ذلك الاختبار عن ذكائي .

(٣) الكنانة وعاء السهام .

(٤) عجم العود : عضه بأسنانه ليعرف مقدار صلابته .

(٥) أوضع : أسرع

(٦) السلمة : شجرة كثيرة الشوك ، إذا أريد نفض أوراقها جمعت أغصانها وربطت بشدة .

(٧) أضربكم ضربا شديدا كما تضرب الابل الغريبة إذا أريد طردها عن المرعى أو المورد .

(٨) لا أهم بعمل إلا أتممته ونفذته .

(٩) خلق الأديم والنطع قدره وحزره قبل أن يقطعه . فاذا قطعه قيل فراه . والمقصود : إني لا أعزم على عمل إلا أتممته .

(١٠) أعطيات جمع أعطية بفتح الهمزة وتخفيف الياء ، وهذه جمع عطية . فهي جمع جمع ، والعطية ما يعطى من مال ونحوه .

(١١) وأنهبت ماله ، جعلته مباحا لمن ينهبه .

من بالكوفة من المسلمين ، سلام عليكم » فلم يقل أحد شيئاً . فقال الحجاج : اسكت يا غلام ! ثم أقبل على الناس فقال : أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا شيئاً ! أهذا أدب ابن نهية [1] والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن . اقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين ، فلما بلغ إلى قوله : سلام عليكم ، لم يبق أحد فى المسجد إلا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام :

ثم نزل فوضع للناس أعطياتهم ، فجعلوا يأخذون ، حتى أتاه شيخ يرعش كبَراً ، فقال : أيها الأمير : إنى من الضعف على ما ترى ، وإن لى ابناً هو أقوى على الأسفار منى . فقالوا أجيزوا ابنه عنه فإن الحدث أحب إلينا من الشيخ فلما ولى قال له عنبسة بن سعيد . أيها الأمير : هذا الذى ركض عثمان برجله وهو مقتول فكسر ضلعين من أضلاعه . والذى يقول أبوه :

هَمَمتُ ولم أفعلْ وكدت وليتنى ... تركتُ على عثمانَ تبكى حلائلُه [2]

هذا عمير بن ضابىء البرجمى .

فقال ردوه ، فردوه ، فقال : أيها الشيخ ، هلا بعثت إلى أمير المؤمنين عثمان بدلا يوم الدار ؟ إن فى قتلك أيها الشيخ صلاحا للسلمين ، ياحرسى : اضربن عنقه .

فجعل الرجل يضيق عليه أمره فيرتحل ويأمر وليه أن يلحقه بزاده ، وفى ذلك يقول عبد الله بن الزَّبير الأسدى .

أقول لعبد الله يوم لقيته ... أرى الأمر أمسى مُنْصِباً [3] متشعبا

تجهز فإما أن تزور ابن ضابىء ... عميرا ، وإما أن تزور المهلبا

هما خطتا خسف نجاؤك منهما ... ركوبك حوليا من الثلج أشهبا

فما إن أرى الحجاج يغمد سيفه ... يد الدهر [4] حتى يترك الطفل أشيبا

فأضحى ولو كانت خراسان دونه ... رآها مكان السوق أو هى اقربا

---

(١) ابن نهية : رجل كان على شرطة الكوفة قبل مجىء الحجاج .

(٢) الحلائل : الزوجات .

(٣) منصباً : متعبا .

(٤) يد الدهر : طول الزمن .

وقد صدق ظن هذا الشاعر .

وهذه أول خطبة له فى العراق ، وهى تنذر بشر عظيم ، وتوضح السياسة التى أراد الحجاج أن يسير عليها فى حكم تلك البلاد ، ويرى بعض المؤرخين أنها سياسة خرقاء لا تصلح أمة . بل تسوقها إلى الذل والضعف ، أو تملأ نفوسها حقداً وصدورها ضغينة حتى تنفجر يوما ما .

ولكن السوابق التى سبقت فى العراق تبرر شدة الحجاج ، فقد كانت الثورات متوالية والعصيان شائعا ، والقعود عن حرب العدو ، والفرار من الجيوش أمورا عادية ، وأساء إليهم زياد وابنه فصلح أمرهم فى أيامهما .

ورأى بشر بن مروان من فرارهم من الجيوش ، ما دعاه إلى أن يعذبهم بالكرسى الذى سبقت الإشارة إليه ، فلما مات فروا ودخلوا الكوفة قهراً مع أن الخوارج كانوا قريبين منهم ، ويستبيحون دماءهم وأموالهم . ويقتلون أبناءهم ويسبون نساءهم .

إن عبد الملك كان معذوراً فى أن يرميهم بالحجاج . أما الحجاج فالشدة من طبعه ، وتلك أخلاقه . وقد ثارت عليه ثورات بسببها ، ولكنه كان حسن الحظ ، فأخمدت الثورات ، وأضعف الخوارج حتى كاد يقضى عليهم .

وقد ذهب إلى البصرة بعد الكوفة ، فخطب فى أهلها خطبة شديدة كخطبته السابقة ، ومما قاله فيها :

« والله لا آمُر أحدَكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذى يليه إلا ضربت عنقه » .

فهو رجل يدين بالطاعة لولى الأمر ، وقد كان هو من خير الأمثلة لطاعة عبد الملك وابنه الوليد من بعده .

وجاءه رجل يعتذر بمرض . ويخبره أن بشر بن مروان قبل عذره . فلم يقبل منه وقتله . ففزع أهل البصرة ، وخرجوا يتدافعون إلى المهلب كما فعل أهل الكوفة .

خروج عبد الله بن الجارود عليه :

رأى الحجاج أن ينقص من عطاء الجند ما زاده ابن الزبير ، فأخبره ابن الجارود أن عبد الملك أقرها فهى زيادته ، وأنفذها على يد أخيه بشر . فكان رد الحجاج عليه : « ما أنت والكلام ! لتحسنن حمل رأسك ، أو لأسلبنك إياه » . ولكن ابن الجارود لم يحسن حمل رأسه ، ولم يسكت ، فقد تكلم الحجاج مرة ثانية فى العطاء ، فرد عليه ابن الجارود مثل رده الأول ، فرأى الشر من الحجاج ، فثار هو وأهل البصرة عليه ، فاحتال عليهم ، وضم كثيراً منهم إليه ، وفرق بين أصحاب ابن الجارود ، ثم حارب من بقى فهزمهم . وحز رءوسهم وأرسلها إلى المهلب ، لتكون نكالا لما بين يديها وما خلفها ، وموعظه للثائرين .

الخوارج والمهلب فى زمن الحجاج :

ولى الحجاج العراق والناس متخاذلون عن حرب الخوارج ، وقد انتصر هؤلاء على جيوش الخليفة فى أيام ولاية خالد بن عبد الله وبشر بن مروان ، فوجه إليهم عبدالملك هذا الرجل الميمون النقيبة ، المجرب للحروب ، البصير بأمر الخوارج وحيلهم . وهو المهلب ، ثم ولى الحجاج العراق ، فحمل الناس على حرب الخوارج حملا ، فآثروا الموت المظنون فى حرب الخوارج على الموت المحقق فى سجون الحجاج أو بيد شرطته ، وآثرا رفق المهلب بجنوده على بطش الحجاج بالمخلَّفين ، فكثر جند المهلب وخافهم العدو .

وقد كتب الحجاج إلى المهلب يظهر له حسن ثقته فيه كى يشد أزره ، فقال له :

« أما بعد . فإن بشرا استكره نفسه عليك ، وأراك غناءه عنك ، وأنا أريك حاجتى إليك ، فأرنى الجد فى قتال عدوك . ومن خفته على المعصية ممن قبلك فاقتله ، فإنى قاتل من قِبَلى » . ثم بين سياسته التى تشبه سياسة زياد ،

فقال : « ومن كان عندك من ولىٍّ من هرب عنك ، فأعلمنى مكانه ، فإنى أرى أن آخذ الولى بالولى والسَّمِىَّ بالسمىّ » .

فكتب إليه المهلب كتابا يظهر فيه الفرق بين الرجلين فى معاملة الجند ، ورأى كل منهما فى الشدة والبطش : فقد كان الحجاج يرى أخذ الناس بالشدة والعنف ، حتى ليرى أخذ الولى بالولى ، والسمى بالسمى . أما المهلب فقد قال فى رده عليه :

« ليس قبلى إلا مطيع ونادم على ذنبه ، وإن الناس إذا خافوا العقوبة أكبروا الذنب ، وإذا أمنوا العقوبة صغروا الذنب . وإذا يئسوا من العفو أكفرهم ذلك ، فهب لى هؤلاء الذين سميتهم عصاة ، فإنما هم فرسان أبطال ، أرجو أن يقتل الله بهم العدو » .

وكانت طريقة المهلب فى حربهم أن يراوغهم ، فيكر عليهم ، ويفر منهم ويحذر بَغَتاتهم ، ويرقبهم دائماً ، ويستعين عليهم بالحيل والدهاء .

وقُتل ابن مخنف فى حربهم فضم الحجاج جنده إلى المهلب ، ثم رأى أن يعين له شريكا سنة ٧٦ ، فولى عتاب بن ورقاء واليه على أصفهان ، فظل مع المهلب ثمانية أشهر ، حتى ظهر شبيب الحرورى بالعراق ، فاستقدمه الحجاج لحربه . فقدم ، وقتل سنة ٧٧ .

حيل المهلب للتفريق بينهم :

كان المهلب يهزم الخوارج ويطاردهم فى فارس من مدينة إلى مدينة ، ولكن حيلته فى إيقاع الفرقة والشقاق بينهم كانت من أبرز ما يؤثر عنه فى حروبهم ، ولا بأس بذكر شىء منها :

قال أبو العباس المبرد : وكان سبب اختلافهم أن رجلا حدادا من الأزارقة كان يعمل نصَالا مسمومة ، فيرمى بها أصحاب المهلب ، فرفع ذلك إلى المهلب ، فقال : أنا أكفيكموه إن شاء الله . فوجه رجلا من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكر قطرى ، فقال : ألق هذا الكتاب فى عسكر قطرى ،

واحذر على نفسك . وكان الحداد يقال له « أبزى » — فمضى الرسول ، وكان فى الكتاب :

«أما بعد ، فإن نصالك قد وصلت إلى ، وقد وجهت إليك بألف درهم ، فاقبضها ، وزدنا من هذه النصال » .

فوقع الكتاب والدراهم إلى قطرى ، فدعا « بأبزى » . فقال : ما هذا الكتاب ؟ . قال لا أدرى . قال : فهذه الدراهم ؟ قال : ما أعلم علمها . فأمر به فقتل . فجاء عبد ربه الصغير مولى بنى قيس بن ثعلبة ، فقال له : أقتلت رجلا على غير ثقة ولا تبين ! فقال له : ما حال هذه الدراهم ؟ قال : يجوز أن يكون أمرها كذباً . ويجوز أن يكون حقاً . فقال له قطرى : قتل رجل فى صلاح الناس غير منكر ، وللإمام أن يحكم بما رآه صلاحا ، وليس للرعية أن تعترض عليه ، فتنكر له عبد ربه فى جماعة ولم يفارقوه » .

فبلغ ذلك المهلب ، فدس إليه رجلا نصرانياً فقال له : إذا رأيت قطرياً فاسجد له ، فإذا نهاك فقل له : إنما سجدت لك ، ففعل النصرانى ، فقال له قطرى : إنما السجود لله . فقال : ما سجدت إلا لك . فقال له رجل من الخوارج : قد عبدك من دون الله ، وتلا : «إنكم وما تعبدون من دون الله حصَب[1] جهنم أنتم لها واردون» . فقال قطرى : إن هؤلاء النصارى قد عبدوا عيسى بن مريم ، فما ضر ذلك عيسى شيئاً . فقام رجل إلى النصرانى فقتله ، فأنكر ذلك عليه ، وقال : أقتلت ذمياً ؟ (وكانوا يوصون بالنصارى خيرا ويقولون : احفظوا ذمة نبيكم) فاختلفت الكلمة اختلافا ما .

فبلغ ذلك المهلب ، فوجه إليهم رجلا يسألهم عن شىء تقدم به إليه ، فأتاهم الرجل فقال : أرأيتم رجلين خرجا مهاجرين إليكم ، فمات أحدهما فى الطريق وبلغكم الآخر ، فامتحنتموه فلم يجز المحْنة[2] ، ما تقولون فيهما ؟ فقال بعضهم : أما الميت فمؤمن من أهل الجنة ، وأما الآخر الذى لم يجز

---

(١) وقودها . (٢) الامتحان .

المحنة فكافر حتى يجيزها ، وقال آخرون : بل هما كافران حتى يجيزا المحنة ، فكثر الاختلاف ، فخرج قطرى إلى حدود اصطخر ، فأقام شهرا والقوم فى اختلافهم » .

ثم زادت الخلافات بينهم على بعض المسائل ، وبايع قوم منهم رجلا تقدم ذكره ، هو عبد ربه الصغير ، أو الكبير كما يسميه بعض الكتب . ونشبت بين الفريقين حرب ، فرأى المهلب أن يصبر حتى يرى عاقبتها ، ويأخذ المنتصر منهما ، ورأى الحجاج أن يناجزهم المهلب وهم على خلافهم .

الحجاج يستعجل المهلب :

وكثيرا ما كان الحجاج يرى آراء وهو بعيد عن الميدان ، فيبعث بها إلى المهلب ، فينفذها وهو كاره ، ويقول : الرأى لمن يملكه لا لمن يبصره ، وكثيرا ما كان يرى العجلة فى حرب الخوارج ، ويرى المهلب أن ينتظر الفرصة ، وجرت بينهما رسائل فى هذا الشأن ، ولولا حلم المهلب وسعة صدره ، لضاق ذرعا بهذا التدخل ، وثار عليه مثل ماثار ابن الأشعث ، كما سيأتى ، ولكن المهلب كان رجلا سياسياً .

وجه إليه الحجاج رجلا اسمه الجراح يستحثه ، وأرسل معه كتاباً جاء فيه:

« أما بعد : فإنك جبيت الخراج بالعلل ، وتحصنت بالخنادق ، وطاولت القوم ، وأنت أعز ناصرا ، وأكثر عددا ، وما أظن بك مع هذا معصية ولا جبنا ، ولكنك اتخذت ذلك أكلا ، وكان بقاؤهم أيسر عليك من قتالهم ، فناجزهم ، وإلا أنكرتنى ، والسلام » .

فقال المهلب للجراح : « والله ما تركت حيلة إلا احتلتها ، ولا مكيدة إلا أعملتها ، وما العجب من إبطاء النصر ، وتراخى الظفر ، ولكن العجب أن يكون الرأى لمن يملكه لا لمن يبصره » .

ومما حدث أن الحجاج أرسل إلى المهلب رسلا يتعجلونه ، ويرون ما هو عليه فى محاربة الخوارج ، فكان المهلب يخرج الرسل إلى الميدان ليروا

مايجرى بأنفسهم فقتل واحد منهم ، وكان له صاحب فى فرقة أخرى ، فهرب حتى انتهت المعركة . فلما كان العشى رجع ، وكان من ثقيف . فقال له أحد الشعراء :

ما زلت يا ثقفى تخطب بيننا ... وتغمُّنا بوصية الحجاج
حتى إذا ما الموت أقبل زاخرا ... وسما لنا صرفا بغير مزاج
وليت يا ثقفى غير مناظر ... تنساب بين أحزة وفجاج[1]

موت قطرى :

كان أكثر الخوارج قد خلعوا قطرياً ، وبايعوا عبد ربه ، وكان أكثر من معه من العجم والموالى ، فحاربهم المهلب فى معارك عنيفة حتى قتل عبد ربه .

أما قطرى فقد سار بمن اتبعه إلى طبرستان ، ووجه إليه الحجاج جيشاً من الشام ، وأمر إسحق بن محمد بن الأشعث رئيس جيش الكوفة بطبرستان أن يعينه فى قتال قطرى ، فقاتله جنده حتى هزموه ، ووقع هو من فوق دابته إلى أسفل شعب من شعاب طبرستان فمات ؛ وتتبع جند الحجاج من بقى من الخوارج حتى قضوا عليهم سنة ٧٧ هـ .

رسول المهلب الى الحجاج :

ولما تمت الغلبة للمهلب على الأزارقة ، وقتل آخر زعمائهم عبد ربه الصغير سنة ٧٧ ، أوفد المهلب إلى الحجاج كعب بن معدان الأشقرى ، ومرة ابن تليد الأزدى ليخبراه بالفتح ، وكتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الكافى بالإسلام فقد ما سواه ، المعجل النقمة لمن بغاه ، الذى حكم بألا ينقطع المزيد منه حتى ينقطع الشكر من عباده . أما بعد : فقد كان من أمرنا ما قد بلغك ، وكنا نحن وعدونا على حالين مختلفين ؛ يسرنا منهم أكثر مما يسوءنا ، ويسوءهم منا أكثر مما

---

(١) الأحزة جمع حزيز . وهو المكان الغليظ من الأرض .

يسرهم ، على اشتداد شوكتهم ، واجتماع كلمتهم ، وانزعاج القلوب لمخافتهم . فقد كان علن[١] أمرهم حتى ارتاعت له الفتاة ، ونوم به الرضيع ، وصم لخوفهم السميع ، فانتهزت منهم الفرصة فى وقت إمكانها ، وأدنيت السواد من السواد[٢] حتى تعارفت الوجوه ، فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجله ، فقُطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » .

فلما طلعا عليه ، تقدم كعب فأنشده قصيدة جيدة فى وصف الحرب ، فقال له الحجاج : أشاعر أم خطيب ، قال : كلاهما .

وصف كعب الاشقرى لبنى المهلب :

فقال : أخبرنى عن المهلب ، قال : المغيرة فارسهم وسيدهم ، وكفى بيزيد فارسا شجاعاً ، وجوادهم وسخيهم قَبيصة ، ولا يستحى الشجاع أن يفر من مدرك . وعبد الملك سم ناقع ، وحبيب موت زعاف[٣] ، ومحمد ليث غاب ، وكفاك بالمفضل نجدة .

قال : فكيف خلفت جماعة الناس ؟

قال : خلفتهم بخير ، أدركوا ما أملوا وأمنوا ماخافوا .

قال : فكيف كان بنو المهلب فيكم ؟

قال : كانوا حماة السرح[٤] نهارا ، فإذا أليلوا[٥] ففرسان البيات[٦] .

قال : فأيهم كان أنجد ؟

قال : كانوا كالحلقة المفرغة ، لا يدرى أين طرفاها .

قال : فكيف كنتم أنتم وعدوكم ؟

---

(١) ظهور أمرهم.

(٢) السواد : العدد الكثير ، وعامة الناس .

(٣) زعاف : قاتل .

(٤) السرح : المال .

(٥) أليلوا : دخلوا فى الليل.

(٦) البيات : الاغارة ليلا .

قال : كنا إذا أخذنا عفونا ، وإذا أخذوا يئسنا منهم ، وإذا أجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم .

فقال الحجاج : العاقبة للمتقين ، كيف أفلتكم قطرى ؟

قال : كدناه ببعض ما كادنا به ، فصرنا منه إلى الذى تحب .

قال : فهلا اتبعتموه ؟

قال : كان الحد عندنا آثر من الفل[1] .

قال : فكيف كان لكم المهلب وكنتم له ؟

قال : كان لنا منه شفقة الوالد ، وكان له منا بر الولد .

قال : فكيف كان اغتباط الناس ؟

قال : نشأ فيهم الأمن وشملهم النفل[2] .

قال : أكنت أعددت لى هذا الجواب ؟

قال : لا يعلم الغيب إلا الله .

قال : هكذا والله تكون الرجال ! المهلب كان أعلم بك حيث وجهك .

رد الحجاج على المهلب :

ولما قرأ الحجاج كتاب المهلب رد عليه يذكر أن الله قد فعل بالمسلمين خيراً ، ويدعوه أن يقسم الفىء ، ويفضل الذين يراهم أهلا للتفضيل . ويولى على الخيل شهما من ولده ، ويقدم عليه بمن بقى ولا يرخص لأحد فى اللحاق بمنزله .

ثم جاءه المهلب فأكرمه وقال : ياأهل العراق ، أنتم عبيد المهلب ، ثم قال له : أنت والله كما قال لقيط الايادى :

---

(١) الحد : الدفع والمنع : الفل : الهزيمة .

(٢) النفل ، وجمعه أنفال : الغنيمة والهبة .

وقلدوا أمركم لله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا [١]

لا يطعم النوم إلا ريث يبعثه هم يكاد حشاه يقطع الضلعا

لا مترفا إن رخاء العيش ساعده ولا إذا عض مكروه به خشعا [٢]

ما زال يحلب هذا الدهر أشطره [٣] يكون متبعا طورا ومتبعا

حتى استمرت على شزر مريرته [٤] مستحكم الرأى لا قحما ولا ضرعا [٥]

فقال له المهلب ، إنا والله ما كنا أشد على عدونا ولا أحدٌ ، ولكن دفع الحق الباطلَ وقهرت الجماعة الفتنة ، والعاقبة للتقوى . وكان ما كرهناه من المطاولة ، خيرا مما أحببناه من العجلة .

فقال الحجاج صدقت . اذكر لى القوم الذين أبلوا ، وصف لى بلاءهم . فأمر الناس فكتبوا للحجاج على مراتبهم فى البلاء ، وتفاضلهم فى الغناء ، وقدم بنيه المغيرة ، ويزيد ، ومدركا ، وحبيبا ، وقبيصته ، والمفضل ، وعبد الملك ، ومحمدا ، وقال : إنه والله لو تقدمهم أحد فى البلاء لقدّمته عليهم . ولولا أن أظلمهم لأخرتهم .

قال الحجاج : صدقت ، وما أنت بأعلم بهم منى ، وإن حضرت أو غبت ، إنهم لسيوف من سيوف الله .

وولى عبد الملك الحجاج خراسان سنة ٧٨ هـ . فولى عليها المهلب بعد أن انتهى من حرب الخوارج مكافأة له فغزا بلادا هو وأولاده ثم مات ابنه المغيرة سنة ٨٢ هـ ثم مرض المهلب ، ومات بمرو ورثاه نهار بن توسعة الشاعر بقوله :

---

(١) رحب الذراع : كريم . مضطلع : ينهض بأعبائها

(٢) خشع : ذل .

(٣) يجرب الدهر ، ويتعلم من التجارب .

(٤) استمرت : قويت . شزر : القتل : والمريرة الحيل ، والمقصود ، قويت شكيمته

(٥) القحم : الكبير السن جدا . الضرع الذليل المسكين .

ألا ذهب الغزو المقرّب للغنى ومات الندى والجود بعد المهلب

أقاما بمرو الروذ رهن ضريحه وقد غيّبا عن كل شرق ومغرب

وقد نصح أولاده قبل موته بالاتحاد ، ومما قاله لهم : « وعليكم بقراءة القرآن وتعليم السنة وأدب الصالحين ، وإياكم والخفة ، وكثرة الكلام فى مجالسكم » .

اضطررنا إلى الاطالة شيئا ما فى الحديث عن المهلب وحروبه مع الخوارج والحق أن تاريخ الخوارج وأدبهم وتاريخ المهلب وأولاده وحروبهم وفتوحهم ، وعاقبة أمرهم جديرة بمؤلف خاص ولكنى اكتفيت هنا بذكر طرف من أخبارهم وأدب المهلب فى رسائله ومحاوراته وحديثه ونصائحه وعسى أن نعود إلى ذكر شىء عن ابنه يزيد فيما بعد .

ثورات العراق على الحجاج

تحدثت فيما سبق عن ثورة بن الجارود عليه ، وبينت أن الحجاج كان ظالما له . وقد قامت فى العراق وما جاورها من بلاد فارس ثورات أخرى ، كاد بعضها يذهب بسلطانه ، من ذلك ثورة شبيب الحرورى ومطرف ابن المغيرة بن شعبة ، وعبد الرحمن بن الأشعث .

ثورة شبيب :

أما شبيب فقد كان من الخوارج الحرورية ، وقد كان فى أول أمره تابعا لرجل اسمه صالح بن مسرح ، وكان صالح ناسكا خاشعا عابدا ، يقرىء أصحابه القرآن ، ويفقههم فى الدين ، ويقص عليهم القصص — التاريخ — وأخبار عثمان ، ويطعن فيه ، وفى على ، ويدعو أصحابه إلى التبرىء منهما ومن الخلفاء بعدهما . ويدعو الناس إلى الخروج على الخليفة القائم ، وإلى القتال فى سبيل الله حتى يلحقوا بأخوانهم الذين سبقوهم بإحسان إلى جنات النعيم .

وقد ذهب صالح إلى الحج سنة ٧٥ ، ومعه شبيب ، وكان عبد الملك هناك فكاد شبيب يفتك به . فلما رجع صالح إلى الموصل راسل شبيبا لما رآه من الاتفاق معه فى الرأى ، فقبل شبيب أن ينضم إليه على أن يكون صالح أمير المؤمنين . وخرجت الحرورية فى صفر سنة ٧٦ ﻫ

وقاتلوا الحجاج فى كثير من المواطن ، واقتحموا عليه الكوفة مرة ، وأقاموا بها ، وبنوا مسجدا لصلاتهم ، وهزمهم وهزموه . ثم مات صالح فولى أمر الحرورية شبيب بن يزيد الحرورى ، فأرسل إليهم عبد الملك جيشاً من أهل الشام ، وانتدب الحجاج لحربهم عبد الرحمن بن الأشعث فهزموه وعتاب ابن ورقاء فقتلوه ، ثم ظهر جيش الحجاج عليهم ، وطاردهم من موطن إلى موطن حتى لحقهم بجسر الأهواز ، وأراه شبيب أن يعبر النهر فغرق ، ويقال إن جثته أخرجت ، وشق عن قلبه فوجد صلبا متجمعا كأنه صخرة ، وكانوا

يضربون به الأرض فيرتد إلى أعلى قدر قامة الرجل ، ثم شق قلبه فوجد فيه قلب ثان ، ثم هذا القلب الثانى فوجدت فيه علقة من دم . وهذا خبر يحتمل الصدق والكذب ، وهو جدير بالقراءة . ولكن الجدير بالأعجاب حقا أن هؤلاء الخوارج كانوا يقابلون جيوشا تزيد عليهم عشرات المرات ، فيهزمونهم ويقتلون منهم أضعاف ما يقتل من الخوارج .

والخلاصة أن الحجاج استراح من الخوارج أزارقة وحرورية فى عام واحد سنة ٧٧ أو سنة ٧٨ على اختلاف فى الرواية .

وقد كان الخوارج فدائيين ، فرسانا شجعانا ، أشداء ، يدافعون عن عقيدتهم بإخلاص وشجاعة لم يسمع بمثلها فى التاريخ إلا قليلا ، وكانوا يطلبون الشهادة ، وكثيرا ما فر الموت منهم وهابهم القتل . وأذاقوا أعداءهم الويل والنكال .

ثورة مطرف بن المغيرة :

كان للمغيرة بن شعبة عدد من الأبناء ، وكان الرجل هو وأولاده أمويين لحما ودما من عهد معاوية ، وكانوا ولاة لبنى أمية ، فكان عروة بن المغيرة واليا على الكوفة ، ومطرف هذا على المدائن ، وحمزة على همذان للحجاج .

فلما خرج شبيب ، أرسل إليه مطرف يدعوه أن يرسل إليه بعض أصحابه ليجادله فلما سمع مطرف كلام الذين أرسلهم شبيب قال لهم : ما دعوتم إلا إلى حق ، وما نقمتم إلا جورا ظاهرا ، ودعا الحرورية إلى مبايعته فأبوا .

وذكر مطرف لأصحابه ظلم الحجاج وعبد الملك ، وأنه يرى مناهضتهما وخلعهما لله ولدينه ولجماعة المسلمين ، فلم يستجب له إلا نفر قليل ، فخاف العاقبة ، وسار من المدائن إلى الجبال ، وفر من بلد إلى بلد فى شمال فارس فأرسل الحجاج إليه جيشاً حاربه وقتله .

ابن الأشعث :

كان عبد الرحمن بن الأشعث قائدا من قواد الحجاج فى حرب الأزارقة ، وفى حرب شبيب الحرورى ، وفى سنة ٧٩ ﻫ اضطر الحجاج أن يحارب غير الخوارج من أمراء العجم فقد كان « رُتْبيل » ملك كابول مصالحا للمسلمين على جزية يدفعها ، ولكنه كان كثيرا ما يمنعها ؛ فتغيظ الحجاج . وأراد أن يلزمه الطاعة ، وينزله على شروط المصالحة التى كانت بينه وبين المسلمين . فعين عبيد الله بن أبى بكرة ، والى سجستان ، لحربه ، فطارده جيش عبيد الله وهزمه فى أكثر من موقعة ، ثم ثبت « رتبيل » فتراجع جيش عبيد الله ، فغضب الحجاج ، واستأذن عبد الملك فى إعداد جيش كبير يغزو بلاده .

أعد جيشاً كبيراً يضم عشرين ألفاً من أهل البصرة ، ومثلهم من أهل الكوفة ، وجهزهم بالسلاح والزاد والخيل ، وجعل عليه عبد الرحمن ابن الأشعث ، فسار حتى أتى سجستان فجمع أهلها وخطب فيهم :

« إن الحجاج ولانى ثغركم ، وأمرنى بجهاد عدوكم ، الذى استباح بلادكم ؛ فإياكم أن يتخلف منكم أحد فتمسه العقوبة ، فعسكِروا مع الناس وتجهزوا » .

ولما علم رتبيل بجيش بن الأشعث أظهر الطاعة ، ووعد بدفع الجزية ، فلم يقبل منه . وفر رتبيل ، وسقط كثير من بلاده وحصونه فى يد ابن الأشعث . فولى عمالا على البلاد التى استولى عليها ، ووضع حراساً على الأماكن التى يظن فيها الخطر كالشعاب ، والعقاب ورءوس الجبال .

ثم رأى — بعد أن كثرت فتوحه — أن يتوقف ليتعرف على البلاد التى استولى عليها ، وينظم جباية الخراج فيها ، ويألف المسلمون حياتها ، ويخبروا مسالكها وطرقها . ثم يتم الفتح بعد ذلك . وكتب إلى الحجاج برأيه .

فرد عليه الحجاج يلومه على التوقف ، ويتهمه بحب الموادعة ، « مع عدو ذليل قليل ، قد أصاب من المسلمين جندا كان بلاؤهم حسنا ، وغناؤهم عظيما »

ويدعوه أن يطارد العدو وكتب إليه ثانية وثالثة ، وهدده بالعزل وتولية أخيه اسحق بن محمد بن الأشعث مكانه .

فدعا ابن الأشعث الناس ، وبين لهم وجهة نظره ووجهة نظر الحجاج ، فثارت ثائرتهم ودعوه إلى خلع الحجاج ، وبايعوه على حربه هو بدلا من رتبيل ، فعلم الحجاج بذلك ، فأرسل إلى عبد الملك يستنجد به ، فأمده ، وخرج من البصرة إلى « تُسْتَر » فقابله هناك جند ابن الأشعث فهزموه ، فرجع إلى البصرة ، وكان أهلها حانقين عليه ، وبخاصة أهل الذمة منهم لأنه أخرجهم من البصرة إلى القرى وأخذ منهم الجزية كأنهم لم يسلموا .

يوم الزاوية :

سار بن الأشعث فى أثر الحجاج إلى البصرة ، والتقى جند العراق بجند الشام . فهزم جند العراق مع ابن الأشعث فى يوم « الزاوية » ، [1] فانسحبوا نحو الكوفة ، فأكرموا مثواهم ، وخرجوا معهم على الحجاج وطردوا عامله من الكوفة .

دير الجماجم سنة ٨٣ :

تبعهم الحجاج إلى الكوفة والتقى بهم فى دير الجماجم قريبا منها . وكان مع ابن الأشعث عدد كبير من أهل البصرة والكوفة وأهل الثغور حتى بلغ عددهم مائة ألف يأخذون العطاء ، ومثلهم من يبغضون الحجاج . وخشى عبد الملك عواقب هذه الثورة الجامحة العاصفة ، فعرض على أهل العراق أن يعزل الحجاج ، إن كان عزله يرضيهم ويردهم إلى طاعته . ويجرى عليهم العطاء كأهل الشام ، وترك لابن الأشعث أن يختار بلدا فى العراق ينزله ويكون والياً عليه ما دام كل منهما حيا ، وأن يولى على العراق أخاه محمد بن مروان . وإذا أبى أهل العراق بقى الحجاج واليا على العراق ، وواليا للقتال .

---

(١) موضع قرب البصرة .

خشى الحجاج أن يضيع سلطانه . وتذهب ريحه سريعا . وخشى شراً من العزل، ففكر فى إثارة عبدالملك على هؤلاء الناس وقال له فى كتاب أرسله إليه

« والله لو أعطيت أهل العراق نزعى لم يلبثوا إلا قليلا حتى يخالفوك ويسيروا إليك ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك . ألم تر ، ويبلغك ، وثوب أهل العراق مع الأشتر على عثمان بن عفان، وسؤاله نزع سعيد بن العاص ، فإذا نزعه لم تتم السنة حتى ساروا إلى عثمان فقتلوه ؟ وإن الحديد بالحديد يفلح ».

فلم يرض أهل العراق بهذه الشروط ، وأبوا إلا القتال ، وإن كان عبد الرحمن بن الأشعث على غير رأيهم ، إذ كان يرى قبول هذه الشروط .

فرأى عبد الملك ألا بد من حربهم ، واستأنف الفريقان القتال واستمر حاميا زمنا طويلا فى دير الجماجم ، ثم دارت الدائرة على أهل العراق وفر ابن الأشعث فى ١٤ جمادى الآخرة سنة ٨٣ هـ إلى البصرة فتبعه الحجاج ففر إلى سجستان ، فأكرم رتبيل منزله ، وكان كثير من جنده قد هرب إلى تلك البلاد أيضاً ، فجمعوا أمرهم ، وساروا إلى خرسان وعليها يزيد بن المهلب ، فأمرهم أن يعودوا من حيث أتو وإلا حاربهم مكرها . فلما أبو حاربهم وهزمهم وتفرق أصحاب أبن الأشعث .

أما هو فهرب إلى بلاد رتبيل مرة أخرى ، فأرسل الحجاج يطلبه ، ويتوعد رتبيل إن لم يسلمه ، فخاف العاقبة، وأراد القبض على ابن الأشعث ، فألقى نفسه من فوق قصره فمات ، وقطع رتبيل رأسه وأرسله إلى الحجاج سنة ٨٥ هـ .

بهذا انتهت ثورة ابن الأشعث التى كادت تذهب بالحجاج ،وكاد عبدالملك يعزله إرضاء للثائرين ، والحق أنه هو المسئول عن خروج رجل كابن الأشعث، فإن اتهامه لقواده ، وتدخله فى شئونهم وهو بعيد عن الميادين والبلاد التى تدور فيها المعارك ليس من الحزم فى شىء ، ولكنها طبيعة الاستبداد والطغيان

التى ملكت على الحجاج أمره . وقد كان هذا موقفه مع المهلب فى حرب الخوارج ، ولولا حلم المهلب ورزانته لثار على الحجاج أيضا .

وكان لشدته فى رسائله إلى هؤلاء القواد المجربين ، واتهامه لهم بحب الموادعة لتطول أيام الحرب ويأخذ هؤلاء القواد أجرهم ، كان لهذا أثر سيء فى نفوسهم ونفوس جندهم ، وقد نزل بعض القواد على رأيه مثل عبيد الله بن أبى بكرة فأصابهم الويل، ولعل ابن الأشعث كان يرى هذه الهزيمة التى لحقت بعبيد الله ناشئة من استماعه لنصيحة الحجاج .

وقد خطب الحجاج بعد دير الجماجم خطبة من أشهر خطبه وأهمها مثل خطبته حين ولى العراق فقال : «يا أهل العراق، إن الشيطان قد استبطنكم (١) فخالط اللحم والدم والعصب ، والمسامع والأطراف ، والأعضاء والشّغاف(٢) ثم أفضى إلى المخاخ والأصماخ (٣) ثم ارتفع فعشش ، ثم باض وفرّخ فحشا كم شقاقا ونفاقا ، وأشعركم خلافا . اتخذتموه دليلا تتبعونه ، وقائدا تطيعونه ومؤامرا (٤) تستشيرونه ؛ فكيف تنفعكم تجربة أو تعظكم وقعة ، أو يحجزكم إسلام، أو ينفعكم بيان؟ ألستم أصحابى بالأهواز حيث رمتم المكر، وسعيتم بالغدر ، واستجمعتم للكفر ، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته، وأنا أرميكم بطرفى ، وأنتم تتسللون لواذا (٥) وتنهزمون سراعا ؟

ثم يوم الزاوية ، وما يوم الزاوية !؟ بها كان فشلكم ، وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ، ونكوص (٦) وليكم عنكم ؛ إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها ، النوازع إلى أعطانها (٧) لا يسأل المرء عن أخيه ، ولا يلوى (٨) الشيخ على بنيه ، حتى عضكم السلاح ، وقصمتكم الرماح .

---

(١) نفذ إلى باطنكم وملك كل حواسكم وشعوركم .
(٢) الشغاف غلاف القلب.
(٣) الأصماخ . فتحات الأذن الداخلية التى تفضى إلى المخ .
(٤) مؤامرا : مستشارا . (٥) أى يلوذ بعضكم ببعض . (٦) رجوع وليكم عنكم .
(٧) الأعطان : مبارك الابل ، ويضرب المثل بشدة حنين الابل إلى مباركها .
(٨) لايلتفت إليهم ولا ينتظرهم.

ثم يوم دير الجماجم ، ومايوم دير الجماجم ! بها كانت المعارك والملاحم بضرب يزيل الهام عن مَقيله [١] ، ويذهل الخليل عن خليله .

يا أهل العراق ، والكَفَرات بعد الفَجَرات [٢] والغَدَرات بعد الخَتَرات [٣] والنَّزَوات [٤] بعد النزوات ، إن بعثتكم إلى ثغوركم غَلَلْتُم [٥] وخُنْتُم ، وإن أمنتم أرجفتم [٦] وإن خفتم نافقتم . لاتذكرون حسنة ، ولا تشكرون نعمة . هل استخفكم ناكث أو استغواكم غاو ، أو استنصركم ظالم أو استعضدكم [٧] خالع : إلا تَبِعْتُموه وآويتموه ، ونصرتموه وزكيتموه ؟

يا أهل العراق ، هل شَغَبَ شاغب ، أو نَعِبَ ناعب ، أو زفر زافر ، إلا كنتم أتباعه وأنصاره ؟

يا أهل العراق ، ألم تنهكم المواعظ ؟ «ألم تزجركم الوقائع» ؟

ثم التفت إلى أهل الشام ، وهم حول المنبر فقال :

« يا أهل الشام ، إنما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه [٨] ، ينفى عنها المدر [٩] ، ويباعد عنها الحَجَر ، ويُكِنُّها من المطر ، ويحميها من الضِّباب [١٠] ، ويحرسها من الذئاب . يا أهل الشام ، أنتم الجُنَّة والرداء ، والعدة والحذاء [١١]

---

(١) الهام الرءوس ، جمع هامة ، والمقيل : يقصد به الأعناق هنا .

(٢) جمع كفرة وفجرة ، اسم المرة من الكفر والفجور .

(٣) والغدرات جمع غدرة ، والخترات كذلك ، ويقصد بها الخديعة والغدر .

(٤) النزوات : معناها الوثبات ويقصد بها الوثوب على الولاة والخروج عليهم .

(٥) الثغور : المواضع التي يخاف أن يغير منها العدو . وغل كنصر . خان .

(٦) الارجاف ، الاشاعة التي لا أساس لها .

(٧) استعضد . طلب منكم مؤازرته ونصرته .

(٨) الظليم ذكر النعام ، ويضرب به المثل في شدة المحاماة عن صغاره فيرمح من يقترب منها أي يرفسه برجله رفسة قد تقتله .

(٩) المدر الطين اليابس .

(١٠) الضباب جمع ضب .

(١١) الحذاء ، من حاذى بمعنى آزر وساعد ، والجنة : الوقاية .

الحجاج بعد ثورات العراق :

ولى الحجاج أمر العراق وهى ثائرة ، والناس فيها متخاذلون عن الخروج لحرب أعدائهم ، ولا يطيعون أمراً لولاتهم ، ويكثرون الفرار من ميادين القتال ، فأخذهم بالشدة ، وأساء إليهم قولا وفعلا ، وامتلأت خطبه بشتمهم وسبهم ، وأكثر من التحدث عن كراهته لهم ، وكراهتهم له ، ولم يجد فرصة يشفى فيها غيظ قلبه إلا فعل ، ولو أدى ذلك إلى غدره بمن أمنهم .

ولعله كان يود أن يهنأ حيناً بمنصبه العظيم ، ويستمتع بسلطانه الواسع ، فلم يدع له أولئك فرصة ، لكثرة ما شغلوه بثوراتهم . وفرارهم وتخاذلهم .

الحجاج والأسرى :

لما انهزم ابن الأشعث يوم الزاوية ، أمر الحجاج مناديه فنادى : لا أمان لفلان وفلان ، وسمى ناساً ، فظن العامة أنهم آمنون ، إلا هؤلاء الذين سماهم ، فجاءوا إليه ، فأمر بأحد عشر ألفاً منهم ، فقتلوا .

ورأى أن يأخذ البيعة على الناس لعبد الملك بعد وقعة « دير الجماجم » ، ولم يكن يقبلها من أحد إلا بعد أن يقر على نفسه بالكفر ، فمن أقر قبل منه البيعة ، ومن أبى ضرب عنقه .

ويقول ابن عبد ربه فى العقد الفريد ج ٣ ص ٢٥٦ : إن عبد الملك هو الذى أمره أن يعرض أسرى دير الجماجم على السيف . فمن أقر بالكفر بخروجه مع ابن الأشعث أخذ بيعته وخلى سبيله ، ومن زعم أنه مؤمن ضرب عنقه . ففعل .

وكان فيمن عرضهم على السيف شاب وشيخ . فقال للشاب : أكافر أنت أم مؤمن ؟ قال : بل كافر . فقال الحجاج : لكن الشيخ لا يرضى بالكفر . فقال له الشيخ : أعن نفسى تخادعنى يا حجاج ؟ والله لو كان شىء أعظم من

الكفر لرضيت به . فضحك الحجاج وخلى سبيلهما .

وقدم إليه رجل فقال له : على دين من أنت ؟ قال : على دين إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ، فقال : اضربوا عنقه . ثم قدم آخر ، فقال له : على دين من أنت ؟ قال : على دين أبيك الشيخ يوسف ، فقال : أما والله لقد كان صواما قواما . خلوا عنه . فقال له الرجل : يا حجاج ، سألت صاحبي وسألتني ، فضربت عنقه لأنه قال : على دين إبراهيم حنيفاً ، وخليت عني ، وقلت عن أبيك : والله لقد كان صواما قواما . والله لو لم يكن لأبيك من السيئات إلا أنه ولد مثلك لكفاه ! فأمر بالرجل ، فضرب عنقه .

ثم أتى بعمران بن عصام الغنوى ، فقال : عمران ! قال : نعم ، قال : ألم أوفدك على أمير المؤمنين ولا يوفَدُ مثلك ؟ قال: بلى ، قال : ألم أزوجك مارية بنت مسمع سيدة قومها ، ولم تكن لها أهلا ؟ قال : بلى . قال : فما حملك على الخروج علينا ؟ قال : أخرجنى فلان . ثم أمر رجلا فكشف عن رأسه ، فإذا هو محلوق . فقال : ومحلوق أيضاً ! لا أقالنى الله إن لم أقتلك ، فأمر به فضرب عنقه . فسأل عبدالملك بعد ذلك عن عمران بن عصام ، فقيل: قتله الحجاج بخروجه مع ابن الأشعث ، قال : ما كان ينبغى له أن يقتله بعد قوله :

وبعثتَ من ولد الأبرّ مُعتّب صقراً يلوذ حمامه بالعوسج (١)

فإذا طبخت بناره أنضجتها وإذا طبخت بغيرها لم تنضج

وهو الهِزَبر إذا أراد فريسةً لم ينجها منه صريخ الهجهج (٢)

---

(١) معتب : من أجداد الحجاج ، والعوسج شجر من أشجار البادية فيه شوك .

(٢) الهزبر : الأسد . الهجهج : صوت لزجر الغنم ، وأصله هج هج . وحركه الشاعر للضرورة .

بعض الأسرى من كبار التابعين :

ثم أتى بعامر الشعبي ، ومطرف بن عبد الله الشِّخِّير ، وسعيد بن جبير من سادات التابعين . وكان الشعبي ومطرف يريان التورية . فلما قدم الشعبي قال له : أكافر أنت أم مؤمن ؟ قال : أصلح الله الأمير ، نبا بنا المنزل ، وأجدب بنا الجناب ، واستحلَسنا الخوف[1] ، واكتحلنا بالسهر ، وخبطتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ، ولا فجرة أقوياء . قال الحجاج : صدقت ، والله ما بروا بخروجهم علينا ولا قَوُوا . خلوا عنه . ثم قدم إليه مطرف . فسأله مثل سؤال الشعبي . فقال : أصلح الله الأمير ، إن من شق عصا الطاعة ونكث البيعة ، وفارق الجماعة ، وأخاف المسلمين ، لجدير بالكفر . فقال : صدق ، خلوا عنه .

ثم قدم سعيد بن جبير ، فقال له : سعيد بن جبير ! قال : نعم ، قال : بل شقي بن كسير . قال : أمي أعلم باسمي منك . قال : شقيت وشقيت أمك . قال : الشقاء لأهل النار . قال : أكافر أنت أم مؤمن ؟ قال : ما كفرت بالله مذ آمنت به . فقال : اضربوا عنقه .

ويروى الكامل ج ٢ ص ٧٧ أن سعيداً كان مولى لرجل من بني أسد بن خزيمة ، فاشتراه سعيد بن العاص الكوفي في مائة عبد فأعتقهم جميعاً . فلما خرج مع ابن الأشعث وظفر به الحجاج قال له : ياشقي بن كسير ! أما قدمت الكوفة ولا يؤم بها إلا عربي فجعلتك إماماً ؟ قال : بلى . قال : أفما وليتك القضاء فضج أهل الكوفة ، وقالوا : لا يصلح للقضاء إلا عربي ، فاستقضيت أبا بردة بن أبي موسى الأشعري وأمرته ألا يقطع أمراً دونك ؟ قال : بلى . قال : أوما جعلتك في سُمَّاري وكلهم من رءوس العرب ؟ قال : بلى . قال : أو ما أعطيتك مائة ألف درهم لتفرقها في أهل الحاجة ثم لم أسألك عن شيء

---

(١) الجناب : الناحية . واستحلسنا : ملكنا .

منها ؟ قال : بلى . قال : فما أخرجك ؟ قال : بيعة كانت لابن الأشعث في عنقي . فغضب الحجاج ، ثم قال : أفما كانت بيعة أمير المؤمنين عبد الملك قَبْلُ ؟ والله لأقتلنك . يا حرسى اضرب عنقه .

وقتل ابن القِرِّيَّة الخطيب المشهور كذلك .

ويقول المبرد : ونظر الحجاج فإذا جل من خرج مع عبد الرحمن من الفقهاء وغيرهم من الموالي فأحب أن يزيلهم عن موضع الفصاحة والآداب ، ويخلطهم بأهل القرى والانباط[1] . فقال : إنما الموالي علوج[2] ، وإنما أُتي بهم من القرى . فقراهم أولى بهم . فأمر بتسييرهم من الأمصار وإقرار العَرب بها . وأمر أن ينقش على يد كل منهم اسم قريته ، وطالت ولايته فتوالد القوم هناك ، فخبثت لغات أولادهم ، وفسدت طبائعهم .

أكان الحجاج مصيباً أم مخطئاً ؟

لعل لهؤلاء القوم عذراً بخروجهم مع ابن الأشعث ، فقد كان الحجاج يسومهم الخسف ، وكانت شدته وشتائمه تتجاوز العامة إلى الخاصة والقواد . فلما حانت الفرصة للخروج عليه لم يتأخروا .

يخيل إلى أن مثل الشعبي وابن الشخير كانا يجاريان العامة خوفاً من أن يفتكوا بهما ، كما أقرا على أنفسهما بالكفر خوفاً من أن يضرب الحجاج أعناقهما . أما ابن جبير فكان صاحب رأى ؛ لهذا لم يرض أن يقر على نفسه بالكفر . ومثله مثل الرجل الذى صرح للحجاج برأيه فيه وفى أبيه ؛ فقتله بعد أن عفا عنه .

ولكن للحجاج عذراً كذلك ، فإنها ثورة جامحة ؛ وخروج على طاعة السلطان ؛ ولا لوم عليه فى قتل أعدائه بعد أن خرجوا عليه ؛ ونقضوا عهده

---

(١) الأنباط : جيل من الناس كانوا ينزلون بين العراقين ، العربى والعجمى .

(٢) علوج : جمع علج بكسر العين ، وهو الكافر من العجم .

وخلعوا خليفته . وهل ينتظر من رجل ظفر بأعداء حاربوه ، وكادوا يقتلونه ومن معه ، أن يعفو عنهم ويرق لهم ؟ فإذا كانت لهم حجة فى خروجهم ، فقد كانت له حجة أيضا ، وزادت حجته قوة بالانتصار عليهم، وهل يرجو اللائمون للحجاج أن يقول للخارجين عليه ما قال يوسف عليه السلام لإخوته : « لا تثريب[1] عليكم اليوم ؛ يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » ؟

أكان يعفو عن أسراه ؟

ذكر صاحب العقد الفريد[2] أن الحجاج أتى بأسرى من الخوارج ؛ فأمر بضرب أعناقهم فقدم فيهم شاب . فقال : والله يا حجاج لئن كنا أسأنا فى الذنب ؛ فما أحسنت فى العفو . فقال : أف لهذه الجيف . أما كان فيهم من يقول هذا القول ؟ وأمسك عن القتل .

والظاهر أن هذا القول وحده ليس كافياً للعفو عن الأسرى . ولم يكن من طبيعة الخوارج أن يعتذروا إلى الحجاج ولا إلى غيره من أعدائهم . وهم يرونهم كفاراً . ولعلها حادثة فردية ، ولعل عفوه كان بعد أن أكثر القتل وسئمت نفسه منظر الدماء . فتحركت شفقته فعفا .

ويروى كذلك أنه أتى بأسرى فأمر بقتلهم ، فقال رجل منهم : لا جزاك الله ياحجاج عن السنة خيرا ، فإن الله تعالى يقول : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق[3] ، فإما منًّا بعد وإما فداءً » . فهذا قول الله فى كتابه ، وقد قال شاعركم فيما وصف به نفسه من مكارم الأخلاق :

---

(١) لا لوم عليكم .

(٢) ج ١ ص ٢٤٥ .

(٣) المعنى : فاذا لقيتم الذين كفروا فى الحرب فاقتلوهم ثم أسروهم . وأنتم مخيرون بعد الأسر فى قتلهم أو المن عليهم أو فدائهم .

وما نقتل الأسرى ولكن نفكهم   إذا أثقل الأعناقَ حمل القلائد

فقال الحجاج : ويحكم ! أعجزتم أن تخبرونى بما أخبرنى به هذا المنافق ! وأمسك عمن بقى .

وأتى الحجاج بامرأة حرورية ، فقال لأصحابه : ما تقولون فى هذه ؟ قالوا : اقتلها أيها الأمير ونَكِّلْ بها غيرها . فتبسمت المرأة الحرورية ، فقال لها : لم تبسمت ؟ فقالت : كان وزراء أخيك فرعون خيراً من وزرائك يا حجاج ؛ استشارهم فى موسى فقالوا : « أرْجِهْ وأخاه » وهؤلاء يأمرونك بتعجيل قتلى . فضحك الحجاج وأمر بإطلاقها[1] .

ولعل الحجاج قد أخذته الرهبة عندما ذكره الرجل بالله وحكمه فى كتابه ، والنفوس الإنسانية مهما تكبرت وأخذتها العزة ، تضعف وتلين إذا ذكرت الله أو ذُكِّرتْ به وهو القوى العزيز ، لهذا عفا عن الرجل .

والمرأة الحرورية كانت سريعة الجواب المشوب بالتهكم . والحجاج أديب ذكى يقدر الجواب السريعة ، والبديهة الحاضرة . فلعله عفا عنها لهذا ، كما يحتمل أنه عفا عن الرجل لهذا أيضاً ، إذ أحسن الاحتجاج بالقرآن الكريم وأجاد الاستعطاف ببيت الشعر .

خبره مع فيروز حصين[2] :

كان فيروز حصين هذا رجلا من أشراف العجم ، وأسلم فوالى حصين ابن عبد الله العنبرى ، وكان فيروز شجاعا كريماً ، نبيل الصورة ، جهير الصوت ، وقد خرج فى جيش المهلب وحارب الأزارقة ، ثم خرج على الحجاج مع ابن الأشعث . ومن مواقفه المشهورة ، أن الحجاج لما واقف ابن الأشعث فى « رستقاباذ » نادى مناديه : من أتى برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم . ففصل فيروز من الصف ، فصاح بالناس : من عرفنى فقد اكتفى ، ومن

---

(١) يروى مثل هذه القصة مع زياد كذلك .

(٢) الكامل للمبرد ج ٣ ص ١٩٥ .

لم يعرفني فأنا فيروز حصين ، وقد عرفتم مالى ووفائى . من أتى برأس الحجاج فله مائة ألف . فقال الحجاج : والله لقد تركني أكثر التلفت ، وإني لـبَيِّنَ خاصتي .

ثم أسر فيروز ، وجيء به إلى الحجاج فقال له : أأنت الجاعل في رأس أميرك مائة ألف ؟ قال : قد فعلت . فقال : والله لأمهدنك ثم لأحملنك ، أين المال ؟ قال عندى ، فهل إلى الحياة من سبيل ؟ قال : لا . قال : فأخرجني إلى الناس حتى أجمع لك المال ، فلعل قلبك يرق على . ففعل الحجاج . فخرج فيروز ، فأحل الناس من ودائعه . فأعتق رقيقه ، وتصدق بماله . ثم رد إلى الحجاج ، فقال : شأنك الآن ؛ فاصنع بي ما شئت » .

فعذبه عذاباً شديدا ، فما تأوه ولا ضجر حتى مات .

الفتوح فى ولاية الحجاج

ذهب الحجاج إلى العراق ليبسط سلطان بنى أميه بعد أن كثرت فيه الثورات من الشيعة والخوارج ، واضطرب الأمن بسبب الفتن التى كانت تثيرها العصبيات بين القبائل النازلة فيه . فاستطاع أن يقضى على كل هذه الثورات والفتن ، وأن يعيد الأمن إلى ربوعه ، فى ظلال السيوف المشرعة ، وقتل فى سبيل ذلك آلافا من أهل البلاد وأخضع من بقى ، وسامهم الذل ، وأخذهم بالشدة ، وصار سيد تلك البلاد زمناً طويلا :

ورأى بعد القضاء على هذه الفتن أن يوجه همه إلى الفتح ، واستعان بقواد نبلاء ، وفرسان مغاوير ، فساعدوه على نشر دين الله . وسلطان الخلافة الإسلامية فى شرق العراق ، حتى امتد إلى غرب الصين ، وشمل جزءا كبيرا من شمال الهند وبلاد التركستان ، وأسلم أهل تلك البلاد ، أو دخلوا فى ذمة الخلافة الإسلامية ، بعد أن أعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

ومن القواد الذين استعان بهم على تلك الفتوح :

(١) المهلب . ولاه الحجاج خراسان بعد أن قضى على الخوارج فى سنة ٨٠هـ فقطع نهر بلخ ، ونزل « كِسّ » . وأغزى المهلبُ ابنه يزيد بلاد الخُتَّل ، فصالحه ملكها على جزية ، وفى سنة ٨٢ ترك هذه البلاد ورجع إلى مرو فمات بها . وولى الأمر فى خراسان بعده ابنه يزيد بن المهلب .

(٢) يزيد بن المهلب . فتح « نيزك » ، وكتب إلى الحجاج بذلك . ثم حسده الحجاج وعزله وولى مكانه قتيبه بن مسلم الباهلى :

(٣) قتيبة بن مسلم ،

ولى الأمر فى خراسان بعد عزل يزيد بن المهلب ، ولم يعزله عبد الملك إلا بعد إلحاح من الحجاج . وتفصيل ذلك : أن الحجاج حسد يزيد لما ظهرت مناقبه

وعظمت آثاره . وقضى على ابن الأشعث والأزارقة ، والحرورية ، ومات المهلب . ولم يعد أمامه من يخشاه إلا يزيد ، وهو يعلم فضله وجوده ومحبة الجند له . ولم يكن الحجاج بالرجل الذى يقبل منافساً ، فعمل على التخلص منه .

وقد وفد على عبد الملك ، ثم عاد إلى العراق فمر فى عودته بدير فنزله . فقيل له : إن فى هذا الدير شيخاً من أهل الكتاب — العرافين — عالما ، فدعا به وسأله : أتعلم ما إلىّ ؟ قال : نعم . قال : فمن يليه بعدى ؟ قال : رجل يقال له يزيد . فوقع فى نفس الحجاج أنه يزيد بن المهلب .

فإذا صحت هذه القصة دلت على أن الحجاج كان شديد الخوف على سلطانه ، وكان يظن أن مصدر الخطر عليه هم المشهورون من رجال الدولة ممن لهم بلاء فى خدمتها بالمشرق فى حرب الخوارج وغيرهم . ولم يكن هناك منهم أشهر ولا أحب إلى الناس من يزيد . فلما ذكر العراف للحجاج اسم « يزيد » انصرف ذهنه إلى يزيد بن المهلب .

أما يزيد فكان بعيدا عن التفكير فى هذا الأمر ، وكانت أخلاقه أسمى من هذا . فهو الذى حارب ابن الأشعث حتى رده عن خراسان . أيام ثورته على الحجاج . وقد نصحه بعض مستشاريه بالاعتلال عندما أرسل الحجاج يستدعيه فقال :

« إنا أهل بيت بورك لنا فى الطاعه ، وأنا أكره الخلاف والمعصية »

ولم يكن خروجه على الخلافة فى زمن يزيد بن عبد الملك إلا بسبب ما لقيه من العنت والعذاب هو وأهله على يد الحجاج ، ولعل ما كان يتوقعه على يد يزيد بن عبد الملك كان أشد وأفظع .

ارتحل الحجاج من الدير إلى العراق وهو وجل ، وأخذ يفكر فى عزل يزيد فلم يجد شيئاً يأخذه عليه ، فانتظر حتى قدم عليه أحد فرسان المهلب وأعوان ابنه يزيد ، واسمه الخيار بن سبرة . فسأله الحجاج عن يزيد ، فقال :

حسن الطاعة لين السيرة . قال : كذبت اصدقنى عنه . قال : الله أجل وأعظم . أسرج ولم يُلجِم[1] قال صدقت .

ثم كتب إلى عبد الملك يثيره على آل المهلب ، ويطلب منه عزل يزيد عن خراسان ، لسابق ولائهم لآل الزبير . ووفائهم لهم .

فكتب إليه عبدالملك : إنى لا أرى نقصا بآل المهلب طاعتَهم لآل الزبير . بل أراه وفاء منهم لهم ، وإن وفاءهم لهم ليدعوهم إلى الوفاء لى .

وقد كان هذا سداد رأى من عبدالملك فأنه رأى من ولائهم له وخدمتهم لدولته فى حرب الخوارج وفتوح خراسان زمن المهلب ما جعله يطمئن الى طاعتهم ، غير أن الحجاج كتب اليه يخوفه غدرهم لما أخبره به العراف ، فكتب اليه عبد الملك ،

« قد أكثرت فى يزيد وآل المهلب فسم لى رجلا يصلح لخراسان »

فسمى له قوما لا يصلحون وهو يعرف أن عبد الملك لن يرضى عنهم ، وذلك دهاء منه ، ورغبة فى أن يكون اسم قتيبة بن مسلم آخرهم — وهو الذى كان يميل اليه الحجاج — حتى لا يعرف عبد الملك ميله اليه ، فلما سماه له آخر الأمر كتب اليه عبد الملك : « وَلِّه »

وبلغ يزيد أن الحجاج عزله فقال لأهل بيته « من ترون الحجاج يولى خراسان ؟ قالوا » رجلا من ثقيف . قال : « كلا ، ولكنه يكتب الى رجل منكم بعهده فاذا قدمتُ عليه عزله وولى رجلا من قيس ، وأخلق بقتيبة .

كان يزيد يعرف دهاء الحجاج ، وقد أدرك أنه لا يولى على هذه البلاد بعده إلا واحدا من آل المهلب خشية أن يمتنعوا عليه بتلك البلاد البعيدة ، وهم فى جند يحبونهم لحسن سيرتهم ولكرمهم . وقد صدق ظنه ، فان الحجاج كتب اليه : « أن استخلف المفضل وأقبل . فأبطأ على الحجاج ، فكتب الى المفضل : « انى قد وليتك خراسان »

---

(١) أخذ يعد عدته للخروج ولم ينته منها .

فجعل المفضل يستحث أخاه يزيد فقال له يزيد : « ان الحجاج لا يقرك بعدى ، وقد دعاه الى ما صنع مخافة أن أمتنع عليه » . قال بل حسدتنى . فقال يزيد « يابن بهلة أنا أحسدك ! ستعلم » فلما قدم عليه يزيد عزل المفضل وولى قتيبة بن مسلم سنة ٨٥ هـ

وقد يروى سبب آخر لعزل يزيد ، ومهما تكن الأسباب فقد كان الحجاج يخشاه كما كان يخشى غيره من رجالات بنى أمية فلما أذن له عبد الملك فى عزله فعل .

ولى الحجاج قتيبة بن مسلم على خراسان بعد يزيد والمفضل ، فقدمها سنة ٨٦ هـ وغزا بعض بلاد طخارستان وصالحه أهلها على جزية فقبلها ، ثم رجع إلى مرو واستخلف على الجند أخاه صالح بن مسلم فكتب اليه الحجاج يلومه وقال له : « اذا غزوت فكن فى مقدم الناس ، واذا قفلت فكن فى أخرياتهم وساقتهم »

وتلك اشارة تدل على مبلغ حرصه على الجند ، ورغبته ألا يكون زمامهم فى غير يد القائد العام ذهابا وايابا ، فانهم اذا فقدوه فى الذهاب تواكلوا وتخاذلوا ، وربما ظنوه يلقى بهم الى التهلكة ويجعلهم دريئة له ، فاذا تقدمهم شجعوا ، وكانت لهم فيه أسوة حسنة ، واذا رجع قبلهم لغير سبب ظاهر فقد يصيبهم الوهن ، وقد يعلم عدوهم بذلك فيظنهم بلا قيادة فيجرؤ عليهم ، وقد يتحرر الجند من سلطان النظام لعدم وجود القائد معهم ، فيدفعهم ذلك الى المعصية ، أو الاساءة إلى أهل البلاد المفتوحة بنقض عهد أو تجاوز حدود اتفقوا عليها مع قائدهم .

غزو بخارى سنة ٨٩ هـ

غزا قتيبة « وَرْدَانَ خُذَاه » ملك بخارى سنة ٨٩ هـ فلم يقدر عليه ، فعاد الى « مرو » وكتب إلى الحجاج بذلك فكتب اليه الحجاج « أن صورها لى » فبعث اليه بصورتها ، فكتب اليه الحجاج «

« ارجع إلى مراغتك[1] فتب الى الله مما كان منك وأتها من مكان كذا وكذا » وقيل كتب اليه الحجاج « كسْ بكِس[2] وانسِفْ نَسَفَ وردْ وَرْدَانَ[3] واياك والتَّحْويط[4] ودعنى من بنيات[5] الطريق »

فخرج إلى بخارى ففتحها سنة ٩٠ ﻫ ، وهزم جنود وردان ومن نصروه من الترك والسُّغد ؛ وتدل الرسالة الأولى على حسن تدبير الحجاج وبصره بالخطط الحربية . وليس عندنا كثير من الدلائل الصريحة على هذا ، اللهم إلا انتصاراته التى قاد فيها جيوشه ضد ابن الزبير ، وبعض معاركه مع الحرورية وابن الأشعث ، وأما تدخله فى أمور المهلب فلم يكن تدبيرا للخطط ، وإنما كان فى أكثر حالاته استعجالا .

وأما بقية الرسالة فهى دعوة صالحة إلى التوبة وبها تصلح الأمور ويأتى الله بالفتح . ولعله اقتدى فى هذا بالسلف الصالح . أما تسمية بخارى مراغة فهى تسمية شبيهة بالحجاج ؛ فهو طويل اللسان سريع الشتم للناس وللأماكن أيضاً ؛ فإن من معانى المراغة الأتان التى لا تمنع الفحولة ، ولعله رأى أن هذا يشجع قتيبة على أن يطرقها مرة ثانية ، فدانت له .

أما الرسالة الثانية فقد تلفت نظر الباحث الأدبى ؛ لما فيها من ميل واضح إلى التجنيس مما لا نراه كثيرا عند الحجاج ولا عند كثير غيره من كتاب هذا العصر ، وبخاصة إذا كان متكلفا مقصودا كما نلمح هنا .

فتح مدائن خوارزم وسمرقند سنة ٩٣ ﻫ :

وفى سنة ٩٣ﻫ فتح قتيبة مدائن خوارزم صلحا ، وغزا سمرقند ففتحها بعد قتال شديد ، وبنى بها مسجداً وصلى فيه . وكان معه فى هذه الغزوة نهار بن

---

(١) المراغة : متمرغ الدواب ، أو الأتان التى لا تمتنع .

(٢) فعل أمر من كاس يكيس إذا فطن . والثانية اسم مدينة

(٣) أى أذهب إلى وردان خداه ملك بخارى

(٤) احذر التفاف أعدائك بجندك .

(٥) بنيات الطريق : الطرق الصغار والمسالك الضيقة .

توسعة ، شاعر آل المهلب ، فلما جاء نصر الله والفتح دعا نهارا فقال له : « يانهار ، أين قولك » .

ألا ذهب الغـزو المقرب للغنى ومات الندى والجود بعد المهلب
أقاما بمَـرْوِ الرُّوذِ رهْنَ ضريحهِ وقد ُغيِّبا عن كل شرق ومغرب

أفغزو هذا يانهار ؟ قال « لا » هذا أحسن . وأنا الذى أقول .

وما كان مذ كنا ولا كان قبلنا ولا هو فيما بعدنا كابن مسلم
أعَـمَّ لأهل الترك قتلا بسيفه وأكثر فينا مقسما بعد مقسم

ثم رجع قتيبة إلى « مرو » فأقام بها بعد أن استخلف على سمرقند عبدالله ابن مسلم ، وخلف عنده جيشاً كثيفا وكثيرا من آلات الحرب .

بين قتيبة وملك الصين :

وفى سنة ٩٤ هـ وصـل فى فتوحه إلى « قاشان » من مدن فرغانة . وفى سنة ٩٦ هـ خرَج من « مرو » يريد غزو الصين فجاءه وهو بفرغانة نعى الوليد ابن عبد الملك فلم يقعده ذلك عن الغزو وسار إلى « كشغر » أدنى مدائن الصين ففتحها . وكان بينه وبين ملك الصين مراسلات لا بأس بذكر حديثها لما تدل عليه من شجاعة أولئك الفاتحين البواسل وإيمانهم بربهم وإقدامهم على الموت أبطالا فى سبيل غايتهم .

أرسل قتيبة وفداً إلى ملك الصين فقال لهم قولوا لقتيبة ينصرف ، فإنى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه وإلا بعثت إليكم من يهلككم . فقال هبيرة ابن المشمرج الكلابى رئيس الوفد : « كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله عندك وآخرها فى منابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاك ؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه » .

قال : فما الذى يرضى صاحبكم ؟ فقال هبيرة : « إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية » . قال : فإنا نخرجه

من يمينه ؛ نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ، ونبعث إليه بجزية يرضاها » . ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بحرير وذهب وأربعة من أبناء ملوكهم ، ثم أجاز الوفد ، فساروا حتى قدموا على قتيبة فقبل الجزية ورضى بالحل الذى رآه ملك الصين . ثم عاد إلى «مرو» عاصمة خراسان .

وعلى يدى هذا القائد العظيم ضمت بلاد واسعة إلى الإمبراطورية الإسلامية ، ودخل أهلها فى دين الله أفواجا ، فأخرجت للدنيا عدداً من أعاظم الكتاب والمحدثين والفقهاء ، ممن لا يزال ذكرهم خالداً ، وآثارهم عظيمة فى تاريخ الإسلام .

خاتمة هذا القائد العظيم :

كان قتيبة ممن شايع الوليد فى رغبته أن يعزل أخاه سليمان من ولاية العهد ويبايع لابنه عبد العزيز ، فأسرها له سليمان . فلما مات الوليد وولى سليمان خاف قتيبة على نفسه ، ورأى أن يخرج عليه ، ودعا الناس فى خراسان إلى الخروج معه فأبوا ، وولوا عليهم رجلا من أشراف تميم اسمه «وكيع» فثار هو ومن معه على قتيبة ، فقتلوه هو وأخوته وأكثر بنيه . ويروى أن رجلا من عجم خراسان أكبر ذلك ورأى فيه سوء تقدير ، فقال : يا معشر العرب ، قتلتم قتيبة ، والله لو كان منا فمات فينا ، جعلناه فى تابوت فكنا نستفتح به إذا غزونا .

وقال عبد الرحمن بن جمانة من قبيلته يرثيه :

كأن أبا حفص قتيبة لم يسر ... بجيش إلى جيش ولم يعل منبرا
ولم تخفق الرايات ، والقوم حوله ... وقوف ، ولم يشهد له الناس عسكرا
دعته المنايا فاستجاب لربه ... وراح إلى الجنات عفاً مطهرا

محمد بن القاسم الثقفى :

كان أميراً على ثغر السند من قبل الحجاج ، وقد فتح مدناً كثيرة وضم إلى الإسلام بعض بلاد الهند صلحاً وحرباً ، وجبى خراجها . وأخذ الجزية من أهلها ، وبنى المساجد ونشر الاسلام فيها .

ولما مات الوليد وخلفه سليمان عزل محمداً ، وولى مكانه رجلا من أعداء الحجاج هو يزيد بن أبى كبشة السكسكى ، فأخذ محمد بن القاسم وقيده وحمله إلى العراق ؛ فقال محمد متمثلا :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فبكى أهل السند على عزله ، ولما بلغ العراق حُبس بواسط . فقال :

فلئن ثويت بواسط وبأرضها رهن الحديد مكبلا مغلولا
فَلَرُبَّ قينة فارس قد رُعْتها ولرُبَّ قِرن قد تركتُ قتيلا

ثم عذب هو وجماعة من آل أبى عقيل ، رهط الحجاج ، حتى ماتوا فى العذاب . وانتهت بهذا حياة قائدين من أعظم قادة الجيوش فى الاسلام ، رحمهما الله .

معاملة لأشراف الناس :

كان الحجاج من خير ولاة بنى أمية : أشرف على حرب الخوارج حتى أضعفهم ، وتولى أمر العصاة فى العراق فأدبهم ، وتولى فتوح المشرق ، فاختار لها رجالا من خير القواد كالمهلب وأبنائه ، وكابن الأشعث وقتيبة ابن مسلم الباهلى ومحمد بن القاسم الثقفى . فأخضعوا الثائرين ونشروا الإسلام فى بلاد السند وغرب الصين وجنوب التركستان .

ولكنه كان متكبراً ، لا يرى أحداً فوقه من الناس إلا الخليفة . فكان جريئاً على الأشراف قولا وفعلا ، حتى كبار الصحابة ، وولى العهد سليمان ابن عبد الملك ، فجر على نفسه سخط الناس ، وجر على آله وقواده بعد موته وبالا ونكالا فى عهد سليمان بن عبد الملك .

موقفه من يزيد بن المهلب :

ومن الذين أساء الظن بهم فأساء إليهم يزيد بن المهلب ، فإنه بعد أن عزله كما تقدم حبسه هو وأخوته ، وأغرمهم ستة آلاف ألف وعذبهم ، وكان يزيد يصبر على عذابه صبراً جميلا ، فكان الحجاج يغيظه ذلك ، فقيل له : إن يزيد رمى بنشابة فثبت نصلها فى ساقه ، فلا يمسها شىء إلا صاح ، فإن حركت أدنى شىء سمعت صوته ، فأمر أن تغمز ساقه غمزاً شديداً . ففعل ذلك بيزيد ، فصاح . وكانت أخته هند بنت المهلب عند الحجاج ، فلما سمعت صياح أخيها ، صاحت وناحت ، فطلقها الحجاج .

ثم أعمل يزيد وأخوته الحيلة حتى هربوا من سجنه سنة ٩٠ ﻫ ، ولجئوا إلى سليمان بن عبد الملك ، فما زال سليمان بأخيه الوليد يضرع إليه ويستشفعه حتى قبلت شفاعته .

بينه وبين محمد بن الحنفية :

وقد خشى عبد الملك منه على محمد بن الحنفية ، وهو وال على الحجاز ، فكتب إليه ألا يعرض لمحمد ، ولا لأحد من أصحابه كما تقدم . فلم يتعرض الحجاج لأحد من الطالبيين فى أيامه .

بينه وبين ابن عمر :

ويروى ابن عبد ربه فى العقد الفريد ، ويؤيده ابن خلكان فى وفيات الأعيان أن الحجاج هو الذى قتل سيدنا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، لأن عبد الملك أمره ، وهو وال على الحجاز أن يقتدى به ، وأن يأخذ عنه المناسك ، فكره الحجاج ذلك ، وأمر رجلا فسَمَّ الحديدة التى فى أسفل الرمح — الزُّج — وزحم ابن عمر فى الطريق ، وأصابه بالحديدة بين أصبعين من قدمه ، ويروى ابن خلكان : « أن الحجاج خطب يوماً وأخر الصلاة . فقال ابن عمر : إن الشمس لا تنتظرك . فقال له الحجاج : لقد هممت أن

أضرب الذى فيه عيناك . : فقال له : إن تفعل فإنك سفيه » ، وقيل إنه كان يتقدمه فى المواقف بعرفة وغيرها ، إلى المواضع التى كان النبي صلى الله عليه وسلم وقف فيها ، وكان ذلك يعز على الحجاج ، فلما أصابه الرجل مرض فدخل عليه الحجاج يعوده فاتهمه ابن عمر بأنه هو الذى أمر الرجل أن يصيبه، فخرج الحجاج من عنده .

فإذا صح هذا كان دليلا على ما تقدم من تكبره ، وكراهته أن يتقدم عليه أحد وهو أمير البلاد ، ولو كان المتقدم ابن عمر ، وبأمر من الخليفة . وكان دليلا على إقدامه على الدم الطاهر البرىء .

بينه وبين أنس بن مالك رضى الله عنه :

أما أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان بالحجاز أيام ولاية الحجاج ، وقد أهانه وختم على يده هو وغيره من الصحابة استخفافا بهم كما كان يفعل بأهل الذمة ، ولما ولى العراق اشتد على الناس كما تقدم، فكثر الخروج عليه . وفى احدى المرات أرسل الى أنس بن مالك أن يخرج معه لحربهم — وكان مقيما بالعراق وقتئذ — فأبى أنس . فكتب اليه الحجاج يشتمه ويسب قومه الأنصار . فكتب أنس الى عبدالملك يشكوه . وأدرج كتاب الحجاج فى جوف كتابه . وأرى من حق القارىء أن أذكر الأمر تفصيلا .

قال اسماعيل بن أبى المهاجر « بعث إلى عبد الملك فى ساعة لم يكن يبعث الى فى مثلها ، فدخلت عليه وهو أشد ما كان غيظا وحنقا ، فقال « يااسماعيل ما أشد على أن تقول الرعية ضعف أمير المؤمنين وضاق ذرعه فى رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، لا يقبل له حسنة ، ولا يتجاوز له عن سيئة ، فقلت : وماذاك يأمير المؤمنين ، قال : « أنس بن مالك ، خادم رسول الله ، كتب الى يذكر أن الحجاج قد أضر به وأساء جواره . وقد كتبت فى ذلك كتابين : كتابا الى أنس بن مالك ، والآخر الى الحجاج ، فاقبضهما ثم اخرج

على البريد فاذا وردت العراق فابدأ بأنس بن مالك فادفع له كتابى وقل له : « اشتد على أمير المؤمنين ما كان من الحجاج اليك ، ولن يأتى اليك أمر تكرهه ان شاء الله . ثم ائت الحجاج فادفع اليه كتابه ، وقل له : « قد اغتررت بأمير المؤمنين غِرَّةً لا أظنه يخطئك شرها » . ثم افهم مايتكلم به ، ومايكون منه ، حتى تفهمنى اياه اذا قدمت على ان شاء الله .

قال اسماعيل « فقبضت الكتابين وخرجت على البريد حتى قدمت العراق فبدأت بأنس بن مالك فى منزله ، فدفعت اليه كتاب أمير المؤمنين ، وأبلغته رسالته ، فدعا له وجزاه خيرا ، فلما فرغ من قراءة الكتاب قلت له : « أبا حمزة » ان الحجاج عامل ، ولو وُضع لك فى جامعة[١] لقدر أن يضرك وينفعك . فأنا أريد أن تصالحه . قال ذلك اليك . لا أخرج عن رأيك . ثم أتيت الحجاج فلما رآنى رحب بى وقال « والله لقد كنت أحب أن أراك فى بلدى هذا ؟ قلت وأنا والله كنت أحب أن أراك ، وأقدم اليك بغير الذى أرسلت به اليك . قال وما ذاك ؟ قلت : فارقت الخليفة وهو أغضب الناس عليك . قال ولم ؟ قال فدفعت الكتاب اليه فجعل يقرؤه وجبينه يعرق ، فيمسحه بيمينه . ثم قال : اركب بنا الى أنس بن مالك . قلت له لا تفعل فانى سأتلطف به حتى يكون هو الذى يأتيك — وذلك للذى أشرت عليه من مصالحته — قال فألق الكتاب فاذا فيه »

بسم الله الرحمن الرحيم « من عبد الله عبد الملك بن مروان الى الحجاج ابن يوسف أما بعد فانك عبد طَمَتْ[٢] بك الأمور فطغيت ، وعلوت فيها حتى جُزْت قدرك ، وعدوت طورك[٣] . وايمُ الله ، يابن المُسْتَفْرِمَةِ بِعَجَمِ زَبِيبِ الطائف[٤] لأغمزنك كبعض غمزات الليوثِ الثعالبَ ،

(١) القيد . (٢) علت بك (٣) جاوزت حدك

(٤) العجم كسبب ، والعجام كغراب النوى من كل شىء والفرم كشمس والفرمة كوردة والفرام ككتاب دواء تضيق به المرأة فهى فرماء ومستفرمة والمعنى « يابن التى تضيق نفسها بنوى الزبيب . وهو سب وشتيمة فاحشة . »

ولأركضنك ركضة تدخل منهاف وجارك[١] . اذكر مكاسب آبائك بالطائف ، إذ كانوا ينقلون الحجارة على أكتافهم ، ويحفرون المناهل[٢] والآبار بأيديهم، فقد نسيت ما كنت عليه أنت وآباؤك من الدناءة واللؤم والضراعة .

وقد بلغ أمير المؤمنين استطالة منك على أنس بن مالك ، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جرأةً منك على أمير المؤمنين ، وغرةً[٣] بمعرفة غَيَرِه ونقماته ، وسَطَوَاته على من خالف سبيله ، وعمد إلى غير مَحَجَّته[٤] ونزل عند سخطته . وأظنك أردت أن تَرُوزه[٥] بها لتعلم ما عنده من التغيير والنكير فيها ، فإن سَوَّغتها[٦] مضيت قُدُماً[٧] وان غصصت بها وليت دُبراً ، فعليك لعنة الله من عبدٍ أخفش العينين[٨] أصكّ الرجلين[٩] ممسوح الجاعرتين[١٠] .

وأيم الله لو علم أمير المؤمنين أنك اجترمت منه جُرْماً ، أو انتهكت له عِرْضا فيما كتب به إلى أمير المؤمنين، لبعث إليك من يسحبك ظهراً لبطن ، حتى ينتهى بك إلى أنس بن مالك ، فيحكم فيك بما أحب ، ولن يخفى على أمير المؤمنين نبؤك ، « وَلِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » .

قال اسماعيل « فانطلقت إلى أنس بن مالك ، فلم أزل به حتى انطلق معى إلى الحجاج فلما دخلنا عليه قال : « يغفر الله لك أبا حمزة ، عجلت باللائمة ، وأغضبت علينا أمير المؤمنين » . ثم أخذ بيده فأجلسه معه على السرير .

فقال أنس « إنك تزعم أنا الأشرار ، والله سمانا الأنصار . وقلت : إنا من أبخل الناس ، والله يقول فينا « وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِم ولو كان بهمْ خَصَاصَةٌ » ، وزعمت أنا أهل نفاق والله تعالى يقول فينا « والذين

---

(١) الوجار : الجحر . (٢) المنهل : المشرب . (٣) الغرة : الغفلة .
(٤) المحجة وسط الطريق والمراد خالف طريقته.
(٥) رازه : جربه واختبره .
(٦) المراد : إن قبلها أمير المؤمنين وأقرك على فعلك . (٧) تماديت .
(٧) الاخفش : الضعيف البصر الضيق العينين .
(٩) أصك الرجلين : الذى تضرب احدى ركبتيه الأخرى عند الجرى .
(١٠) الجاعرتان : لحمتان حول أصل الذنب أو الفخذان والمراد ناحل الفخذين هزيل .

تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا » فكان المخرج والمشتكى فى ذلك إلى الله ، وإلى أمير المؤمنين ، فتولى من ذلك ما ولاه الله ، وعرف من حقنا ما جهلت ، وحفظ منا ما ضيعت ، وسيحكم فى ذلك رب هو أرضى للمرضى ، وأسخط للمسخط ، وأقدر على الغير فى يوم لا يشوب الحق عنده الباطل ولا النور الظلمة ولا الهدى الضلالة . والله لو أن اليهود والنصارى رأت من خدم موسى بن عمران أو عيسى بن مريم يوما واحداً ، لرأت له مالم تروا لى فى خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ،

قال : فاعتذر اليه الحجاج وترضاه ، حتى قبل عذره ورضى عنه ، وكتب برضاه إلى عبدالملك . ولم يزل الحجاج له معظماً هائباً حتى هلك رضى الله عنه .

وهذا سوء أدب من الحجاج ، وتطاول على رجل من أهل الفضل والشرف ، وحدة لسان على خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى شيخوخته . وكيف يطلب منه أن يساعده فى السن العالية ، وهو لا يريد إلا أن يستريح ، ويبتعد عن فتن ربما كان رأيه فيها لا يرضى الحجاج ؟ وما هذا القذف لقوم آووا ونصروا ؟ أليسوا هم الذين يقول الله — سبحانه — فيهم « والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم » ألم يكن الحجاج يعرف هذا ويحفظه ؟ لعل سكوت عبد الملك عنه هو الذى مد له فى سفاهته ، ولورده إلى حدود الأدب لوقف عندها .

وقد ألزمه عبد الملك هذه الحدود فى بعض الحالات ، وكان أولى به أن يأمره أمراً عاما ، فيأمن أولئك الكرام بطشه ، كما أمن محمد بن الحنفية . ولكن للخلافة والملك والخوف من ضياع السلطان ، أحكاما على النفوس قد تنسيها فضل ذوى الفضل ، وتبيح لها دماء الأعداء ، وأعراضهم وأموالهم ، وقد اجترأ بنو أمية من عهد معاوية على سيدنا على ، فجعلوا سبه على المنابر جزءاً واجباً فى الخطبة ، واجترءوا على دم الحسين سيد شباب أهل الجنة ،

وعلى دم ابن الزبير ، حبر هذه الأمة ، واجترءوا على البيت الحرام فرموه ، وعلى أعراض أهل المدينة — وأكرم بها من أعراض — فاستباحوها ، وكافأوا من ارتكبوا هذه العظائم ، فلا عجب أن يقف عبد الملك هذه المواقف اللينة من الحجاج .

حدة لسانه :

كان الحجاج حديد اللسان ، فما أكثر ما سب الناس أفراداً وجماعات ولم يسلم من لسانه خير قادة الجيوش ، من أمثال المهلب وابن الأشعث ، ويزيد بن المهلب ؛ فعرض نفسه لسخطهم وسبهم ، وعرض سلطانه وسلطان عبد الملك للخطر ، بسبب خروج هؤلاء عليه ؛ وعرض نفسه لسخط الخليفة واستنكاره .

ولم تكن شدته وحدة لسانه على الخارجين ، أو على عامة الناس أو الخاصة من البعيدين عن بيت الخلافة فقط ، بل كان يتناول أخا الخليفة وذوى قرابته .

روى صاحب العقد الفريد فى أخباره أنه لما قدم عبد الملك بن مروان المدينة نزل بدار مروان ، فمر الحجاج بخالد بن يزيد بن معاوية ، وهو جالس فى المسجد ، وعلى الحجاج سيف محلى ، وهو يخطر متبخترا فى المسجد ، فقال رجل لخالد : ما هذه التختارة ، فقال : بخ بخ ، هذا عمرو بن العاص . فسمعه الحجاج ، فمال إليه فقال : قلت : هذا عمرو بن العاص ؟ والله ما سرنى أن العاص ولدنى ولا ولدته ، ولكن إن شئت أخبرتك من أنا ، أنا ابن الأشياخ من ثقيف ، والعقائل من قريش ، والذى ضرب مائة بسيفه كلهم يشهدون على أبيك بالكفر وشرب الخمر ، حتى أقروا أنه ولى .

بينه وبين ولى العهد :

كان الحجاج يهمل شأن سليمان وهو ولى عهد أخيه الوليد ، وقد روى صاحب العقد الفريد فى أخباره كذلك ، أن سليمان كان يكتب إليه فى أيام الوليد كتبا فلا ينظر له فيها فكتب إليه .

« بسم الله الرحمن الرحيم . من سليمان بن عبد الملك، إلى الحجاج بن يوسف : سلام على أهل الطاعة من عباد الله . أما بعد ، فإنك امرؤ مهتوك عنه حجاب الحق . مولع بما عليك لا لك، منصرف عن منافعك، تارك لحظك مستخف بحق الله وحق أوليائه، لا ماسلف لك من خير يعطفك، ولا ما عليك — لا لك — تصرفه فى مهمة أمرك . معموه[١] ، محصوصر[٢] عن الحق اعصيصاراً . لا تسكت عن قبيح ، ولا ترعوى عن إساءة ، ولا ترجو لله وقاراً[٣] ، حتى دعيت لحاشا سباباً ؛ فقس شبرك بفترك[٤] واخرز زمام نعل بحذو مثله قائم[٥] . وأيم الله لئن أمكننى الله منك لأدوسنك دوسة تلين منها فرائصك[٦] ، ولأجعلنك شريداً فى الجبال ، تلوذ بأطراف الشمال ، ولأعلقن الرومية الحمراء بثديها[٧] ، علم الله ذلك منى ، وقضى لى به على ، فقِدماً غرّتك العافية ، وانتحيت أعراض الرجال . فانك قدرت فبذخت[٨] ، وظفرت فتعديت ، فرويدك حتى تنظر كيف يكون مصيرك ، إن كانت بى وبك مدة أتعلق بها ، وإن تكن الأخرى فأرجو أن تئول إلى مذلة ذليلة، وخزية طويلة ، ويجعل مصيرك فى الآخرة شر مصير والسلام » .

رد الحجاج :

فكتب اليه الحجاج « بسم الله الرحمن الرحيم من الحجاج بن يوسف، الى سليمان بن عبد الملك: أما بعد، فانك كتبت الى تذكر أنى امرؤ مهتوك عنى حجاب الحق ، مولع بما على لا لى ، منصرف عن منافعى، تارك لحظى، مستخف

---

(١) عمه كفرح : تردد فى الضلالة وتحير .

(٢) ممنوع محبوس .

(٣) لا تعتقد له عظمة فتخاف عصيانه ، أو لا تأمل أن يعظمك لانك لا تعظم أولياءه .

(٤) اعرف نفسك وقف عند حدك . (٥) اقطعه على مثاله .

(٦) أوداج العنق .

(٧) المقصود بها زينب أخت الحجاج كما صرح هو بذلك فى رده .

(٨) بذخ كفرح : تكبر وعلا .

بحق الله وحق ولى الحق. وتذكر أنى ذو مصاولة . ولعمرى انك لصبى حديث السن ، تعذر بقلة عقلك ، وحداثة سنك ، ويرقب فيك غيرك .

فأما كتابك الى فلعمرى لقد ضعف فيه عقلك، واستخف به حلمك، فلله أبوك! أفلا انتصرت بقضاء الله دون قضائك ، ورجاء الله دون رجائك ، وأمت غيظك ، وأمنت عدوك ، وسترت عنه تدبيرك. ولم تنبه فيلتمس من مكايدتك ماتلتمس من مكايدته ؟ ولكنك لم تشف[1] بالأمور علما، ولم ترزق من أمرك عزما ، جمعت أمورا دلاك فيها الشيطان على أسوأ أمرك ، فكان الجفاء من خليقتك، والحمق من طبيعتك، وأقبل بك الشيطان وأدبر، وحدثك أنك لن تكون كاملا حتى تتعاطى مايعيبك، فتحذلقت[2] حنجرتك لقوله، واتسع جوانبها لكذبه.

وأما قولك لو ملكك الله لعلقت زينب ابنة يوسف بثدييها ، فأرجو أن يكرمها الله بهوانك، وألا يوفق ذلك لك ان كان ذلك من رأيك ، مع أنى أعرف أنك كتبت الىّ والشيطان بين كتفيك ،فشر مملى على شر كاتب راض بالخسف ، فأحر بالحمق ألا يدلك على هدى ، ولا يردك الا الى ردى . وتحلب فوك[3] للخلافة ، فأنت شامخ البصر ، طامح النظر[4] تظن أنك حين تملكها لاتنقطع عنك مدتها، إنها لملقطة الله[5] ، أسأل الله أن يلهمك فيها الشكر . مع أنى أرجو أن ترغب فيما رغب فيه أبوك وأخوك ، فأكون لك مثلى لهما. وان نفخ الشيطان فى منخريك ، فهو أمر أراد الله نزعه عنك ،واخراجه الى من هو أكمل به منك . ولعمرى انها النصيحة ،فان تقبلها فمثلها قبل،وان تردها على اقتطعتها دونك، وأنا الحجاج »

لا يعنينا من خطاب سليمان الا دلالته على بعض صفات الحجاج، كالكبر حتى على ولى العهد ،فهو يعرض عن رسائله ويهملها ، ولعلها كانت رجاء

---

(١) قليل العلم بالامور .
(٢) أطاعت قوله فنطقت به.
(٣) جرى ريقك حتى سال .
(٤) متطلع اليها .
(٥) المراد أنها لله يعطيها من يشاء .

أو شفاعة أوشبه ذلك ، والحجاج لا يميل الى المحاباة التى لا يؤيدها الحق .
انه قد أهمل كتب ولى العهد وانه لجرىء ، فبم وصفه سليمان بعد الشتم الذى
رآه له مستحقا؟ وصفه بالكبر والجرأة على الاساءة الى الناس ، وأن الناس
سموه فاحشا سبابا. وقد تقدم ماقاله فى الأنصار رضوان الله عليهم، فيما حكاه
أنس بن مالك من كتابه اليه .

وأما رد الحجاج فهو اليم شديد ، لايرجو معه الابقاء على شىء من عطف
سليمان ومودته، بل لقد أراد أن يغرى به أخاه اذ قال « وتحلب فوك للخلافة »
والحجاج لاينسى نفسه، اذ يذكر فضله فى دولة عبد الملك وابنه الوليد حين
يقول « فأكون لك مثلى لهما » ثم يهدده بأنه الا يرغب فيما رغبا فيه عمل على
حرمانه الخلافة

محاولة الحجاج أن يعزله من ولاية العهد

لعل هذا كان السبب المباشر فى محاولة الحجاج عند الوليد أن يخلع
سليمان من ولاية العهد، ويولى ابنه عبدالعزيز. ولعل السبب الحقيق أن الحجاج
كان يريد أن تكون له يد عند الخليفة التالى، يحفظها له مادام حيا ، وقد فعل
ذلك من قبل ، فجعل عبد الملك يحاول خلع أخيه عبد العزيز ، ويجعل الوليد
وليا للعهد مكانه. ومن حسن الحظ أن عبد العزيز مات قبل عبد الملك، فانتقلت
ولاية العهد الى الوليد، وقد عرف الوليد له هذا الفضل، فظل أثيرا عنده طول
حياته . وهو اذ يفعل ذلك يلمس وترا حساسا فى قلب الخليفة القائم ؛ فليس
أعز على الانسان من ولده، ولا يحب الخير لأحد كما يحب له ؟ وأى خير بعد
الخلافة؟ ولا يستطيع أن يحمل الخليفة على ذلك حملا ولكنه يزين له ، وما أسرع
مايصغى الخليفة ، ويحاول التنفيذ لو ساعدته الظروف .

وقد كانت بينه وبين سليمان عداوة، وكان لسليمان أولياء ممن يكرههم
الحجاج ويكرهونه .ومن أكبر هؤلاء يزيد بن المهلب وأهله ،وهم الذين شفع
فيهم سليمان عند أخيه الوليد ،وقد لجئوا اليه بعد فرارهم من سجن الحجاج .

وكانت صلة الحجاج ببيت الوليد قوية، فقد كانت ابنته الوحيدة متزوجة من مروان بن الوليد. ولقائل أن يقول « ولم لم يدع الوليدَ الى مبايعة مروان هذا »؟ والجواب أنه كان أصغر من أخيه عبدالعزيز، والخليفة نفسه لا يرضى أن يبايع للأصغر دون الأكبر .

نقد هذه السياسة :

إذا كانت هذه السياسة نافعة للحجاج فانها اثم وخطيئة ، فان فيها نقضا لبيعة بلا مبرر، واذا اجترأ الخلفاء على نقض العهود شجعوا رعيتهم على الغدر، وقد لا يتم لهم ما يريدون ،فيحل العذاب الشديد والانتقام بمن أعانوهم على ذلك ، ولهذا أمثلة متعددة فى الدولة الأموية والعباسية .

شدة عبد الملك عليه أحياناً :

ولى الحجاج لعبد الملك وابنه الوليد قريبا من ربع قرن فى الحجاز والعراق، وكان مخلصا لهما أشد الاخلاص، يرى طاعتهما فرضا ،والفناء فى سبيل ملكهما شرفا ودينا ، وقد أسرف فى ذلك حتى ارتكب شططا، وأرهق الناس فى مدة ولايته، وحملهم على الطاعة حملا ، وأدب الخارجين على الخلافة بالسيف والسجن ، حتى كثرت القتلى وامتلأت السجون .

ولكن عبد الملك كان له ضمير يستيقظ أحيانا فيرى أنه مسئول عن ظلم الحجاج وتماديه، ويذكر الله وحسابه فتثور نفسه عليه ، ويكتب اليه ساخطا معذرا. ولكنه لا يلبث أن يغفر له ويقدر اخلاصه لدولته ،وبخاصة اذا كتب اليه الحجاج معتذرا خاشعا .

روى ابن عبد ربه فى العقد الفريد عن أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ قال : « كان عبد الملك بن مروان سنان قريش وسيفها، رأيا وحزما ، وعابدها قبل أن يستخلف ورعا وزهدا ، فجلس يوما فى خاصته ، فقبض لحيته فشمها مليا ، ثم اجترَّ نَفَسَه ، ونفخ نفخة أطالها فقال : ماذا أقول يوم ذى المسألة

عن أمر الحجاج ، وأدحض المحتج على العليم [١] بما طوته الحجب ؟ أما إن تمليكى له قرن بى لوعة يحثها التذكار ! كيف وقد علمت فتعاميت ، وسمعت فتصاممت ، وحمله الكرام الكاتبون ! والله لكأنى آلف ذا الطعن على نفسى ، بعد أن نعت الأيام بتصرفها أنفساً حق لها الوعيد بتصرم الزوال ، وما أبقت الشبهة للباقى متعلقا ، وما هو إلا الغل الكامن ، والغش المندمل من ذى النفس بحوبها [٢] . اللهم أنت لى أوسع ، غير منتصر ولا معتذر »

رسالة عبد الملك :

يا كاتب هات الدواة والقرطاس . فقعد كاتبه بين يديه ، وأملى عليه :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عبد الملك بن مروان ، إلى الحجاج بن يوسف ، أما بعد ، فقد أصبحت بأمرك برماً [٣] يقعدنى الاشفاق ، ويقيمنى الرجاء ، عجزت فى دار السعة ، وتوسط الملك ، وحين المهل ، واجتماع الفكر . ألتمس العذر فى أمرك ، فأنا — لعمر الله — فى دار الجزاء ، وعدم السلطان ، واشتغال النفس ، والركون إلى الذلة من نفسى ، والتوقع لما طويت عليه الصحف أعجز . وقد كنت أشركتك فيما طوقنى الله حمله ، ولاث بحقوى [٤] من أمانة الله فى هذا الخلق المرعى ، فدللت منك على الحزم والجد فى إماتة بدعة ، وإنعاش سنة ، فقعدت عن تلك ، ونهضت بما عاندها [٥] حتى صرت حجة الغائب ، وعذر اللاعن والشاهد القائم .

فلعن الله أبا عقيل [٦] وما نجل ! فالأم والد ، وأخبث نسل ، فلعمرى ما ظلمكم الزمان ، ولا قعدت بكم المراتب . لقد ألبستكم ملبسكم ،

---

(١) أدحض المحتج على العليم : أبطلت حجته على الله العليم .

(٢) الحوب روع القلب أى سواده ، والحوباء النفس .

(٣) البرم الضجر والقلق .

(٤) الحقو بالفتح والكسر الكشح ، معقد الازار . ولاث . عقد ولف . ولاث الشىء أداره مرتين كما تطوى العمامة والازار .

(٥) عاندها . خالفها .　　　(٦) أبو عقيل ، جد الحجاج لأبيه .

واقعدَتْكم على روابى خِططكم (١) وأحلتكم على منعتكم ، فمن حافر وناقل وماتح (٢) للفلوات القفرة المتفيهقة (٣) . ما تقدم فيكم الاسلام ، ولقد تأخرتم — وما الطائف منا ببعيد يجهل أهله — ثم قمت بنفسك ، وطمحتَ بهمتك ، وسرك انتضاء سيفك ، فاستخرجك أمير المؤمنين من أعوان روح ابن زنباع وشُرَطه ، وأنت على معاونته يومئذ محسود ، فهفا أمير المؤمنين — والله يصلح بالتوبة والغفران زلته — وكان ما لو لم يكن لكان خيراً مما كان . كل ذلك من تجاسرك ، وتحاملك على المخالفة لرأى أمير المؤمنين ، فصدعتَ صفاتَنا (٤) ، وهتكت حجبنا ، وبسطت يديك تحفن بهما من كرائم ذوى الحقوق اللازمة ، والأرحام الواشجة (٥) فى أوعية ثقيف ، فأستغفرُ الله لذنب ما له عذر . فلئن استقال (٦) أمير المؤمنين فيك الرأى ،

لقد جالت البصيرة فى ثقيف بصالح النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ ائتمنه على الصدقات وكان عبده — فهرب بها عنه (٧) ، وما هو إلا اختيار للثقة ، والمَطلبُ لمواضع الكفاية ، فقعد فيه الرجاء كما قعد بأمير المؤمنين فيما نصبك له ، فكأن هذا ألبس أمير المؤمنين ثوب العزاء ، ونهض بعذره إلى استنشاق

---

(١) الخطة بالكسر ، الأرض التى تنزلها ، ولم ينزلها قبلك نازل .

(٢) متح الماء من البئر أخرجه بدلوه بشدة .

(٣) المتسعة .

(٤) الصفاة وجمعها صفا : الحجر الصلد الضخم .

(٥) كرائم المال : أحسنه ، والواشجة : المشتبكة المتصلة .

(٦) استقال أمير المؤمنين فيك الرأى . أى طلب من رأيه أن يقيك من أخذك بذنوبك ، أى التمس لك العذر وأحسن الظن .

(٧) ثقيف الجد الأعلى للحجاج ، وتنسب إليه قبيلته ، وقالوا إن صالحا صلى الله عليه وسلم بعثه إلى عامل له على الصدقات كى يحملها إليه فهرب بها ، وقد ورد ذلك فى خطبة لسيدنا على رضى الله عنه ، وكان الحجاج يرد على من يقول إنه من بقايا ثمود — بقوله تعالى وثمود فما أبقى . وقال مرة أخرى . لئن كنا من بقايا ثمود لما نجا إلا خيارهم .

وروى أن ثقيفا من هوازن وهو أرجح الأقوال ، وقيل إنهم من إياد : كما أشار إلى ذلك مالك ابن الريب وهو يهجو الحجاج.

نسيم الرَّوْح ، (١) فاعتزل عمل أمير المؤمنين ، واظعن (٢) عنه بالّلعنة اللازمة ، والعقوبة الناهكة (٣) إن شاء الله ، إذ استحكم لأمير المؤمنين ما يحاول من رأيه ، والسلام ».

هـذا كتاب عبد الملك إليه ، وقد صحا ضميره ، ورق قلبه لمن تحت يد الحجاج . وخاف مسألة الله له عن أمره يوم القيامة ، فهل كان جادا فيما أراد من عزله وإراحة الناس منه ؟ لم يكن الخليفة يقصد شيئا من هذا ، ولعله كان يريد تهديد الحجاج فقط ، ودليلنا على ذلك انه أمر الرسول الذى حمل الكتاب (وهو مولى لعبد الملك اسمه نُبَاتة) أن ينظر إلى الحجاج فى أثناء قراءته ، وأمره أن يعزله ويرجع به إلى دمشق إذا اضطرب وتغير ، وأن يبقيه إذا ثبت وتحمل العزل بشجاعة .

وقد اضطرب الحجاج كما يقول هذا الرسول ، « ففك الكتاب فقرأه ، وجعل يتثاءب ، ويردد تثاؤبه ، ويسيل العرق على جبينه وصدغيه ، على شدة البرد ، من تحت قلنسوته . وجعل يشخص إلى ببصره ساعة كالمتوهم إلا أنه واجم ؛ ثم يعود إلى قراءة الكتاب ، وإنى لأقول : ما أراه يثبت حروفه من شدة اضطراب يده ، حتى استقصى قراءته . ثم مالت يده حتى وقع الكتاب على الفراش ، ورجع إليه ذهنه ، فمسح العرق عن جبينه ، ثم قال متمثلا :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة (٤) لا تنفع

ثم قال : قبح والله منا الحَسَنُ يانبَاتة ! وتواكلتنا عند أمير المؤمنين الألسن ، وما هـذا إلا سانح فكرة نمقها مُرْصِدٌ يَكلَبُ بقصتنا ، مع حسن رأى أمير المؤمنين فينا . ثم نادى : ياغلام ، فتبادر الغلمان الصيحة فملىء علينا المجلس حتى دفأتنى منهم الأنفاس ، فقال : الدواة

---

(١) الراحة . (٢) ارحل . (٣) الشديدة البالغة .

(٤) التميمة : الحجاب ، يعلق على الصبيان لتمنع عنهم الأذى والبلاء . وقائل هذا البيت هو أبو ذؤيب الهزلى فى رثاء أولاده .

والقرطاس ، فأتى بدواة وقرطاس ، فكتب بيده ، وما رفع القلم إلا مستمدا حتى سطر مثل خد الفرس » . فلما فرغ قال لى : يانباتة ، هل علمت ما جئت به فنسمعك ما كتبنا ؟ قلت لا . قال : إذن حسبك منا مثله . ثم ناولنى الجواب . وأمر لى بجائزة فأجزل ، وجرد لى كساء ، ودعا لى بطعام فأكلت . ثم قال : تَـكِلُكَ إلى ما أمرت به من عجلة أو توان ، وإنى لأحب مقارنتك ، والأنس برؤيتك ، فقلت : كان معى قفل مفتاحه عندك [١] ومفتاح قفلك عندى [٢] . فأحدثت لك الوافية بالأمرين ، فأقفلت المكروه ، وفتحت العافية وماساءنى ذلك ، وما أحب أن أزيدك بيانا ، وحسبك منى استعجال القيام . ثم نهضت ، وقام مودعا لى ، فالتزمنى وقال : بأبى أنت وأمى : رب لفظة مسموعة ، ومحتقَر نافع . فكن كما أظن .

فخرجت مستقبلا وجهى . حتى وردت أمير المؤمنين ، فوجدته منصرفا من صلاة العصر . فلما رآنى قال : ما احتواك المضجع يا نباته ! [٣] فقلت : من خاف من وَجْهِ الصباح أدلج [٤] ، فسلمت وانتبذت عنه ، فتركنى حتى سكن جاشى . ثم قال : مهيم [٥] ؟ فدفعت إليه الكتاب . فقرأه متبسما ، فلما مضى فيه ضحك حتى بدت له سن سوداء ، ثم استقصاه ، فانصرف إلى فقال : كيف رأيت إشفاقه ؟ قال : فقصصت عليه ما رأيت منه ، فقال : صلوات الله على الصادق الأمين : « إن من البيان لسحرا » . ثم قذف الكتاب إلى فقال اقرأ . فقرأته ، فإذا فيه :

---

(١) يقصد الرسالة التى أرسله بها عبد الملك .

(٢) يقصد ، ومفتاح أخبارك عندى وقد عزمت أن أقول للخليفة من هذه الأخبار ما ينفعك .

(٣) لم تمكث طويلا .

(٤) سار فى آخر الليل .

(٥) أى ما الأمر والخبر ؟

رد الحجاج :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله أمير المؤمنين ، وخليفة رب العاملين المؤيد بالولاية ، المعصوم من خَطَل[١] القول ، وزلل الفعل ، بكفالة الله الواجبة لذوى أمره ، من عبد اكتنفته الذلة ، ومد به الصغار إلى وخيم المرتع ، ووبيل المكرع[٢] ، من جائل قادح[٣] ، ومُعْتَزّ فادح[٤] . والسلام عليك ورحمة الله التى اتسعت فوسعت ، وكان بها التقوى إلى أهلها قائداً . فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله هو ، راجيا لعطفك بعطفه . أما بعد : كان الله لك بالدعة[٥] فى دار الزوال ، والأمن فى دار الزلزال ، فإنه من عَنَتْ به[٦] فكرتك يا أمير المؤمنين مخصوصا ، فما هو إلا سعيد يؤثر ، أو شقى يوتر[٧] وقد حجبنى عن نواظر السعد ، لسان مرْصد ، ونافسٌ حَقد[٨] انتهز[٩] به الشيطان حين الفكرة ، ففتح به أبواب الوسواس ، بما تحتويه الصدور ، فواغوثاه باستعاذة أمير المؤمنين من رجيم « إنما سلطانه على الذين يَتَوَلَّوْنَه » واعتصاماً بالتوكل على من خصه بما أجزل له من قسم[١٠] الايمان ، وصادق السنة ، فقد أراد اللعين أن يفتق لأوليائه فتقا نبا عنه كيده ، وكثر عليه تحسره ، بلية قرع بها فكر أمير المؤمنين مُلَبِّساً[١١] وكادحاً ومُؤَرِّشاً ، ليفل من غَرْبه[١٢] الذى نصبنى ، ويصيب ثأراً لم يزل به

---

(١) القول الفاسد المضطرب ، خطل كفرح .

(٢) المشرب بالفم كما تفعل البهائم والمقصود ، سوء العاقبة .

(٣) ساع بالشر .

(٤) معتز بجاهه عند أمير المؤمنين ، وفادح أى مثقل يفدحنى ويثقلنى بما يفتريه من الأباطيل .

(٥) الدعة الخفض والسعة فى العيش . دار الزوال الدنيا ، ودار الزلزال الآخرة .

(٦) عنت : عرضت . أى من تعلقت به فكرتك .

(٧) يؤثر : يظفر ويسعد ، ويوتر : يفزع ويدركه مكروه .

(٨) مرصد . أى متتبع لهفواتى واقف لى بالمرصاد . نافس : أى كاره لايرانى أهلا للمنصب الذى أنا فيه .

(٩) اختل به .　　　(١٠) القسم العطاء .

(١١) مدلسا .

(١٢) الكادح : الجاد الساعى . والمؤرش : الذى يفسد بين الناس ويحمل بعضهم على بعض . الغرب : الحد .

مؤتزاً [١] وأذكره مامت به الأوائل قديماً حتى لحقت بمثله منهم، مما كنت أبلوه من خمسة أقدار، ومزاولة أعمال، إلى أن وصلت إلى ذلك بالتشرط [٢] لروح بن زنباع، وقد علم أمير المؤمنين — بفضل ما اختار الله له تبارك وتعالى من العلم المأثور الماضى — بأن الذى عير به القومَ مصانعهم [٣] من أشد ما كان يزاوله أهل القُدْمَة [٤] الذين اجتبى الله منهم، وقد اعتصموا وامتعضوا [٥] بذكر ما كان، وارتفعوا بما يكون، وما جهل أمير المؤمنين — وللبيان موقعه، غيرَ محتج ولا متحدٍ [٦] — أن متابعة روح ابن زنباع طريق إلى الوسيلة لمن أراد من فوقه، وأن روحاً لم يلبسنى العزم الذى به رفعنى أمير المؤمنين على خَوَله [٧] وقد ألصقتنى بروح بن زنباع همة لم تزل نواظرها ترمى بى البعيد، وتطالع الأعلام، وقد أخذت من أمير المؤمنين نصيباً اقتسمه الإشفاق من سخطه، والمواظبة على موافقته فما بقى لنا إلا صُبَابة [٨] وإرث تجول به النفس، وتطرف النواظر.

ولقد سرت بعين أمير المؤمنين سير المُثَبِّط لمن يتلوه، المتطاول لمن يقدمه، غير مُبِتّ [٩] ولا مُوجِف، ولا متثاقل ولا مجحف، فَفُتُّ الطالب، ولحقت الهارب، حتى ثارت السنة، وبادت البدعة، وخسِىءَ الشيطان، وحملت الأديان إلى الجادة العظمى والطريقة المثلى، فهأنذا يا أمير المؤمنين نُصْبُ المسألة لمن رامنى، وقد عقدت الحُبْوة، وقرنت الوظيفين [١٠] لقائل محتج، أو لائم ملتج، وأمير المؤمنين ولى المظلوم،

---

(١) المؤتز : الشديد الغليان .

(٢) التشرط : القيام بالعمل فى شرطه وكان الحجاج رئيساً لشرطة روح .

(٣) المصانع جمع مصنعة ، ما يصنعه الناس من الآبار والأبنية . وقد عيره عبد الملك بذلك فى كتابه .

(٤) القدمة . السابقة والأثر الحسن .

(٥) شق عليهم وغضبوا .

(٦) مجاوز لحدود الأدب الواجبة فى مخاطبة الخليفة .

(٧) خدمه .

(٨) بقية يسيرة من الماء . الارث : البقية من كل شىء

(٩) الذى يجهد ركوبته فى السير . موجف . مسرع . مجحف . مخل .

(١٠) المقصود: استلت.

ومعقل الخائف ، وستظهر له المحنة نبأ ، أمرى ولكل نبأ مستقر .

وما حَفَنْتُ يا أمير المؤمنين فى أوعية ثقيف حتى رَوِى الظمآن ، وبطن الغرثان ، وغصت الأوعية ، وانقدت الأوكية فى آل مروان ، فأخذت ثقيف فضلا صار لها ، لولاهم لقطته السائلة . ولقد كان ما أنكره أمير المؤمنين من تحاملى . وكان مالو لم يكن تعاظمَ الخطب فوق ما كان .

وإن أمير المؤمنين لرابع أربعة : أحدهم ابنة شعيب النبى ، صلى الله عليه وسلم ، إذ رمت بالظن غرض اليقين ، تفرساً فى النجىّ المصطفى بالرسالة . فحق لها فيه الرجاء ، وزالت شبهة الشك بالاختبار ، وقبلها العزيز فى يوسف ، ثم الصديق فى الفاروق رحمة الله عليهما ، وأمير المؤمنين فى الحجاج .

وما حسد الشيطان يا أمير المؤمنين خاملا ، ولا شرف بغير سجافكم ، غبطةً يا أمير المؤمنين الرجيم أدبر منها ، وله غواة ومرساة ، وقد قلَّت حيلته ، ووهَن كيده يوم كيت وكيت ، ولا أظن أذكر لها من أمير المؤمنين . ولقد سمعت لأمير المؤمنين فى صالح صلوات الله عليه ، وفى ثقيف مقالا ، هجم بى الرجاء لعدله عليه ، بالحجة فى رده بمحكم التنزيل ، على لسان ابن عمه خاتم النبيين والمرسلين ، صلى الله عليه وسلم ، فقد أخبر عن الله عز وجل ، حكاية عن الملأ من قريش عند الاختيار والافتخار ، وقد نفخ الشيطان فى مناخرهم ، فلم يَدَعوا خلف ما قصدوا إليه مُوَاسى . « وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ من الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » فوقع اختيارهم عند المباهاة بنفخة الكبر ، وكبر الجاهلية — على الوليد بن المغيرة المخزومى ، وأبى مسعود الثقفى ، فصارا فى الافتخار بهما صنْوَين ، ما أنكر اجتماعهما من الأمة منكر فى مَدّ صوت القرآن ، ومبلَغ الوحى ، وإن كان ليقال للوليد فى الأمة يومئذ ريحانة قريش ، وما رد ذلك العزيز تعالى إلا بالرحمة الشاملة فى القسم السابق . فقال عز وجل ، « أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ؟ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فى الحياةِ الدُّنيا » ، وما قدَّمَتْنى

يا أمير المؤمنين ثقيف فى الاحتجاج لها . وإن لها مقالا رحباً ، ومعاندة قديمة ، إلا إن هذا من أيسر مايحتج به العبد المشفق ، على سيده المغضَب ، والأمر إلى أمير المؤمنين عَزَل أم أقرّ ، وكلاهما عدل متبع ، وصواب معتدل ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله » .

تعليق :

هذه رسالة فى الاعتذار أو التنصل من اتهام ، أو البراءة من عيوب ، ولكنها لم تقتصر على ذلك . بل شملت الغمز الضمنى والصريح ؛ والفخرَ بالقبيلة ، وبالهمة العالية ، مع حسن التلطف . وجودة التنصل ، وقوة الحجة .

فهو يقدّم بين يدى الاعتذار طاعة وولاء لا مزيد عليهما ، ويظهر أمام خليفته ذلة وخضوعا ليس بعدهما ، فهو يكتب إليه « من عبد اكتنفته الذلة ، ومد به الصغار إلى وبيل المرتع ووخيم المكرع » ويعظم من سلطان عبد الملك فيجعله لايفكر فى أحد مخصوصاً إلا أشقاه أو أسعده .

ولا يرى سبباً لسخطه إلا وشاية هماز شاء بنميم ، حسده على قربه من الخليفة ، ونفس عليه تقدمه فى المنزلة ، بل يجعل ذلك الحاسد شيطانا رجيما .

أدبه مع عبد الملك :

ثم يرد على عبد الملك رد التابع المؤدب ، ولكنه قوى اللسان ، حسن التخلص . فإذا عيره عبد الملك بعمل آبائه قديما ، قال له ، إن ذلك « من أشد ما كان يزاوله أهل القدمة الذين اجتبى الله منهم » .

ويفخر بنفسه ، وأنه كان عالى الهمة ، فلم يخدم روحا إلا ليصل إلى الخليفة ، وأن روحا لم يرفعه من خمول ، وإنما ألصقته « بروح همة لم تزل نواظرها ترمى بى البعيد » ، وأن روحا لم يلبسه العزم الذى رفعه به أمير المؤمنين ، وأنه أعيا من يريد اللحاق به ، برعاية أمير المؤمنين ، حتى أقر الأمور ، وأحيا السنة ، وأمات البدعة .

ثم يرد التهمة التى رماه بها الخليفة من جهة المال ، فيقول إنه لم يأخذ له ولأهله إلا بما فضل عن آل مروان ، ولو لم يأخذه للقطته السائلة .

أما أقوى بيانه ، واوضح برهانه ، فهو فى جعل أمير المؤمنين رابع أربعة فى صدق الفراسة ، وحسن الاختيار ، ابنة شعيب ، إذ قالت لأبيها عن سيدنا موسى يا أبت «استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين» والعزيز إذ قال لامرأته عن يوسف بعد ما اشتراه : « أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » ، وأبو بكر الصديق إذ عهد إلى عمر بن الخطاب ، وقال : « فإن بر وعدل ، فذلك علمى به ورأيى فيه » ، وقد صدقت الأيام فراسة هؤلاء الثلاثة ، ودلت على حسن اختيارهم ، أما الرابع فهو عبد الملك فى اختيار الحجاج ، فانظر كيف جعل خليفته كهؤلاء الكرام ، وكيف مدح نفسه إذ صدق الظن فيه .

وأما رده لتحقير الخليفة من شأن ثقيف ، فهو رد قوى ، وأى رد أقوى من شهادة القرآن ؟

هذا وجه من أوجه القوة فى كتابة الحجاج ، يظهر فى تفنيد حجج خصمه ، والرد على اتهامه ، والدفاع عن نفسه ، ببيان واضح ، وحجة دامغة ، وقد سبق مثل ذلك فى رده على سليمان بن عبد الملك .

ويضيف إلى ذلك غاية الأدب فى خطاب الخليفة : يعرف له منزلته ، ويقدره حق قدره ، ويدعوله بما يناسب الموضوع : ويسلم عليه ، ويرجوله رحمة الله التى اتسعت فوسعت ، أليس هذا استرحاما للخليفة كذلك ؟

واحتراسه فى التعبير إذ يقول : وللبيان موقعة غيرَ محتج ولا متَعَدّ يعنى أن الإبانة لا بد منها ، وإن كان فى هذا لا يحتج على أمير المؤمنين ، ولا يتعدى ما يجب عليه له من التعظيم والتوقير ،

وإذا كان قد تقدم سريعا فى المناصب حتى أعيا من وراءه ، أو سار كما يقول هو ، سير المثبط لمن يتلوه ، فذلك بعين أمير المؤمنين .

أما الكتاب فمتدفق ، وأما الأسلوب فأسلوب خطابى مفخم ، ويزيده إفخاما الاحتجاج بالقرآن والاستشهاد بالتاريخ ، والتلميح المؤدب بالفضل الذى للحجاج على دولة عبد الملك وسلطانه .

وقد جاء فيه بالفقرات المسجوعة القصيرة ، والجمل المتوازنة فزادته قوة لفظية ، بجانب قوته المعنوية ، وإذا كان فيه بعض الألفاظ الغريبة بالنسبة لنا فليس ذلك بحجة عليه ؛ فهو لم يكتب لنا ، وإنما كتب لعبد الملك الراوية الأديب الفقيه اللبق الناقد ، وإذا كان يظفر من عبد الملك بالتقدير العظيم ويستميل قلبه ببيانه ، حتى يقول : صلوات الله على الصادق الأمين : « إن من البيان لسحرا » فتلك شهادة من ناقد خبير ، قد أيدتها شهادة غيره فى الحجاج بوجه عام ، خطيبا وكاتباً وأديباً .

صفات الحجـــاج

قد يـذَم الحجاج لشدته ، وعدم تفريقه بين أقدار الناس ، فقد يكون للشدة موضع ، وللين موضع ، أما الحجاج فقد كان شـديدا حتى فى موضع اللين ، كما فى حالة أنس بن مالك ، وكان عجولا متسرعا مع قواده ، وكان يتدخل فى أمورهم وهو بعيد ولا يعرف أن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب . كما فى موقفه من المهلب ومن ابن الأشعث .

وكان جريئا على أقدار الرجال ، ولا عجب فى ذلك بعد جراءته عل سفك الدماء ، حتى لقد روى التاريخ أنه اجترأ على أسمى مقام ، فقال عمن يطوفون بقبر الرسـول صلى الله عليه وسلم « إنما يطوفون برمة وأعواد » وهـذا سوء أدب لا مثيل له ، وقد كفره بعض الناس من أجله ، وكان جريئا على البيت الحرام فرماه بالمنجنيق ، وإن كان اعتذاره عن هذا اعتذارا قويا فى خطبته التى رويناها فيما سبق .

وكان فحاشا سبابا ، كما يبين ذلك فى أول خطبة من خطبه فى أهل العراق ، ومن رسائله إلى سليمان بن عبد الملك ، وفى كتابه إلى ابن الأشعث وهو يحارب رتبيل وفى كتابه إلى أنس بن مالك .

ويروى ابن عبد ربه فى العقد ح ٣ ص ٢٥٤ : قال عبد الملك بن مروان للحجاج ليس من أحـد إلا وهو يعرف عيب نفسه ، فصف لى عيوبك ، قال أعفنى يا أمير المؤمنين . قال : لا بد أن تقول : قال : أنا لجوج حَسـود حقود . قال ما فى إبليس شر من هذا .

ويروى صاحب الأمالى : أنه أجابه بقوله : أنا حديد حسود حقود ذو قسوة . فبلغ هذا الكلام خالد بن صفوان ، فقال : لقد انتحل الشر بحذافيره ، والمروق من جميع الخير بزَوْبَره ، ولقد تأنق فى ذم نفسه ، وتجوَّد فى الدلالة على لؤم

طبعه ، وفى اقامة البرهان على إفراط كفره ، والخروج من كنف ربه ، وشدة المشاكلة لشيطانه الذى أغواه .

وهـذا حكم قاس من خالد ، وإن كان عيب الحجاج كبيراً ، فالحسد والحقد من أقبح الصفات . ولـكنها ليست كفرا ولا خروجا من كنف الله .

وقد كانت فيه صفات محمودة ، منها الإخلاص لولى نعمته عبد الملك ، وحرصه على رضاه ، وفعله كل ما يمكن لتثبيت ملـكه ، وقد تقدمت لذلك أمثلة كثيرة .

ومنها أنه كان يكره المحاباة على حساب المصلحة العامة ، فقد روى أنه بعد ما دخل العراق ، طلب رجلا يوليه أمر شرطته فقيل له : أى الرجال تريد ؟ قال : أريد دائم العبوس ، طويل الجلوس ، سمين الأمانة ، أعجف الخيانة لا يحنق فى الحق على حرة ، يهون عليه سؤال الأشراف فى الشفاعة . فقيل له عليك بعبد الرحمن بن عبيد التيمى ، فأرسل إليه فاستعمله ، فقال له : لست أقبلها إلا أن تـكفينى عمالك وولدك وحاشيتك . فقال الحجاج : ياغلام ، ناد : من طلب إليه منهم حاجة فقد برئت الذمة منه .

والحق أن من تعجبه هذه الصفات يكون متخلقا بها ، وأن هذه الصفات لازمة لمن يلى أمرا عاما . ثم إن الحجاج لا يترك عبد الرحمن بن عبيد التيمى لعماله وولده وحاشيته ، بل ينادى فيهم أن ذمته بريئة ممن يطلب حاجة من عبد الرحمن . بمثل هـذه الصفات يصل الحق إلى أصحابه ، وتقل الجرائم ، ولا يفلت المجرم بشفاعة قريب أو صاحب جاه ، ويطول التعليق على مزايا هذه الصفات فى صلاح أمر المحكومين ، وهى من غير شك تحمد للحجاج فى ادارته ، فقد كان لا يحابى ولا يميل مع الصديق أو القريب أو الشريف على الحق .

وقد كتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج أن يصف سيرته ، فـكتب إليه : «إنى أيقظت رأيى وأنمت هواى ، فأدنيت السيد المطاع فى قومه ، ووليت الحرب الحازم فى أمره ، وقلدت الخراج الموفر لأمانته ، وقسمت لكل خصم

من نفسي قسما أعطيه حظا من لطيف عنايتي ، وصرفت السيف إلى النَّطِف المسيء ، والثواب إلى المحسن البريء ، فخاف المريب صولة العقاب ، وتمسك المحسن بحظه من الثواب »

ويظهر من سيرته أنه كان متمسكا بهذه السياسة ، في الجملة اللهم إلا الأمر الأول . فإنه لم يكن يفعل ذلك إلا لمن على مثل ولائه للخلافة ، ثم لأوليائه هو .

ولكن يؤخذ عليه أنه مع اختياره للحرب رجالا من ذوى الحزم والكفاية ، كان لا يتركهم أحرارا . بل كان يتدخل في عملهم ، وكان الأولى أن يتركهم يتصرفون ماداموا موضع ثقته .

وهاك مثالا آخر من صفاته : دخل عليه سليك بن سلكة ، فقال : أصلح الله الأمير : أعرني سمعك واغضض عني بصرك ، واكفف عني حزبك . فإن سمعت خطأ أو زللا فدونك والعقوبة ، فقال قل : فقال : عصى عاص من عرض العشيرة فَحُلِّقَ عَلَى اسمى ، وهدمت دارى ، وحرمت عطائي . قال : هيهات ! أما سمعت قول الشاعر :

جانيك من يجني عليك وقد تُعْدى الصِّحاحَ مباركُ الجُرُبِ
ولرب مأخوذ بذنب عشيرة ونجا المقارِفُ صاحب الذنب

قال : أصلح الله الأمير ، سمعت الله قال غير هذا . قال : وما ذاك ! قال : قال : « يأيها العزيزُ إن له أبا شيخاً كبيراً فخُذْ أحدَنا مكانَهُ ، إنّا نراكَ من المحسنين » قال معاذَ الله أن نأخذَ إلا من وجدنا متاعَنا عنده إنا إذاً لظالمون » .

فقال الحجاج : عَلَيَّ بيزيدَ بن أبي مسلم فأُتِىَ به ، فمثل بين يديه . فقال . افكُكْ لهذا عن اسمه ، واصْكُكْ له بعطائه ، وابْنِ له منزله .

وأمر مناديا ينادى في الناس . صدق الله وكذب الشاعر .

وقد نستطيع أن نتبين من هذه الأخبار أنه لم يكن كما تصفه كتب التاريخ

ظالما كافرا ، فلو كان كذلك لما أمر يزيد بن مسلم أن يعفو عن سليك بن سلكة، ولما رق قلبه للقرآن وقوة حجته فى الحالة الأولى . وقد يكون ذلك من إعجابه بالجواب السديد ، والمنطق الصائب ، والحجة القوية بصرف النظر عن صدقها أو كذبها .

امتناعه عن الشراب :

وَفَدَ الحجاج على الوليد، وأضافه، فلما أكلا دعاه الوليد إلى الشراب. فقال: يا أمير المؤمنين : ليس بحرام ما أحللته ، ولكنى أمنع أهل عملى منه ، وأكره أن أخالف قول العبد الصالح [١] « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه » فأعفاه الوليد .

كرمه :

قالوا إن الحجاج كان كريما ، وليس ذلك بغريب على عربى مثله ، روى أنه كان يضع فى كل يوم ألف خوان فى رمضان ، وفى سائر الأيام خمسمائة خوان، على كل خوان عشرة أنفس ، وعشرة ألوان : ولكن صاحب العقد يقول إنه كان يخص بها أهل الشام ، فإن صح هذا لم يكن كرما عاما ، وإنما يكون ليشترى بها محبة أهل الشام كى ينصروه ، إذا جدالجد، على أهل العراق . وهم من جهة أخرى جند الخلافة المخلصون فهم جديرون بالتكريم والسخاء .

ولكن هناك خبراً آخر يدلنا على أنه كان يطمع فى كرمه ، وذلك إذ فرق الأموال فى أهل مكة بعد مقتل ابن الزبير ، واعتذر بقلة المال ، فقال له رجل من الناس . إذاً والله لا نعذرك ، وأنت أمير العراقين ، وابن عظيم القريتين كما تقدم .وماسيأتى فى وفادة ليلى الأخيلية عليه .

أعماله :

وقالوا إنه كان مصلحاً إداريا كذلك فقد اشتهر عهده باصلاح الموازين والخراج والزراعة ،واتخذدارا لصك النقود فى العراق بأمر من عبد الملك .

---

١) سيدنا شعيب ، فى سورة هود .

ومن أشهر أعماله :

١ — **الاعجام** : كان له الفضل فى تطور الكتابة الخطية ، فقد زاد الاهتمام بها من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وكثر استعمالها وتعلمها ، ولكنها كانت لا تزال فى أولى مراحلها ، ليس لها قواعد ، والشكل لم يكن معروفا ، والنقط التى تميز الحروف المتشابهة بعضها من بعض لم تكن معروفة ، أو لم تكن شائعة وعامة ، فكثر الاختلاف والخطأ والتصحيف ، فوضع أبو الأسود علامات للشكل ، نقطا بمداد أحمر يخالف المداد الأصلى الذى تكتب به الكلمات . ولكن التصحيف بقى ، وأحس الناس بضرره ، وبخاصة فى القرآن . فهو يغير المعنى ، ورويت آيات قرئت خطأ لعدم وجود ما يميز الحروف المتشابهة ، فاختل المعنى وتغير ، كقراءة « جبار » فى قوله تعالى « وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور » وأساء : فى قوله « قال عذابى أصيب به من أشاء » ، وزيا فى قوله تعالى « وكم أهلكنا من قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئيا » . وكانت تكتب هكذا « ربا » بلا نقط ، « وغرة » فى قوله تعالى « بل الذين كفروا فى عزة وشقاق » . وقوله : « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه » قرئت أباه « وقوله تعالى « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » قرئت يعنيه . وهذه القراءة الجديدة لا يفسد معها المعنى ولكنها ليست الرواية التى يحفظها القراء . فارتاع الناس ، وخافوا على القرآن أن يتبدل ، وأن يدخله التحريف ، وتضيع الأحكام ، ويفسد الدين بتغيير أهم أصل من أصوله وهو القرآن ، وكان أكثر البلاد فزعا من ذلك العراق ، فطلب الناس من الحجاج علاجا سريعا . وكان الحجاج أحد الحفاظ المهتمين بأمر القرآن ، ففزع إلى الكتاب يسألهم وضع علامات تميز هذه الحروف المتشابهة ، لكى تقرأ كما يرويها الحفاظ ، واستعان على ذلك برجلين من تلاميذ أبى الأسود ، هما نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر . فوضعا علامات لتمييز الحروف المتشابهة ، نقطا تكتب بنفس المداد الذى تكتب به الحروف ، وبقى الشكل نقطا تكتب باللون الأحمر ،

وظل الأمر كذلك حتى جاء الخليل بن أحمد فى الدولة العباسية ، وأدرك مايلقاه الكتاب من الصعوبات فى استعمال مدادين فى كتابة كل كلمة ، فاهتدى إلى طريقة الكتابة المعروفة الآن : فجعل الحركات أجزاء من الحروف التى تنشأ عنها : وجعل السكون دائرة ، وعدل بقية العلامات التى تميز الشكل والحروف ، كالمدة والشدة والهمزة والتنوين، فكان له فضل عظيم فى تهذيب الكتابة العربية . كما كان للحجاج .

٣ — نقل الدواوين الى العربية :

معنى الديوان الكتاب ، والكلمة فارسية . وأول ماوضع من الدواوين فى الاسلام هو ديوان الجند ، أو ديوان المقاتلة فى زمن عمر رضى الله عنه ، والمقصود به سجلات تدون فيها أسماء الجند ، وعطاء كل واحد منهم .

وأما ديوان الخراج . وهو الذى تحصى فيه الأموال الآتية من البلاد المفتوحة ، والضرائب المفروضة على أموالها ، والجزية المضروبة على أهل الذمة، أو مايشبه وزارة المالية عندنا ، فيه كل حساب الدولة من دخل وخرج . فقد كان فى كل إقليم بلغة أهله ، فكان فى مصر بالقبطية ، وفى الشام بالرومية وفى العراق بالفارسية ، وكان يلى أمره قوم من أهل تلك البلاد المفتوحة ، ولكن بعض هؤلاء الناس أسلموا وتعلموا العربية . وكان من الضرورى أن يجىء يوم تنتقل فيه هذه الدواوين إلى العربية ، وقد حدث بعض ذلك فى زمن عبد الملك بن مروان .

وكان رئيس ديوان الخراج فى عهد الحجاج بالعراق، رجل يقال له زاذان فروخ وكان معه فى الديوان رجل يقال له صالح بن عبد الرحمن ، مولى بنى تميم وكان أبوه من سبي سجستان، فرآه الحجاج يكتب بالفارسية والعربية نخف على قلبه ، ويقال إنه خشى من زاذان — إذا أحس بهذا — أن يدبر له مكيدة فقال له : أنت الذى رقيتنى حتى وصلت إلى الأمير . وأراه قد استخفنى ، ولا آمن أن يقدمنى عليك فتسقط منزلتك ، فقال زاذان لا تظن ذلك ، هو

أحوج إلى منى إليه ، لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيرى . فقال له صالح ؛ والله لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية لحولته ، قال زاذان : فحول منه أسطراً حتى أرى . ففعل ، فقال له زاذان : تمارض ، فتمارض ، فبعث إليه الحجاج بطبيبه ، فشق ذلك على زاذان ، وأمره ألا يظهر للحجاج ، واتفق عقب ذلك أن قُتِل زاذان فى حرب ابن الأشعث . فاستكتب الحجاج بعده صالحاً ، فأعلم الحجاج بما جرى له مع زاذان فى نقل الديوان ، فأعجبه ذلك ، وعزم عليه فى إمضائه ، فنقله من الفارسية إلى العربية ، وشق ذلك على الفرس ، حتى قيل أنهم بذلوا لصالح مئة ألف درهم على ألا يتم النقل،فأبى عليهم .

والمهم فى كل هذا أن الظروف ساعدت على نقل الديوان من الفارسية إلى العربية فى زمن الحجاج، وبتشجيع منه .

أما فى الشام فقد تم ذلك فى عهد الوليد بن عبد الملك ، ونقل الديوان من الرومية إلى العربية .

وفى مصر تم ذلك فى أيام الوليد بن عبد الملك أيضا سنة ٨٧ هـ . وبذلك أصبح ضبط الحساب للدخل والخرج — أعمال ديوان الخراج — بالعربية .

٣ — بناء واسط :

لقى الحجاج فى ثورة ابن الأشعث كثيرا من تنكر أهل العراق وتخاذلهم ؛ لكراهتهم له ، وكانت البصرة والكوفة أهم مراكزهم ، وهما المصران اللذان يضمان أكثر أعدائه ، وقد أصبح يخشاهم بعد أن قتل كثيرا من كبارهم ، فرأى أن يبنى مدينة يقيم فيها مع جند الشام ، خصوصا بعد أن كثر النزاع والاشتباك بين جند الشام وأهل العراق .

ويقال إنه فكر فى بنائها سنة ٨٣ هـ فى زمن عبد الملك ، وإنه بعث الأطباء لفحص الأمكنة كى يختاروا لها أحسنها فى وسط العراق ، فاختاروا له مكان «واسط» لطيب مائها ، واعتدال إقليمها .

وقد يكون اختيارهم مبنيا على مزايا عسكرية ، فإنها بين البصرة والكوفة ويتيسر للمقيم فيها أن يكون قريبا منهما ، ويسيطر على العراق كله .

ويقال إنه أنفق على بنائها كثيرا من الأموال ، حتى إنه أنفق على قصر الامارة والمسجد والسور الخارجى لها ، ما لا يقل عن ثلاثة وأربعين مليونا من الدراهم .

وقالوا إن كاتب الحجاج بين له ما يحتمل من إنكار عبد الملك لإسرافه فى الإنفاق عليها ، فطلب منه أن يضيف من هذا المبلغ جزءا إلى نفقات الحرب .

أما الذين تخيرهم للإقامة معه فيها ، فهم جند الشام ، وبعض الأجانب من أسارى الحروب من بلاد الشرق البعيدة ، مثل بخارى وما وراء النهر .

وظلت «واسط» مركزا للعامل الأموى على العراق .

الحجاج والأدب

الخطــــابة

خطبته أول ما ولى العراق

لا يتحدث مؤرخ من مؤرخى الأدب ، عن مصاقع الخطباء فى عصور العربية التى ازدهرت فيها الخطابة ، إلا ذكر الحجاج بالفصاحة النادرة ، والبيان الساحر ، ولا يذكر مؤرخ عيون الآثار الأدبية فى اللغة العربية ، إلا ذكر خطبة الحجاج فى أول ولايته العراق . وهى على ما فيها من الشدة ، مناسبة كل المناسبة للمقام ، والاستشهاد فيها بالشعر من أدق ما عرف عن الحجاج وأمثاله من مصاقع الخطباء ، كعبد الملك من خلفاء بنى أمية وكزعماء الخوارج وشيعة سيدنا على وحزب ابن الزبير .

ودقة هذا الاستشهاد تحتاج من الخطيب المرتجل أن يكون راوية للأدب ، يتخير ما يناسب غرضه من جيد الشعر الذى يملك على الناس شعورهم ، أو يذهلهم عن أنفسهم ، أو يلعب بأهوائهم وعقولهم .

ولم يقتصر الحجاج فيها على هذا الشعر المنذر بالشر ، الذى قدمه بين يدى أقواله الخاصة ، فإنه أردفه بعبارات من نار ، معانيها مخيفة مفزعة ، وألفاظها كأنها سياط تمزق الجلود ، وتدمى الظهور ، والتهديد فيها متواتر ، والوعيد فيها قد وليه التنفيذ .

والبداوة العربية القاسية فاشية فى عباراتها ، من أولها إلى آخرها ، اللهم إلا تشبيههم بأهل قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

نعوذ بالله من سخطه وغضبه .

الحجاج يسخر منهم ويذكر خشونة ملمسه ، فلا هو ممن يقعقع له بالشنان

ولا ممن يغمز جانبه كتغماز التين ، ولـكنه رجل قد جُرِّب ، فدلت التجربة على أنه سواق حُطَم ، وأنه عصلبي ، أروع خراج من الدَّوِّيّ ، وأنه مر المذاق ، صلب المكسر ، فرماهم به الخليفة .

ولم يكن ذلك عنتا من الخليفة ، ولا تجنيا عليهم ، فانظر إلى بيانه الذى يلزمهم به الوزر ، ، ويلق عليهم تبعة اشتداده وقسوته : « لأنكم طالما أو ضعتم فى الفتنة ، واضطجعتم فى مراقد الضلال » وليس عقابهم بعد هذا بظلم منه لهم ، وإنما هم أهل له ولكل نكال . فيقول :

« والله لأحزمنكم حزم السَّلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل »

إنها صورة بدوية للشدة ، يفهمها أهل المسجد ، لأنها أشد مايتصورون من الضرب ، ضرب أغصان السلمة المجتمعة بعصا غليظة ، لينفض شوكها ، وضرب غرائب الإبل لينفيها الراعى عن إبله .

أما لهجته ، ونبرات صوته ، وحركاته وإشاراته ، فإنى لا أتخيلها أقل قسوة من ألفاظه ، وليس عندنا أسطوانات لصوت الحجاج تبين ذلك ، ولكن المرء يحس به إحساسا شديدا وهو يقرأ هذه الخطبة .

عادته فى خطابه :

تجدها واضحة فى المنظر الذى صعد به المنبر : قوسه على كتفه ، ولثامه على وجهه ، وصمته زمنا حتى يسترعى انتباه الناس ، ويصغوا إليهم قلوبهم ، ويرهفوا آذانهم ، ثم يصب فوق رءوسهم من هذا الحميم الذى يغلى ويفور .

ويروى صاحب العقد حـ ٣ ص ٢٤٢ أن الحجاج كان إذا صعد المنبر تلفع بمطرفه ، ثم تكلم رويدا فلايكاد يسمع حتى يتزايد فى الكلام ، فيخرج يده من مطرفه ، ثم يزجر الزجرة فيقرع بها أقصى من فى المسجد . أكان كلامه رويداً من خوف أو وجل ؟ كلا ، وأغلب الظن أنه كان يفعل ذلك وهو يتلو الديباجة الأولى ، من حمد الله ، والصلاة والسلام على رسوله ، وأما بعد .

إنه لخطيب ممتاز ، يذهل الناس فلا يدرون ما يصنعون ، ولا يقف أحد معترضا على هذا الوعيد القاسى .

وربما كان لهيبة المنصب ما يدعو إلى الإحجام عن الرد على الحجاج ؛ ولكن لخطبته وقع الصواعق ؛ فلا عجب أن يقابلها الحاضرون بالصمت الناشىء عن الذهول من شدة وقعها ، وما تضمنته من بيان شديد ، على الرغم من قصرها . وإنها لبرهان صادق على أن صاحبها كان خطيبا :

وفى الحق أن الحجاج كان خطيبا موهوبا ، فالخطابة كامنة فى نفسه ، تستثيرها المناسبات ، والرجل ذكى حاضر البديهة ، راوية للأدب حافظ للقرآن ، عالم بالسنة ، خبير بالجماهير ، يدرى كيف يتكلم وكيف يستشهد ، وكيف يحتج ، وكيف يبرهن على صواب فعله ، فيستميل السامعين ويفحمهم.

رأى فى مقدرته الخطابية :

يقول مالك بن دينار من سادات التابعين عن الحجاج : ما رأيت أحدا أبين من الحجاج : إنه كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق، وصفحه عنهم،وإساءتهم إليه ، حتى إنى لأحسبه صادق وأظنهم كاذبين .

وله خطب ترويها كتب الأدب ، ولكنها قليلة بالنسبة لشهرته ، والواقع أن هذه الخطب التى حفظت ، ولم يُعَفِّ عليها النسيان ، هى أشد خطبه وأقواها ، وأبرزها ، ولكن ظروفه تحتم أنه كان خطيبا ممتازا ومكثرا ، فالحوادث كثيرة ، وقد خاض غمار فتن متعددة ، وولى مناصب تحتم أن يعتلى المنبر آلاف المرات ، أو على الأقل مئات المرات؛ فقد حكم العراق عشرين عاما، وكان من واجباته أن يؤم الناس فى الجمعة والعيدين ،والخطبة شرط فيهما، وولى الحج لبنى أمية . وهذه مواقف لا يتقدم فيها عليه أحد بحكم منصبه ، فلا بد من أن تكون أكثر خطبه فيها قد ضاعت ، إذ أن عصره لم يكن عصر تدوين للخطب ، بل كان عصر حفظ ورواية . وحفظ النثر وروايته

أصعب من حفظ الشعر وروايته ، فأن القافية والوزن فى الشعر يساعدان كثيرا على حفظه، ومع هذا فقد ضاع كثير منه ، وروى بروايات مختلفة ، فما بالك بالخطب ، وهى غير خاضعة لقواعد فنية من الوزن والموسيقى خضوع الشعر . لقد كان من الطبيعى أن ينسى بعضها ، وأن يتغير كثير من ألفاظ بعضها، وأن تروى بروايات متعددة ، وهذا ظاهر حتى فى أشهر خطبه، وهى أول خطبة له بالعراق ، فهى على قصرها وموسيقاها ، وابتدائها بالشعر قد رويت بأكثر من رواية ، ذلك لأن الحوافظ مهما قويت ، والروايات مهما دقت ، لا بد أن يَندّ عنها بعض الألفاظ ، وأن يفر منها بعض العبارات ، وأن تذكر المعنى ثم لا تذكر اللفظ بنصه ، فترويه بالمعنى . وتعدد الروايات للخطبة الواحدة ، ليس معناه أنه كان يخطب الخطبة الواحدة مرتين أو أكثر ، ولم يقل بذلك أحد ، ولكن تفسيره أن الرواة كانوا يحفظون بقدر ما يستطيعون ، ثم يروون فتختلف رواياتهم باختلاف قوة الحوافظ .

وقد حدث هذا فى احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو أعلى الخلق مقاما ، والناس أحرص على نقل آثاره لقيمتها ، واحتياجهم إليها فى تفهم أمور دينهم ، فلا غرابة أن ينسى كثير من خطب الراشدين والخلفاء والحجاج وزياد والمهلب ، ومنزلتهم عند المسلمين أقل من منزلة الرسول الكريم .

ومن الأشياء التى تؤيد أن الحجاج كان خطيباً ، أنه كان من أظهر رجالات بنى أمية ، وأقوى أعوانهم ، ومن شروط الظهور فى تلك العصور أن يكون الرجل ذا لَسَن ومنطق، فى عصر لا تعرف فيه الصحف ، ولا تدافع فيه المنشورات عن سياسة ، أو تبين وجهة نظر . فكان الاعتماد على اللسان ، وعلى الحديث إلى الجماهير من أهم المزايا التى يتقدم بها الرجل ، فى عصر يقدر الكلام ، ويرفع من شأن المتكلم إذا كان فصيحا مؤثراً ، ولم يكن الحجاج شاعراً ، ولكنه كان رجل دولة ، فكانت مقدرته الخطابية من أهم

الصفات التى قدمته فى دولة عبد الملك والوليد ، ورفعت له فى الأدب ذكراً وأبعدت له صيتاً .

وما بقى بين أيدينا منها برهان واضح على أنه كان يتمتع بكل الصفات التى تلزم الخطيب المصقع : كان راوية للأدب ، وللشعر بوجه خاص، وكان حافظاً للقرآن ، وكان حاضر البديهة سريع الجواب ، وكان قوى الحجة شديد المعارضة ، فإنك لا تقرأ خطبة من خطبه الباقية ، إلا لمست فيها كل هذه الصفات أو أكثرها : من استشهاد بالقرآن أو احتجاج به ، أو انتفاع بأسلوبه ، ومن قوة حجة يدحض بها حجة خصومه، ويبرر عمله ، ويؤيد بها سياسته .

وإلا لما شهد له مالك بن دينار شهادته المتقدمة ، ألم يقل صلى الله عليه وسلم « إن من البيان لسحراً » ؟ وقد كان بيان الحجاج كذلك . ورأى عبد الملك هذا السحر فى أحد كتب الحجاج إليه ،فقال ذلك لِنُبَاتَة كما تقدم

ثم استشهاره بالخطابة فى زمن يكون فيه قطرى بن الفجاءة . ونافع بن الأزرق ومصعب بن الزبير . وعبد الملك بن مروان ، والحسن البصرى ، من مشاهير خطباء بنى أمية لا يمكن إلا أن يكون دليلا على تقدمه واهتزاز أعواد المنابر من صولته وقوته كخطيب مصقع .

وإذا أردت برهانا من أدبه على علو كعبه فى الخطابة ، فاقرأ خطبته بعد وقعة دير الجماجم ، أو خطبته بعد دخوله البصرة ، أو خطبته بعد قتل ابن الزبير، أوخطبته، وهى من نوع آخر، فى ذم الدنيا ، أو خطبته فى رثاء عبد الملك بن مروان ، أوخطبته عندما أصيب بولده وأخيه ،أوخطبته الوعظية[١] فانك ترى فيها كل ما ذكرناه من الصفات ، ويكفى ما تقدم من تحليل خطبته الأولى فى العراق لتكون شاهداً على ما نقول .

---

(١) جمهرة خطب العرب ح ٢ للاستاذ صفوت .

كتابته :

أما شهرته فى الكتابة فهى أقل من شهرته فى الخطابة ، وإن كانت آثاره فيها أكثر من آثاره فى الخطابة ، وسبب كثرتها أن المكتوب أبقى على الزمن من المروى شفاهاً وحفظاً ، وطابعه فى الكتابة هو الذى عرفناه فى الخطابة ، فهو حين يكتب ،وبخاصة فيما يتعلق بالحرب أو العصيان، إلى من دونه من العمال والولاة،يؤثر التهديد والوعيد ، ويشتم ويسب . وإذا كان المكتوب اليه عبد الملك أو الوليد ، رق الكتاب، وخضع الكاتب فى كتابته خضوع العبد المخلص لمولاه .

وكان يؤثر الإيجاز وبخاصة إذا كتب إلى قواده فى حرب الخوارج أو فى فتوح المشرق ، وذلك لأن الإيجاز أليق بالأوامر والنواهى،وأجدر بالرؤساء، إذ أن طول الكلام قد يكشف عن ناحية ضعيفة فى الكاتب ، أو يؤدى به إلى أن يذكر مالا يجب أن يذكره . وهو صفة من صفات الاستبداد ، التى لا يحس صاحبها بحاجة إلى تبرير عمله بالحجة والبرهان، أو الاستشهاد أو بيان الأسباب ، بما يكون عادة فى الكتب المطولة . إلى الرؤساء الذين يحبون من مرءوسيهم التفصيل ليقتنعوا . وعلى هؤلاء المرءوسين أن يفصلوا ، ليبرروا أعمالهم .

وانظر إلى كتابه الى الملهب وعبد الرحمن بن مخنف الذى أرسله مدداً له بعد أن ولى العراق: «أما بعد،اذا أتاكم كتابى هذا فناهضوا الخوارج ،والسلام.»

وقد وجه البراءَ بن قبيصة الى الملهب يستحثه فى مناجزة الخوارج . وكتب معه الى الملهب : « انك لتحب بقاءهم لتأكل بهم »

سبب الايجاز فى عصر بنى أمية :

وقد يكون من أسباب الإيجاز أن الكتابة صنعة ماتزال جديدة ،ليس لهم فيها رسوم ولاتقاليد، ولم تتنوع أبوابها، ولم تتعدد موضوعاتها . ولم تصبح صناعة إلا فى أواخر عهد هذه الدولة، بعد أن طال عليها الزمن، ودخلها كثير

ممن لهم تقاليد سابقة فيها كالفرس ، وتخصص رجال فى القيام باعبائها ، فصار لها من كل ذلك تقاليد ورسوم مؤسسة على قواعد ، يراعيها الكاتب .

أما فى عهد الحجاج فكان الايجاز من وحى الفطرة ، والتطويل من وحى الذوق كذلك . وليس عنده قواعد ولا تقاليد تقول : الايجاز فى موضع كذا واجب أو مستحسن . والتطويل فى موضع كذا فرض أو مستحب .

رسوم الكتابة فى عهد بنى أمية :

وأما رسومها فى البدء والختام من البدء بالبسملة ، وحمد الله . وأما بعد ، والسلام ، وختامها بالسلام ، فهى رسوم جاءت فى كتبه صلى الله عليه وسلم ، وكتب أصحابه رضوان الله عليهم ، وهى رسوم دينية ، أما الرسوم الفنية التى تنزل الناس منازل ، والموضوعات درجات وأنواعا ، وتخصص كل نوع بطريقة ، وتؤثر كل موضوع ، أو كل جملة من الموضوعات ، بتطويل أو إيجاز أو غير ذلك ، فهذه مازالت غير منظمة ولا مرعية .

ونستطيع أن نقول أن مراعاة هذه الرسوم كانت اجتهاداً وذوقا ، ولم يتغير مما كان موجوداً فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والراشدين إلا القليل ، عندما صارت الخلافة ملكا ، ورأى الخلفاء والولاة لأنفسهم مكانة أعلى من مكانة غيرهم ، فكان من الذوق أن يبدأ بأسمائهم فى الكتابة إليهم ، فيقال : إلى فلان من فلان .

والواقع أن ذلك قد بدأ منذ عهد معاوية ، ولكنه لم يكن سنة متبعة . ولا رسما مفروضاً ، وإنما كان أمراً فيه رخصة ، وإن كان بعض الخلفاء والولاة يحب أن يبدأ باسمه فيما يرد عليه من الكتاب ، كالذى كان من الحسن بن على إلى زياد ، فقد أغضبه أن يبدأ باسمه ، ولا ينسبه إلى أبى سفيان ، فلما رد عليه زياد جفا فى رده ، فقال : من زياد بن أبى سفيان إلى الحسن بن فاطمة ، فأرسل الحسن رده هذا إلى معاوية ، فعاب معاوية زيادا وأغلظ له فى القول .

وعلى كل فقد كانت الكتابة سائرة فى طريق التدرج ، من الإيجاز إلى التطويل ، ومن مراعاة المقامات . والبدء باسم المكتوب إليه إن كان عظيما يكتب إليه من دونه ، ومن زيادة الالقاب والتحميدات، والميل إلى الزخرفة، والاستعانة عليها بالاستعارات والمجازات والتشبيهات ، ثم استخدام المحسنات البديعية كالجناس والمطابقة ، والتحليل واستيفاء أقسام الموضوع ، وترتيب عناصره ، والميل إلى السجع ، وكل ذلك ناشيء عن تطور العرب ، وزيادة تحضرهم ، وللحضارة مقتضيات . ومن اتساع الفرق بين الحاكم والمحكوم ، ولذلك أثره فى زيادة الالقاب ، وكثرة الدعاء بالتأييد والتوفيق ، والبدء باسمه العظيم فى الكتب التى ترفع إلى مقامه ، ومخاطبته بضمير الغائب .

منزلته بين كتاب عصره :

كان الحجاج معدوداً من رجال بنى أميه ، وكان معدوداً من فُصحاء زمانه ، ومن أشهر خطباء العربية ، وقد قدمنا أن الصفات التى أعانته على ذلك : نشأته بالطائف أو بالبادية إن شئت ، فليس بين الطائف والبادية — معدن الفصاحة ومعين البلاغه — إلا قليل ، ثم حفظه القرآن ، ومقدرته على الاستعانة به فى خطبه وكتبه ، ثم ذكاء الرجل وشدة عارضته ، وقوة حجته ، ثم اطلاعه على المأثور من آداب العرب شعراً وخطابة ، وروايته لتاريخ قومه ،ومعرفته بقبائل العرب وأقدارها، ومحاسنها وعيوبها . وبهذه الصفات استطاع أن يكون من أخطب ولاة بنى أمية، وأن يكون كاتباً من كتاب عصره الذين لايغفل ذكرهم ، إذا ذكر كتاب هذه الدولة ؛ من أمثال معاوية وعبد الملك والحسن البصرى .

وكانت كتابته أشبه شيء بخطابته . فهى بدوية جافية . مملوءة بالخشونة والتهديد . وفيها استشهاد بالشعر . وإيثار للسجع أو الأزداج أو اتزان الفواصل ، من غير تكلف ولا إجهاد للنفس ، وفيها صورة البداوة فى انتزاع التشبيهات ، ومآخذ الاستعارات ، ومضارب الأمثال، واقتباس الشعر ،

وقد أفادت من الدين استشهادا بالقرآن والحديث ، واحتجاجاً بهما ، وأخذت من رسوم الكتابة فى عهده صلى الله عليه وسلم وعهد الراشدين ، ابتداءاتها وختامها ؛ ومن ذكاء الرجل وروايته ، قوة الحجة ، ووضوح المنطق ، وشدة العارضة ؛ ومن حالة العصر : مراعاته لمن يكتب إليهم ، فهو حين يكتب إلى عبد الملك فى حاجة يريدها ، مؤدب لبق ، وحين يعتذر إليه عبد مخلص خاضع .

ولكنه أسد ضار حين يكتب إلى خارج على سلطان الخليفة ، شتام فَحَّاش ، سَبَّاب ، حين يكتب إلى عدو أو مقصر فى عمل ، ولم يسلم منه حتى ولى العهد سليمان بن عبد الملك . واقرأ كتابه إلى قوم من الأعراب من عمرو بن تميم وحنظلة ، بلغه أنهم يفسدون الطريق :

« من الحجاج بن يوسف : أما بعد فإنكم قد استخفتكم الفتنة ، فلا عن حق تقاتلون ، ولا عن منكر تَنْهَوْنَ . وايم الله ، إنى لأهم أن يكون أوَّلَ ما يرد عليكم من قِبَلِى خيل تنسف الطارف والتالد[1] ، وتدع النساء أيامى[2] ، والأبناء يتامى ، والديار خرابا ، والسواد بياضا . فأيما رُفْقَة مرت بأهل ماء فأهلُ ذلك الماء ضامنون لها حتى تصير إلى الماء الذى يليه ، تَقْدِمةً منى إليكم ، والسعيد من وعظ بغيره ، والسلام » .

فلما جاءهم كتابه كفوا عن الطريق :

أهذه رسالة من كلمات وعبارات ، أم قذائف من لهب ، وصواعق من نار ؟ يرسل عليهم خيلا تنسف الطارد والتالد ! ولا يكفى هذا ، بل تترك النساء أيامى ، والأبناء يتامى ! وليس كل هذا ، بل تترك الديار خرابا ، والسواد بياضا ؟

ولا ينسى أن يكون دقيقاً فى قوله ، فهو يحدد المسئولية ، ويلزم أهل

(١) الطارف الجديد . والتالد القديم .
(٢) الأيامى جمع أيم . وهو الذى لا زوج له من الرجال والنساء .

كل ماء أن يضمنوا من يمر بهم من رُفْقة ، حتى يصلو إلى الماء الذى بعدهم ، ليعرف من يأخذهم بذنب من يُقْتَل أو يسلب .

ويختم ذلك بقوله الذى يذهب بالظنون مذاهب شتى ، « والسعيد من وعظ بغيره » فليتعظوا بسوابقه، وبشهرته فى الشدة ، ليسعدوا ، فإذا لم يفعلوا حقق عليهم عقابه . لقد كان هؤلاء سعداء حقاً إذ كفوا عن قطع الطريق ، ولم يتمادوا فيحل بهم ما أنذرهم به ، وتصيبهم بما صنعوا قارعة .

وقد كتب إلى قطرى بن الفجاءة ، زعيم الخوارج بعد نافع بن الأزرق ، وأحد الخطباء الشعراء الأفذاذ : كتب إليه يدعوه إلى الدخول فى الطاعة ، ولم ينس شدته عسى أن تنفع ، ولكنه كان مخطئا ، أو كان يائساً ، فلم يتلطف بل كتب إليه يتهدده ويتوعده . ويسبه ويشتمه .

روى الجاحظ فى البيان والتبيين . قال :

كتب الحجاج بن يوسف إلى قطرى بن الفجاءة :

« سلام عليك ، أما بعد ، فإنك مرقت[1] من الدين مروق السهم من الرمية ، قد علمت حين تجرثمت ذلك[2] أنك عاصٍ لله ، ولولاة أمره . غير أنك أعرابى جلف أمى ، تستطعم الكسرة ، وتشتفى بالتمرة ، والأمور عليك حسرة . خرجت لتنال شبعة فلحق بك طَغَام[3] صَلُوا بمثل ما صَلِيتَ به من العيش ، يهزون الرماح ويستنشئون الرياح ، على خوف وجهد من أمورهم ، وما أصبحوا ينتظرون أعظم مما جهلوا معرفته ، ثم أهلكهم الله بنزحتين والسلام » .

ولكنه كان يكتب إلى قواد الجند من أهل الشام ، وهم الذين جاءوا لنصرته فى فتن شبيب، فيتلطف . فقد كتب إلى الجزل بن سعيد رداً على كتاب منه :

---

(١) مرق : خرج . (٢) تجرثم الشىء أخذ معظمه .

(٣) الطغام : أسافل الناس .

« أما بعد ، فقد أتانى كتابك ، وقرأته وفهمت كل ما ذكرت فيه ، وقد صدقتك فى كل ماوصفت به نفسك ، من نصيحتك لأميرك ، وحيطتك على أهل مصرك ، وشدَّتك على عدوك . وقد فهمت ما ذكرت من أمر سعيد وعَجَلَتِه إلى عدوه . فقد رضيت عَجَلَتَه وتُؤَدتك . فأما عجلته فإنها أفضت به إلى الجنة ، وأما تؤدتك فإنها لم تدع الفرصة إذا أمكنت ، وترك الفرصة إذا لم تمكن حزم . وقد أصبت وأحسنت البلاء وأُجرت . وأنت عندى من أهل السمع والطاعة والنصيحة . وقد أشخصت إليك حيان ابن أبجر ليداويك ويعالج جراحتك . وبعثت إليك بألفى درهم ، فأنفقها فى حاجتك ومانيوبك ، والسلام » .

والفرق ظاهر بين كتابه إلى هؤلاء القواد من أهل الشام ، وكتابته إلى المهلب وابن الأشعث ، فقد كان دائما يتهمهما بالتباطؤ ، والقعود عن حرب عدوهم مع إمكان الفرصه ، وكان يلومهم على هذا ، حتى عزل ابن الأشعث فأثاره عليه ، وهدد المهلب بالعزل . وقد سبق ما كان منه إلى المهلب بعد أن انتصر على الأزارقة . فقد عرف فضلَه وأكرمه .

رسائله إلى عبد الملك :

وكانت كتابته إلى عبد الملك أكثر خضوعا وذلة ، إذا غضب عبدالملك ، أو أبدى له سخطه وعدم رضاه ، كما تقدم فى كتابه فى شأن أنس بن مالك . وفى كتابه إليه ، يظهر له بَرَمَهُ بأمره . وخوفه من حساب الله على أن سلطه على الناس .

ولكنه كان ذا دالة على عبدالملك ، يعرف منزلته عنده ، فكان يكتب إليه لائما أحيانا ، ويحذر كل الحذر أن يصرح بهذا اللوم ، ويجعل لومه فى صيغة نصيحة لأمير المؤمنين ، أو يبين له خطر ما يراه ولا يوافقه عليه الحجاج . وذلك واضح فى كتابه إليه فى شأن عروة بن الزبير : فقد كان عروة

عاملا على اليمن لعبد الملك بن مراون ، فاتصل به أن الحجاج بجمع على مطالبته بالأموال التى بيده ، وعَزْله عن عمله ؛ ففر إلى عبد الملك . وعاذ به تخوفا من الحجاج ، واستدفاعا لضرره وشره . فلما بلغ ذلك الحجاج كتب إلى عبد الملك .

« أما بعد ، فأن لِوَاذ[١] المعترضين بك ، وحلول الجانحين الى المكث بساحتك ، واستلانتهم دَمَث[٢] أخلاقك ، وسعة عفوك ، كالعارض[٣] المبرق لأعدائه ، لايعدم له شائما[٤] ، رجاء استمالة عفوك . واذا أدْنَى الناسُ بالصفح عن الجرائم ، كان ذلك تمرينا لهم على اضاعة الحقوق مع كل ضال ، والناس عبيد العصا ، وهم على الشدة أشد استباقا منهم على اللين . ولنا قبَل عروة بن الزبير مال من مال الله ، وفى استخراجه منه قطع لطمع غيره ، فليبعث به أمير المؤمنين ان رأى ذلك . والسلام » .

فلما قرأ عبد الملك الكتاب بعث إلى عروة . ثم قال له : إن كتاب الحجاج قد ورد فيك ، وقد أبى إلا إشخاصك إليه ، ثم قال لرسول الحجاج : شأنك به . فالتفت إليه عروة مقبلا عليه وقال : أما والله ما ذل وخزى من مات ، ولكن ذل وخزى من مَلَكْتُموه ! والله لئن كان الملك بجواز الأمر ، ونفاذ النهى ، إن الحجاج لسلطانٌ عليك ، يُنْفِذ أموره دون أمرك . إنك لتريد الأمر يزينك عاجله ، ويبقى لك أُكرومَةَ آجله ، فيجذبك عنه ، ويلقاه دونك ، ليتولى من ذلك الحكم فيه ، فيَحْظَى بشرف عفو إن كان ، أو بجُرْم عقوبةٍ إن كانت ، وما حاربك من حاربك إلا على أمر هذا بعضه » .

فنظر فى كتاب الحجاج مرة ، ورفع بصره إلى عروة مرة ، ثم دعا بدواة وقرطاس فكتب اليه :

---

(١) اللواذ : الالتجاء . جمهرة الخطب ج٢ صفوت (٢) دمث الأخلاق : سهولتها ورقتها .

(٣) العارض : السحاب المعترض فى الأفق .

(٤) شام البرق : راقبه ليعرف أين ينزل المطر .

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين رآك — مع ثقته بنصيحتك — خابطا فى السياسة خبط عشواء الليل [1] ، فإن رأيك الذى يسول لك أن الناس عبيد العصا ، هو الذى أخرج رجالات العرب إلى الوثوب عليك ، وإذا أحرجت العامة بعنف الرياسة ، كانوا أوشك وثوبا عليك عند الفرصة ، ثم لا يلتفتون إلى ضلال الداعى ولا هداه ، إذا رَجَوْا بذلك إدراك الثأر منك .

وقد وَلِيَت العراق قبلك ساسة ، وهم يومئذ أحمى أنوفا ، وأقرب من عمياء الجاهلية ، وكانوا عليهم أصلح منك عليهم ، وللشدة واللين أهلون . والإفراط فى العفو أفضل من الإفراط فى العقوبة ، والسلام »

ولكنه كان خير مستشار لعبد الملك ، فكان لا يشتد عليه إلا ليعفو عنه ، ولا يهم به إلا ليغفر له ، وقد ولاه أعظم ولاياته فى العراق وفى المشرق ، وظل كذلك حتى مات عبدالملك ، فكانت منزلته عند الوليد كمنزلته عند أبيه .

وقد شهد له عبد الملك بأن بيانه ساحر بعد أن اعتذر إليه من إساءته إلى أنس بن مالك ، وكفى برأى عبد الملك شهادة للحجاج .

وإن أردت أن تشهد مع عبد الملك بأن بيان الحجاج كان سحرا حقا ، فاقرأ رده على عبدالملك واعتذاره ، ولينه وخضوعه ، واحتراسه ، ومعرفته بمخاطبة الملوك من غير أن يخفى شيئا مما فى نفسه ، ولا أن يقر بصفة تنقَّصه بها عبد الملك ، ولقد دافع عن نفسه ، ولم يقتصر على الدفاع ، بل مدح نفسه وهو يمدح عبد الملك ، ومدح نفسه بما عابه به الخليفة ؛ فانظر كيف اتخذ من العيب فى نظر عبدالملك صفة فخر له ! قال له عبدالملك إنه لم يكن شيئا حتى رفعه من شرطة روح بن زنباع ، فرد عليه بأن الذى رفعه إلى شرطة روح هو همة لم تزل تسمو به إلى ما فوق روح ، فلما جربه أمير المؤمنين حمد بلاءه ،

---

(١) عشواء الليل : الناقة التى لا ترى بالليل فتتخبط فى سيرها .

وعرف دهاءه ، وأدرك مضاءه ، فقدمه لأنه أهل للتقديم ، لا لأنه دَعِىٌّ على المناصب أو زنيم .

ولعل هذا كان من صفاته فى الكتابة والخطابة كما يؤيد ذلك شهادة مالك ابن دينار ، وكما تشهد بذلك خطبته فى الحجاز بعد قتل ابن الزبير ، ورسالته إلى عبد الملك فى الاعتذار . وإليه فى شأن عروة بن الزبير .

أكاد الحجاج من السابقين الى الزخرفة :

لعل من طبيعة الخطابة أن تعتمد على الزخرف اللفظى إلى حد كبير ، لتلعب بعقول السامعين ، فالسجع مطلوب فيها ، وقصر الفقرات ، وقوة الحجة ، وحضور البديهة ،وحسن الاستشهاد ليكون الخطيب أملك لنفوس الجمهور ، وليكون له سلطان على هواهم فينزلون عند رأيه ، ويستمعون لقوله ، ويدينون بمذهبه ، لا يعصونه ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون .

وكان الحجاج خطيبا بفطرته ، فكانت متمتعا بهذه الصفات من حسن الاستشهاد ، وقوة الاحتجاج ، ووضوح الدليل ، وسجع القول بلا تكلف ، وحضور البديهة فى الرد على الخصوم ، وشدة المعارضة عند إرادة الهجوم على عدو .

فلما عرضت للحجاج مواطن الكتابة كان فيها خطيباً أكثر منه كاتبا . ولا فرق بين خطبه ورسائله : وسبب ذلك أنه كان يملى على كاتبه ، فهو يرتجل والطبع غلاب . فجاءت رسائله خطبا .

خطب فى غير التهديد :

وليست خطبه كلها تهديداً ووعيداً كخطبته المشهورة فى أول عهده بولاية العراق ، وليست رسائله كلها شتماً وسباً كرسائله إلى ابن الأشعث أو سليمان ابن عبد الملك . فان له من الخطب الرقيقة الوعظية مايسيل الدموع ، ويذيب القلوب الخاشعة ، وحديثه عن الدنيا جدير بأكابر رجال الورع والزهد من أمثال الحسن البصرى وعمر بن عبد العزيز .

خطب يوماً فقال :

« أيها الناس ، قد أصبحتم فى أجل منقوص ، وعمل محفوظ ، رُبَّ دائب مُضيع ، وساع لغيره ، والموت فى أعناقكم ، والنار بين أيديكم ، والجنة أمامكم ، خُذُوا من أنفسكم لأنفسكم ، ومن غناكم لفقركم ، ومما فى أيديكم لما بين أيديكم . فكأن ماقد مضى من الدنيا لم يكن ، وكأن الأموات لم يكونوا أحياء . وكل ماترونه فإنه ذاهب . هذه شمس عاد وثمود ، وقرون كثيرة بين ذلك هذه الشمس التى طلعت على التابعة والأكاسرة ، وخزائنهم السائرة بين أيديهم ، وقصورهم المشيدة . ثم طلعت على قبورهم .

أين الملوك الأولون ؟ أين الجبابرة المتكبرون ؟ المحاسِبُ الله ، والصراط منصُوب . وجهنم تزفر وتتوقد ، وأهل الجنة ينعمون ، فى روضة يُحْبَرُون . جعلنا الله وإياكم من الذين إذا ذُكِّرُوا بآيات ربهم لم يَخِرُّوا عليها صُمًّا وعُمْيَاناً . »

ويكفى تعليقا على هذه أن نذكر ما كان يقوله الحسن البصرى فيه . كان رحمه الله يقول :

« ألا تسمعون لهذا الفاجر ؟ يرقى عتبات المنبر ، فيتكلم بكلام الأنبياء ، وينزل فيفتك فتك الجبارين ، ويوافق الله فى قوله ، ويخالفه فى فعله » وقريب من هذه الشهادة فيه شهادة بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى فى أول خلافة سليمان بن عبد الملك (١)

وكانت له رسائل فى وصف بعض ظواهر الطبيعة ، « جفاف ثم غيث » أبدع فيها على الرغم من أنه ليس معنيا بهذا النوع من الكتابة الوصفية ، فقد كتب إلى عبد الملك :

« أما بعد : فانا نخبر أمير المؤمنين أنه لم يصب أرضنا وابل (٢) منذ

---

(١) جمهرة خطب العرب حـ . ص ٢٩١ للأستاذ صفوت .

(٢) الوابل : المطر الكبير القطرات .

كتبت أخبره عن سُقْيَا الله إيانا ، إلا ما بَلّ وجه الأرض من الطَّشّ (١) والرَّشّ والرذاذ ، حتى دَقعت (٢) الأرض ، واقشَعرَّت (٣) واغبرت ، وثارت فى نواحيها أعاصير تذرُو دُقاق الأرض من ترابها ، وأمسك الفلاحون بأيديهم ، من شدة الأرض واعترازها (٤) وامتناعها . وأرضنا أرض سريع تغيرها ، وشيك تَنكُّرُها ، سَيّءٌ ظن أهلها عند قُحُوط المطر . حتى أرسل الله بالقَبُول (٥) يوم الجمعة ، فأثارت زِبْرِجاً متقطعاً مُتَمَصِّراً (٦) . ثم أعقبته الشَّمالُ يوم السبت، فطحطحت عنه جَهامه (٧) وألّفت مُتَقَطِّعه ، وجَمَعَت متمصره ، حتى انتضد (٨) فاستوى وطَمى وطحَى ، وكان جَوْناً مُرْثَعِنّاً (٩) قريبا رواعده . واعتدّت عوائدُه بوابل مُنْهَمِل مُنْسَجِل (١٠) يردَف بعضُه بعضاً ، كلما ارتدف شؤْبُوب (١١) ارتدفته شآبيب لشدة وقعه فى العرض» .

وكتبت إلى أمير المؤمنين وهى ترمى بمثل قِطَع القطن، قد ملأ اليباب (١٢) وسد الشِّعاب (١٣) ، وسَقَى منها كلَّ ساق ، فالحمد لله الذى أنزل غيثه ، ونشر رحمته من بعد ما قَنَطُوا ، وهو الولى الحميد » .

هذه رسالة لطيفة غريبة على الأدب الذى عهدناه من الحجاج ، فقد يكون خطيباً ممتازاً يتحدث عن الفتن وإخمادها ، والعصيان ورد أصحابه إلى الطاعة ، ويمكن أن يكون خطيباً واعظاً يذكر باليوم الآخر ، ويخوف الناس عذاب السعير ، ويزهدهم فى الدنيا بما يزينه لهم من نعيم الآخرة ، ويدعوهم الى مراقبة

---

(١) الطش المطر الضعيف .

(٢) دقعت : خلت من الزرع . (٣) اقشعرت . تجمعت وتقبضت من المحل والجدب .

(٤) الاعتراز الصلابة . (٥) القبول : ريح الصبا .

(٦) الزبرج : السحاب فيه رقة واحمرار . الممصر : القليل المتفرق .

(٧) طحطح : فرق وبدد . والجهام : السحاب لاماء فيه . (٨) انتضد : تراكم .

(٩) طمى : امتلأ . وطحى ، اتسع . والجون : الأسود ، والمرثعن : الثابت .

(١٠) المنسجل ، المنسكب . (١١) الشؤبوب : الدفعة من المطر .

(١٢) اليباب : الخراب . (١٣) الشعاب ، الطرق فى الجبل .

النفس ومحاسبتها ، وقد يكون كاتباً يدعو الى طاعة الخليفة ، ويخوف عاقبة الخروج على الجماعة ، ويأمر قواده بالعجلة ، ويلومهم على البطء فى الفتح والفتك بالاعداء ، وهكذا .

ولكن الغريب أن يكون كاتباً يصف الطبيعة فى بعض حالاتها فيجيد هذه الإجادة ،فيوفى الموضوع حقه مع الإيجاز ، ويكون دقيقاً فى وصف حالاته ،طبيعياً فى تنقله من جزء الى جزء . وليس هذا الخطاب وحده هو ماجاءت به عبقرية الكاتب الممتاز ، الحجاج ، بل يشير هو نفسه الى أنه قد كتب من قبل الى الخليفه يخبرهم عن سقيا الله اياهم فى صدر الخطاب . ولعل ذلك كان ضرورياً من أجل تقدير الخراج أو فرض الزكاة وجباية الأموال. ومقدار مايجبى .

وكثير من هذه الرسائل قد ضاع ، ولم يبق منه إلا القليل مسطورا فى كتب الأدب أحيانا ، وفى كتب الفقه والأموال ، أحيانا أخرى . ولكن كتب الفقه لا تعنى برسائل الحجاج فى مسائل الدين ، لأنها تعنى بمن هو أرفع ذكراً ، وأرسخ قدما فى الفقه من كبار الصحابة والتابعين ، أما الحجاج فهو سعيد إن لم يظفر منهم ببعض اللعنات أو السخط .

والخلاصة أن هذه الرسالة ،على غرابة موضوعها بين ماطرقته الكتابة فى ذلك العصر ، رسالة ممتازة فى أسلوبها وترتيب معانيها . وإن كان أسلوبها شبيهاً بأسلوب العصر فى الوصف ، من ألفاظ تبدو لنا غريبة ، أو جاهلية فى طابعها ، ومن عبارات موجزة ، خالية من التخيل والزخرف والمحسنات المعنوية واللفظية ، بعيدة عن إغراق العباسيين وزخرفة الأندلس ، ثم إن أسلوب القرأن الذى تختم به ليس غريباً على الحجاج ، لا فى خطابته ولا فى كتابته .

ونستطيع من كل ما بايدينا من آثار الحجاج الأدبية فى كتابته وخطابته أن نقول إنه كان كاتباً وخطيباً ممتازاً . وأن خلوده فى الأدب لم يكن

بخطبته المشهورة عندما ولى العراق وحدها ، ولا بخطبته بعد دير الجماجم ، ولا بخطبه التى بأيدينا ، ولم يكن برسالته القاسية إلى سليمان بن عبد الملك . ولا برسالته الضارعة الخاشعة إلى عبد الملك . ولكن يضاف إلى ذلك شهادة من عاصروه كالحسن البصرى ومالك بن دينار ، وناهيك بقول عبد الملك بعد إذا قرأ رسالته : « صلوات الله على الصادق الأمين : « إن من البيان لسحراً . »

ونستطيع أن نقول كذلك إن آثاره الباقية قُلٌ من كُثْر . وإن كثيراً من آثاره قد ضاع ؛ فأين خطبه فى الجمعة والعيدين ، وقد ظل والياً قريباً من ربع قرن فى الحجاز والعراق وكان يؤم فيهما ؟ وأين بقية خطبه فى الفتن والثورات ؟ وما أكثرها فى عهده !

نستطيع أن نجزم بأن ما ضاع من آثاره أكثر كثيراً مما بقى ، وأن العصر كان عصر رواية لا عصر تدوين بالمعنى الصحيح ، وأن الحوافظ مهما قويت لا تستطيع أن تعى كل ما قاله الحجاج ، وماوعته منها قد أصابه شىء من التغيير ، ودليلنا على ذلك رواية الخطبة الواحدة بطرق مختلفة ، أو على الأقل بروايتين مختلفتين شيئاً ما ، حتى رسائله قد رويت كذلك بأكثر من رواية ، كما فى الرسائل التى دارت بينه وبين قطرى (١)

التوقيعات :

ومما يلحق بالكتابة « التوقيعات » ، وللحجاج توقيعات تجعله — على قلتها — من بين كبار الموقعين.

والمراد بالتوقيع أن يعلق ذو الأمر بما يراه ، أسفل الكتب التى ترفع إليه فى غرض من الأغراض . ومايعتمد فى شأنها ، بعبارة بليغة موجزة ، تؤثر عنه ، ويشبهه اليوم فى دوائر الحكومة عندنا ما يسمى « التأشيرة » ، وذلك الشبه فى الغاية لا فى البلاغة .

---

(١) جمهرة رسائل العرب ج ٢ ص ١٧٩ .

وقد امتاز كثير من كتاب العصر العباسى ،واشتهروا بتوقيعاتهم ، ولعل أشهرهم جعفر بن يحيي البرمكى .

ولكن التوقيعات قد عرفت منذ عهد سيدنا عمر ، قالوا إن سيدنا سعد ابن أبى وقاص كتب اليه يستأذنه فى بناء دار فوقع فى أسفل كتابه : « ابن ما يُكنُّك من الهواجر وأذى المطر » ، وشكا قوم إلى سيدنا عثمان من مروان ابن الحكم ، وذكروا أنه أمر بوَجْءِ أعناقهم ، فوقع فى ذلك الكتاب « فإن عَصَوْك فقل إنى برىء مما تعملون »

وأثر لسيدنا على ومعاوية ، وليزيد بن معاوية توقيعات ، وكتب الحجاج الى عبد الملك بن مروان يخبره بسوء طاعة أهل للعراق ، ويستأذنه فى قتل أشرافهم ، فوقع له : « ان من يمن السائس أن يأتلف به المختلفون . ومن شؤمه أن يختلف به المؤتلفون »

وكتب الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك يلومه فى تبذيره ،وكثرة إنفاقه ،فوقّع فى كتابه :«لأجمعن المال جمع من يعيش أبدا ، ولأفرقنه تفريق من يموت غداً ».

وأثرت لخلفاء بنى أمية وخلفاء الصدر الأول من الدولة والعباسية توقيعات لطيفة الإشارة غزيرة الدلالة ، قليلة المبنى كثيرة المعنى .

وأثرت لرجال الدولة توقيعات كذلك ، لكنها كانت فى عهد بنى أمية قليلة كقلة الكتابة الإنشائية إذا قيست بالعصر العباسى .

والحجاج من المعدودين فى كتاب التوقيعات فى عصر بنى أمية ، ولكن توقيعاته قليلة كما قلت ، وهى تدل على مرماه البعيد ، ورغبته المقصودة ، دلالة لا لبس فيها ، فقد كتب إليه قتيبة بن مسلم ، يشكو كثرة الجراد ، وذهاب الغلال ، وما حل بالناس من القحط ، فوقع إليه :

إذا أزِفَ خراجُك ، فانظر لرعيتك فى مصالحها ، فبيت المال أشد اطلاعاً [١] لذلك من الأرملة واليتيم وذوى العَيْلة [٢].

---

(١) احتمالا . (٢) الفقر والحاجة .

ووقع إلى قتيبة : « خذ أهل عسكرك بتلاوة القرآن ، فإنه أمنع حصونك » .

ووقع فى قصة مجوس ذكروا أنه تاب « ما علىَ المحسنين من سبيل » .

والتوقيعات المقتبسة من القرآن أو الشعر أو الأمثال : تشبه استعارة التمثيل : ومن بلاغتها توضيحها للمقصود من طريق التشبيه ، والتشبيه عادة يزيد المشبَّه وضوحاً . والاستعارة نوع من التشبيه كما هو معروف فى علم البيان ،

والتوقيعات فى جملتها ممتازة ، لقلة ألفاظها وكثرة معانيها ، يدل قليلها على كثيرها ، ويغنى موجزها عن طوال الرسائل ، ويشهد ظاهرها - على قصره - بما فيها من كثير الأغراض والدلالات ، وكأنها الإشارة تغنى عن العبارة .

وهى تدل فى عمومها على سرعة خاطر ، وذكاء وحسن فهم ، وعلى رواية واستشهاد صائب إن كانت منقولة ، أو علو كعب فى الأدب إن كانت مبتدعة .

ورجال الدولة أحوج إليها من غيرهم يصرفون بها الأمور ، ويقضون بها فى الحقوق والمظالم ، ويفصلون بها فى القضايا والشكايات . ويسيرون بها أمور الدولة ، مع قلة ألفاظها ، وحسن وقعها ، وعظيم تأثيرها .

وانظر إلى توقيع الحجاج : « ما على المحسنين من سبيل » هذا اقتباس من القرآن الكريم [1] : وكأنه قياس منطق : ما على المحسنين من سبيل ، وهذا الرجل قد صار محسناً بتوبته ، فليس لكم عليه من سبيل ، فأطلقوا سراحه .

ولكن التوقيع قد أغنى عن كل هذا التطويل ، وشهد للحجاج بسرعة الخاطر : وإصابة الغرض ، وحسن الاختيار .

أكان يقول الشعر ؟

لم يؤثر فى كتب الأدب شىء للحجاج من الشعر ، ولكن هناك كتا دار بينه وبين عبد الملك قد يفهم منهما أن كلا من الرجلين كان شاعراً . ولا غرابة فى أن يكون أحدهما أو كلاهما شاعراً ، ولكن المسألة مسألة

(١) سورة التوبة .

وقائع . فليس لها شهرة ولا ذكر بين الشعراء ، ولكن الروايتين ترويان هكذا :

ولما أسرف الحجاج فى قتل أسارى دير الجماجم ، وأعطى الأموال بلغ ذلك عبد الملك فكتب إليه :

«أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين سَرَفُكَ فى سفك الدماء ، وتبذيرك فى الأموال بالباطل ، ومَنْعُكَ الحق ، ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس .»

وقد حكم عليك أمير المؤمنين فى الدماء : فى الخطأ الدية ، وفى العمد القَوَد ، وفى الأموال ردها إلى مواضعها . ثم العمل فيها برأيه ، فإنما أمير المؤمنين أمين الله ، وسِيّان عنده منعُ حق وإعطاء باطل . فإن كنت أردت الناس له فما أغناهم عنك ، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم . وسيأتيك من أمير المؤمنين لين وشدة ، فلا يؤنسنك إلا الطاعة ، ولا يوحشنك إلا المعصية ، وظُنَّ بأمير المؤمنين كل شيء إلا احتمالك على الخطأ ، وإذا أعطاك الظفر على قوم فلا تقتلن جانحاً ولا أسيراً .

وكتب فى أسفل كتابه .

إذا أنت لم تطلب أموراً كرهتها ... وتطلب رضائى بالذى أنت طالبه
وتخشى الذى يخشاه مثلى هارباً ... إلى الله منه . ضَيَّعَ الدَّرَّ حالبهُ
فإن ترَ منى غفلةً قرشية ... فيار بما قد غص بالماء شاربه
وإن ترَ منى وثبة أموية ... فهذا وهذا كل ذا أنا صاحبه
فلا تأْمَنَنّي والحوادث جَمَّةٌ ... فإنك مجزىٌّ بما أنت كاسبُه
ولا تَعْدُ ما يأتيك منى ، وإن تعد ... يقوم بها يوما عليك نوادبه
ولا تدفعَنَ للناس حقاً علمته ... ولا تعطين ما ليس لله جانِبهُ

رد الحجاج :

فلما قرأ الحجاج كتابه كتب اليه :

أما بعد فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفى فى الدماء ، وتبذيرى

فى الأموال ، ولعمرى ما بلغت فى عقوبة أهل المعصيةماهم أهله . وماقضيت حق أهل الطاعة بما استحقوه ، فإن كان قتلى أولئك العصاة سَرَفا،وإعطائى أولئك المطيعين تبذيرا ، فليسوّغنى (١) أميرُ المؤمنين ما سلف . وليَحُدَّ لى حداً أنتهى إليه إن شاء الله تعالى ، ولا قوة إلا بالله ، ووالله ماعلى من عَقْل (٢) ولا قود : ماأصبت القوم خطأ فأفديهم .ولا أعطيتهم إلا لك ، ولا قتلت الا فيك ، وأما ما أنا منتظره من أمريك ؛ فألينهما عِدَةً وأعظمهما محنةً ، فقد عبأت للعِدة الجلادَ ، وللمحنة الصبر .

وكتب فى أسفل كتابه .

اذاً أنا لم أتبع رضاك وأتقى أذاك ، فيومى لا تزول كواكبه
وما لامرىء بعد الخليفة جُنة تقيه من الأمر الذى هو كاسبه
أسالم من سالمت من ذى قرابة ومن لم تسالمه فإنى محاربه
اذا قارف الحجاج منك خطيئة فقامت عليه فى الصباح نواديه
اذا أنا لم أدن الشفيق لنصحه وأقصى الذى تسرى الى عقاربه
فمن ذا الذى يرجو نوالى ويتقى مصاولتى ؟والدهر جم نوائبه
فقف بى على حد الرضا لا أجوزُه مدى الدهر حتى يرجع الدرَّ حالبه
وإلا فدعنى والأمور فإننى شفيق رفيق أحكمتنى تجاربه

فلما انتهى كتابه إلى عبد الملك قال : خاف أبو محمد صولتى ، ولن أعود لشىء يكرهه .

رأى فى الكتابين

الظاهر من رواية المسعودى فى مروج الذهب ، وأبى بكر محمد بن يحيى الصولى فى أدب الكتاب ، أن الشعر فى آخر هذين الكتابين من شعر عبد الملك والحجاج ، ويؤيد ذلك أن أبيات كل منهما توافق الأخرى فى

(١) يقر ما فعلت.	(٢) دية .

البحر والقافية ، فكأن الحجاج أراد بأبياته معارضة عبد الملك ، أو اقتفاء أثره فى جعل نهاية كتابه شعرا ، وليس مستحيلا على كل منهما أن يقول شعرا كما قدمت ، ولكنه بعيد لأسباب .

منها ضعف الشعر ، وقد يقال : الشعر لهما مع الإقرار بما فيه من ضعف لأنهما ليسا من كبار الشعراء ، ومنها أن العادة لم تجر بين كتاب ذلك العصر بالكتابة نثرا ثم شعرا إلا ماجىء به للاستشهاد ، وليس هذا الشعر استشهاداً ، فإن التصريح باسم الحجاج فى قوله « إذا قارف الحجاجُ منك خطيئة » يدل على أن المقصود نسبتها إلى عبد الملك والحجاج ، ومنها أثر الصنعة البادى فى نظم معانى الكتاب شعرا بعد كتابتها نثرا ، والقوم إلى ذلك العهد يميلون إلى الإيجاز الوافى بالحاجة ، ولم نعهد فيهم أن يكتبوا ما فى نفوسهم نثرا ثم يعيدوه شعرا .

وقد يكون الكتابان ، بشعرهما ونثرهما ، عرضة للطعن فيهما ، وأن يكونا منحولين ، فإن عبد الملك قد كتب إلى الحجاج بعد دير الجماجم يأمره أن يعرض الأسرى على السيف ، فمن أقر منهم بالكفر بخروجه على الخليفة خلى سبيله ، ومن زعم أنه مؤمن ضرب عنقه . فكان الحجاج لا يبايعه أحد إلا قال له : أتشهد أنك قد كفرت ؟ فإن قال نعم بايعه ، وإلا قتله :

فكأن عبد الملك قد رأى فى خروج هؤلاء القوم عليه كفرا لا يمحوه إلا البيعة بشرطها أو القتل ، ومن أجل هذا قتل سعيد بن جبير ؛ إذ أبى أن يقر على نفسه بالكفر . وليس بينه وبين القوم مثياق ، فكيف يطلب من الحجاج الدية فى القتل الخطأ ؟ والقصاص فى العمد ؟ وليس هذا واردا فى آية القتل الخطأ فى سورة النساء ؟ أكان عبد الملك يجهل الحكم ؟ هذا غير ممكن . فالآية صريحة فى أن :

(١) قتل المؤمن خطأ فيه تحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا . وهذا مالم يطلبه عبد الملك ؛ لأنه كان يرى فى خروجهم كفرا .

(٢) قتل مؤمن من الأعداء فيه تحرير رقبة مؤمنة ، وهذا ما لم يطلبه عبد الملك .

(٣) قتل مُعَاهَد فيه دية مُسَلَّمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ، وهؤلاء كانوا محاربين .

والذى أرجحه أن الكتابين على هذه الصورة منحولين شعرا ونثرا ولم يكن الحجاج شاعرا ، ولا عبد الملك شاعرا ، وإن كانا من أهل الذوق والحفظ والاستشهاد .

الحجاج والشعراء :

كان لبنى أمية سياسة بدأها معاوية وسار عليها خلفاؤهم وولاتهم من بعده، يقصدون بها شغل الناس عنهم ،وصرفهم إلى أمور أخرى غير سياستهم ليطمئن ملكهم ، ويهدأ بالهم ، وينعموا بالعز والسلطان ، ولكنهم لم ينالوا كل ما أمَّلوا ، بل كانت هذه السياسة خطرا عليهم فى بعض الأحيان . ومن أغراض هذه السياسة .

(١) العمل على إحياء العصبيات الجاهلية ، وتذكير الناس بما كان لقبائلهم فى الجاهلية من أيام ، وبما كان لهم من ثارات ؛ وذلك ليشغلوا تلك القبائل بأنفسها عن سياستهم ، وليستعينوا ببعض القبائل على بعض ، إذا بدا من بعضها خروج أو رغبة فى التمرد والعصيان .

واستتبع ذلك إحياء الشعر الجاهلى الذى قيل فى العصبية، وعنى به وبدراسته وروايته أهل تلك القبائل ؛ ليكون لهم سلاحاً يوم الفخار أو الشجار .

(٢) إغراء الشعراء بعضهم ببعض ، لأن بنى أمية يقدرون أثرهم فى تأليف القلوب أو تنفيرها . فأرادوا أن يشغلوهم بالتهاجى والتعارض والتفاخر ، لكيلا تتجه أنظارهم إلى الخلافة بنقد ، أو إلى سياستها بتجريح أو طعن . فيسلم لبنى أمية ملكهم ويحققون سياستهم، من غير أن يعرض لهم هؤلاء الشعراء . مثل ذلك ما كان بين جرير والفرزدق والأخطل ، وما فعله

بشر بن مروان فى حمل الأخطل على الحكم بين جرير والفرزدق ، فكان ذلك بدء التهاجى بين جرير والأخطل .

(٣) الاستعانة ببعض هؤلاء الشعراء يمدحون سياستهم ويدعون الناس إلى مذهبهم ويهجون أعداءهم ، ويظهرون طمعهم فيما ليس لهم بحق ، كما استعانوا بأبى العباس الأعمى فمدحهم وهجا آل الزبير ، وبأعشى ربيعة الذى فعل مثله تماما فأعطاه عبد الملك عشرة آلاف درهم وعشرة آلاف تخوت ثياب ، وعشر فرائض من الإبل ، وأقطعه ألف جريب وغير ذلك .

ولكنهم إذا كانوا قد نجحوا فى إحياء العصبيات الجاهلية فإنهم لم ينجحوا فى القضاء على المذاهب السياسية الدينية ؛ فقد ناهضهم الخوارج والزبيريون والشيعة وثارت عليهم ثورات كبيرة فى العراق والحجاز ، وكادت تذهب بدولتهم ، واستعانوا عليها بالسيف والأدب ، واستعان أعداؤهم بهذين السلاحين كذلك .

وكان الفوز للسيف الأموى ، فزالت دولة بن الزبير ، ولقى الشيعة مصائب جمة فى العراق ، وضعف شأن الخوارج على يد المهلب فى زمن الحجاج ، ولكن بقى للأدب دولة تناهض بنى أمية حتى بعد أن دانت لهم أكثرية الأمم الإسلامية .

وكان لهؤلاء الشعراء من أنصار بنى أمية ، وآل الزبير ، وشيعة آل الرسول صلى الله عليه وسلم ، منزلة الصحف الحزبية تقريبا فى أيامنا : تذيع آراءهم ومذاهبهم وتدافع عنهم ، وتدعو الناس إلى صفهم ، فلا عجب أن استعان بنو أمية بالشعراء، كما استعان بهم مناهضوهم ، واعتمد كل فريق على شعرائه ، وخطبائه كذلك . فى الدفاع عن حقه ، والدعوة إلى مذهبه وهجر أعدائه ، بل استعانوا بهم كذلك فى جس النبض ، وتهيئة الرأى العام لما يريدون من سياسة أوشبه ذلك . وأول من فعل ذلك معاوية عندما أراد البيعة لابنه يزيد ، إذ دعا مسكينا الدارمى أن يقول شعرا يحبذ فيه هذه البيعة بمشهد من رجال

بنى أمية ، فقال . فلم يتكلم أحد من الحاضرين إلا مؤيدا ، فعرف معاوية اتجاههم . وفعل مثله عبد الملك عند ما أراد البيعة لابنه الوليد ، وخلع أخيه عبد العزيز، إذ أوحى إلى نابغة بنى شيبان أن يؤيد سياسته ويحتج لها ففعل وقال :

داودُ عَدْلٌ فما حكم بسنته   ثم ابْنُ حرب فانهم نَصَحُوا

(٤) اشتراء هذه الألسنة الحادة ، والقوافى السائرة بالمال أو طلبها للقطع حيثما وجدت، فأجزلوا العطاء لمن نصروهم ، وحرموا من مال عنهم — وكذلك فعل أعداؤهم — حتى لقد أهدر بنو أمية وعمالهم دماء بعض الشعراء لمعارضتهم لهم ، كما فعل الحجاج بأعشى همدان .

أما حديث العطاء فهو حديث طويل ، وكان عطاء جزيلا حقا ، فباع الشعراء مذاهبهم وعقائدهم وانضموا إليهم ، أو سكتوا عنهم خوفا من سلطانهم وسيوفهم ؛ بل ومدحوهم كما فعل ابن قيس الرقيات من أنصار ابن الزبير ، والكميت بن زيد من أنصار بنى هاشم .

ومن الشعراء من كان يسكت خوفا ، أو ينصرف إلى المدح تكسبا ، مع إخفاء مذهبه، فالفرزدق كان يتشيع ، ولكنه انصرف إلى الفخر وسكت عن هجاء بنى أمية وعن الدعوة إلى التشيع خوفا على حياته ، وانصرف كُثَيِّر — وكان يتشيع — إلى الغزل ومدح الخلفاء

وكان لبعض هؤلاء الشعراء أعطيات مقررة يأخذونها بنظام ، ولم تقطع هذه إلا فى زمن الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه . وقصة وفودهم عليه وعلى غيره من الكبار مذكورة مفصلة فى الجزء الأول من العقد الفريد .

وكانت الأحوال العامة تساعد على رقى الشعر وتحمل الشعراء حملا على تجويد أشعارهم من حيث الأساليب والقوافى والأبحر والمعانى والحجج ، فكثر الشعر السياسى وكثر رجاله .

لقد كان رجالات الدولة عربا من هامات العرب ، لسانهم فصيح وذوقهم خالص صاف ، وحوافظهم واعية لأكثر ما سبق من أدب فى الجاهلية والإسلام ، وكانوا رواة للأشعار والأخبار ، علماء بالأيام والأنساب ، فلا يقصدهم إلا من وثق بنفسه ، ولا يطمع فى برهم إلا من سهر على شعره ، فارتقى الشعر ونهض نهضة كبيرة فى هذه الحقبة من التاريخ ، وكان سيره إلى المدى العظيم الذى بلغه فى عصر العباسيين سيرا حثيثاً .

وكان لولاة بنى أمية وعمالهم ، ولرجالات العرب ممن ليسوا ولاة ولا عمالا شعراءُ يقصدونهم ، ينتجعون فواضلهم ، ويرجون نائلهم . فاشتهر هؤلاء الولاة بمن يمدحهم كما اشتهر آل المهلب بشعراء ، والحجاج بشعراء .

الحجاج :

كان الحجاج ممتازاً بين ولاة بنى أمية — ولهم جميعاً مزايا عظيمة — يقصده الشعراء ويمدحونه بالكرم أو بحسن السياسة أو بالحزم والعزم ، يطمعون فى معروفه أو يتقون سطونه وبطشه ، فقصده منهم كثيرون كليلى الأخيلية ، وجرير بن عطية . ووقف الشعراء ببابه ، وساروا فى ركابه .

ونقم عليه بعضهم ، فعابه ، فطلبه الحجاج فأدركه ، فسجنه أو قتله ، وهرب بعضهم من سجنه ، أو طلبه ففاته وهجاه .

الوافدون عليه :

وممن وفد على الحجاج مادحا جرير بن عطية بن الخطفى ، وقد ذكر الأغانى روايتين فى وفادته على الحجاج : الأولى[١] ، ويؤيده فيها الكامل للمبرد [٢] : أن جريرا قدم على الحكم بن أيوب بن أبى عقيل الثقفى ابن عم الحجاج وعامله على البصرة فمدحه بقوله :

أقبلن من ثَهْلان أو وادى خِيَمْ على قِلاصٍ مثل خيطان السَّلَمْ

(١) أغانى ج ٧ ص ٤٠ (٢) كامل ج ٢ ص ٩٤

قد طـويت بطونها طى الأدم   يبحثن بحثا كمُضلات الخَدَم
إذا قطعن علماً بدا علمْ   حتى أنخناها إلى باب الحكم
خليفةِ الحجاج غيرِ المتهم   فى مَعقِدِ العز وبُحبُوح الكرم

فلما حادثه أعجبه ظرفه وشعره . فكتب إلى الحجاج — وذلك فى أول سنيه بالعراق — إنه قدم علىَّ أعرابى شيطان من الشياطين . فكتب إليه الحجاج أن يرسله ففعل . فلما قدم على الحجاج أكرمه . وكساه ، وأنزله. ثم يقول الأغانى فى الرواية الأولى أنه تركه أياما ، ثم أرسل إليه بعد نومه ، فقال له الرسل : أجب الأمير ، فقال : ألبس ثيابى ، فقالوا : لا والله ، لقد أمرنا أن نأتيه بك على الحال التى نجدك عليها ، ففزع جرير وعليه قميص غليظ وملاءة صفراء . فلما رأى ما به رجل من الرسل دنا ، وقال لا بأس عليك ، إنما دعاك للحديث . قال جرير . فلما دخلت عليه قال : إيه يا عدو الله ، علام تشتم الناس وتظلمهم ؟ فقلت : جعلنى الله فداء الأمير . والله إنى ما أظلمهم ، ولكنهم يظلمونى فأنتصر . ما لى ولابن أم غسان ، وما لى وللبعيث ، وما لى وللفرزدق ، وما لى للأخطل ، وما لى وللتيمى ؟ حتى عدهم واحدا واحدا . فقال الحجاج : ما أدرى مالك ولهم . قال . « أخبرُ الامير أعزه الله » . وأخبره سبب التهاجى بينه وبين هؤلاء وغيرهم من الشعراء .

أما الكامل فيقول : إنه لما دخل عليه قال له : بلغنى أنك ذو بديهة ، فقل فى هذه — لجارية قائمة على رأسه — فقال جرير : ما لى أن أقول فيها حتى أتأملها ، وما لى أن أتأمل جارية الأمير . فقال : بلى فتأمَّلها واسألها ، فقال : ما اسمك يا جارية ، فأمسكت . فقال لها الحجاج : خبريه يا لخناء . فقالت : أمامة . فقال جرير :

ودع أمامَة . حانَ منك رحيلُ   إن الوداعَ لمن تحب قليلُ
مثلُ الكثيبِ تمايلت أعطافه   فالريح تجبُر متنَه وتُهيل
هذى القلوب صواديا تيَّمتَها   وأرى الشفاءَ وما إليها سبيل

فقال له الحجاج : قد جعل الله لك السبيل إليها ، خذها هى لك ، فضرب بيده إلى يدها ، فتمنعت عليه ، فقال :

إن كان طبكم[1] الدلال فإنه   حسن دلالك يا أمام جميل

فاستضحك الحجاج وأمر بتجهيزها معه إلى اليمامة . وخبرت أنها كانت من أهل « الرى » . وكان إخوتها أحرارا ، فاتبعوه فأعطوه بها حتى بلغوا عشرين ألفا فلم يقبل ، ففى ذلك يقول :

إذا عرضوا عشرين ألفا تعرضت   لأم حكيم حاجة هى ما هيا

لقد زدت أهل الرى عندى مودة   وحببت أضعافا إلى الموإليا

فأولدها حكيما وبلالا وحزرة وغيرهم .

ولا بأس أن نذكر بقية الخبر ففيه دلالة على ما كان بين الشعراء من التهاجى والتساب ، وما كان عند العرب من فخر بأن الأم عربية ، وعند أولاد الإماء من لباقة فى التباهى بأمهاتهم الجميلات أو المهذبات ، أو الكريمات الأصول من بنات الأعاجم :

يقول المبرد فى الكامل : ويقال إن الحمانى قاول بلالا ذات يوم فيما كان بينهما من الشر ، فقال : يا ابن أم حكيم ! . فقال له بلال : ما تذكر من ابنة دهقان ، وأخيذة رماح ، وعطية ملك ؟ ليست كأمك التى بالمروت[2] تغدو على أثر ضأنها كأنما عقباها حافرا حمار . فقال له الحمانى :

أنا أعلم بأمك : إنما عتب عليها الحجاج فى أمر الله أعلم به ، فحلف أن يدفعها إلى ألأم العرب ، فلما رأى أباك لم يشكك فيه .

أما الرواية الأخرى فهى أن جريرا نزل على عنبسة بن سعيد بواسط ، ولم يكن أحد يدخلها إلا بإذن من الحجاج . فلما دخل على عنبسة قال له : ويحك لقد غررت بنفسك ، فما حملك على ما فعلت ؟ قال شعر قلته اعتلج فى

---

(١) الطب : العادة والطبع .

(٢) المروت : المفازة ، أو الأرض التى لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها .

صدرى ، وجاشت به نفسى ، وأحببت أن يسمعه الأمير . فعنفه عنبسة ، وأدخله بيتا فى جانب داره . وقال لا تطلعَنّ رأسك حتى ننظر كيف تكون الحيلة . ثم أتاه رسول الحجاج من ساعته يدعوه فى يوم قائظ ، وهو قايمٌ فى الخضراء وقد صب فيها ماء حتى استنقع فى أسفلها ، وهو قاعد على سرير ، وكرسىٌّ موضوع ناحية . قال عنبسة فقعدت على الكرسى ، وأقبل الحجاج يحدثنى . فلما رأيت تَطَلُّقَه ، وطيب نفسه ، قلت : أصلح الله الأمير ، رجل من شعراء العرب ، قال فيك شعرا أجاد فيه ، فاستخفه عجبه به حتى دعاه إلى أن رحل إليك[1] ، ودخل مدينتك من غير أن يستأذن له . قال : ومن هو ؟ قلت : ابن الخطفى . قال : وأين هو ؟ قلت : فى المنزل . قال : يا غلام ! فأقبل الغلمان يتسارعون . قال : صف لهم موضعه فى دارك . فوصفت لهم البيت الذى هو فيه ، فانطلقوا حتى جاءوا به فأدخل عليه وهو مأخوذ بضبعيه، حتى رمى به فى الخضراء ،فوقع على وجهه فى الماء ، ثم قام يَتَنَفَّش كما يتنفش الفرخ . فقال له : هيه ! ما أقدمك علينا بغير إذننا لا أم لك ؟ قال : أصلح الله الأمير . قلت فى الأمير شعراً لم يقل مثله أحد ، فجاش به صدرى وأحببت أن يسمعه منى الأمير ،فاقبلت به إليه .قال: فتطلق الحجاج وسكن ، واستنشده فأنشده . ثم قال : يا غلام ! فجاءوا يسعون , فقال : على بالجارية التى بَعَثَ بها إلينا عامل اليمامة . فأتى بجارية بيضاء مديدة القامة . فقال : إن أصبتَ صفتها فهى لك ، فقال : ما اسمها قال : أمامة ، فأنشأ يقول الأبيات السابقة .

فقال له الحجاج خذ بيدها فبكت الجارية وانتحبت ، فقال . ادفعوها إليه بمتاعها ورحالها .

وسواء أكانت وفادته إليه فى أول سنيه بالعراق من عند الحكم ابن عمه وعامله على البصرة ، أم كانت بعد أن بنى واسطاً سنة ٨٣ هـ ، فالروايتان

---

(١) سبب رحلته مذكور فى ذيل الأمالى ص ٤٢ .

متفقتان على أنه وفد عليه ليمدحه ، وأنه أجازه بعد أن سمع شعره ، وتزيد الرواية الأولى فى الأغانى أنه كان قد سمع بجرير وأخبار تهاجيه مع الشعراء ، وأنه استمع إليه طويلا ، حتى أخبره بقصة تهاجيه وسببه مع هؤلاء الشعراء ، ولا يفعل ذلك إلا رجل يقدر الأدب ويرويه ، ويعجب به وبأحاديثه وأخباره .

ونخلص من هذه الأخبار كذلك إلى أن الحجاج كان مقصد الشعراء ، وأن العمال كانوا يؤثرون الولاة الأدباء بالمجيدين من الشعراء ليمدحوهم ، ويأخذوا جوائزهم ، بعد أن يطمئنوا الى أنهم أهل لمدح الولاة ولأن يأخذوا عطاءهم ، كما فعل الحكم فى رواية الكامل . وكما فعل الحجاج نفسه فى إرسال جرير إلى عبد الملك كما يذكره الأغانى ح ٧ ص ٦٢ مما سنقصه بعد قليل :

أما جرير فقد مدح الحجاج بقصائد جياد أصاب صفته فيها ، وأحسن مدحه بما هو فيه ، وبخاصة موقفه فى العراق ، من أهل العراق والخوارج ، فقد برّره جرير تبريراً قويا ، واعتذر للحجاج عن شدته مع هؤلاء القوم ، ووصفه بصفات عامة ،يهش لها العربى ويطرب ، وبصفات خاصة ، يهش لها الحجاج ويطرب . وسارت هذه المدائح حتى وصلت إلى سمع الخليفة فحفظها ورواها ، فأثارت حفيظته على جرير ؛ حتى إنه لما وفد عليه مع محمد بن الحجاج أبى أن يسمع منه مدحه فيه ، وأرغمه على أن ينشده مدائحه فى الحجاج . وقال له : وما عساك أن تقول فينا بعد قولك فى الحجاج :

من سد مُطلَّع [1] النفاق عليهمُ   أم من يصولُ كصولة الحجاج ؟

إن الله لم ينصرنى بالحجاج وإنما نصر دينه وخليفته ، أولستَ القائل

أم من يغار على النساء حفيظةً   إذ لا يثقن بغيرة الأزواج ؟

ياعاض كذا وكذا من أمه ، والله لهممتُ أن أطيرَ بك طيرة بطيئاً سقوطُها . ثم طرده وجعل الأخطل ينشده ،ثم أمره أن يركب جريراً،

---

(١) المطلع : المكان الذى يطلع منه النفاق : والمقصود منافذ النفاق

فقال جرير إنه مسلم والأخطل نصرانى [١]! ولولا أن شفع محمد بن الحجاج لجرير ، وطلب من الخليفة أن يهب كل ذنب له لعبده الحجاج ، وقبل يد الخليفة ورجله حتى أذن لجرير أن يمدحه ،لساءت عاقبته فمدحه بقصيدته المشهورة التى مطلعها

أتصحو أم فؤادك غير صَاحِ عشية هَمَّ صحبُك بالرَّوَاح

والتى يقول فيها :

ألستم خيرَ من ركب المطايا وأنـدَى العالمين بطونَ رَاحِ

واستَمنح عبد الملك ، فأعطاه وأكرمه وصار فى عدد شعرائه بعد ذلك.

ونفهم من هذا الخبر مبلغ عناية القوم ، وعلى رأسهم الخلفاء ، بالشعر ، وتقديرهم له ، وكراهة الخلفاء أن يقصد الشعراء غيرهم بالشعر الجيد ، حتى ولو كان هؤلاء المقصودون من رجالهم وخدام دولتهم مثل الحجاج .

ونفهم كذلك أن الولاة كانوا يعرفون هذه العنايةمن خلفائهم ، بالأدباء عامة ، والشعراء خاصة . وأنهم يحرصون على أن يكون هؤلاء الشعراء لهم وحدهم : يذكرون مناقبهم . ويدفعون عنهم كيد أعدائهم ، ويدرءون هجاء من يعرضون لهم من الشعراء ، وأنهم كانوا يغضبون ممن يميل إلى أعدائهم ، أويقصد بابا غير بابهم ، ولو كان المقصود من مواليهم وولاتهم ، كما أدرك الحجاج ذلك كله ، فأوفد جريراً على عبد الملك كأنه هـــدية يقدمها إليه ، وخشى أن يرفض عبد الملك هديته لأنها جاءت متأخرة ، فأرسل معه ابنه محمداً يشفع لجرير عند الخليفة ، فقبلت شفاعته ، وصار بعدُ من شعراء الأمويين وألسنتهم المادحة ، المنطلقة بالحمد والثناء

ومن مدائح جرير فى الحجاج :

دعا الحجاجُ مثل دعاء نوحٍ فأسمع ذا المعارج فاستجابا : [٢]

---

(١) ص ٤٢ ذيل الأمالى

(٢) دعاء نوح «رب لا تذرعلى الأرض من الكافرين ديارا» ، وذو المعارج : الله سبحانه وتعالى قال سبحانه فى سورة المعارج « من الله ذى المعارج »

صَبَرْتَ النفسَ يابن أبى عقيل محافَظَةً فكيف ترى الثوابا ؟
ولو لم يرض ربُّك لم ينزل مع النصر الملائكة الغضابا
إذا سَعَرَ الخليفةُ نار حرب (١) رأى الحجاجَ أثقبها شهابا
ترى نصر الإمام عليك حقاً إذا لبسوا بدينهم ارتيابا
تَشُدُّ فلا تكذب يوم زحف إذا الغمراتُ زعزعت العقابا
وقالوا لن يجامعَنا أمير (٢) أقام الحد واتبع الكتابا
وأشمط قد تردد فى عماه (٣) جعلتَ لشيب لحيته خضابا
إذا عَلِقَتْ حبالك حَبْلَ عاص رأى العاصى من الأجل اقترابا
كأنكَ قد رأيت مقدماتٍ بصين استان قد رفعوا القبابا
جعلت لكل محترس مَخُوف صفوفا دارعين به وغابا

وقال من قصيدته الجيميه فى مدح الحجاج .

من سد مطلع النفاق عليهمُ أم من يصول كصولة الحجاج
أم من يغار على النساء حفيظةً إذ لا يثق بغَيرة الأزواج
إن ابن يوسفَ فاعلموا وتيقنوا ماضى البصيرة واضح المنهاج
ماضٍ على الغمرات يمضى همّه والليل مختلفَ الطرائق داجى
منع الرُّشا وأراكمُ سبل الهدى واللصّ نَكلّه عن الإدلاج (٤)
فاستوسقوا وتبينوا سبل الهدى ودعوا النجى فليس حين تناج (٥)
يارب ناكث بيعتين تركته وخضاب لحيته دم الأوداج (٦)
إن العدو إذا رموك رميتهم بذرى عَماية أو بهضب سواج (٧)
وإذا رأيت منافقين تخيروا سبل الضّجاج أقمت كل ضجاج (٨)

---

(٢) سعر : أوقد. (٢) لن يجتمع معنا . (٣) الأشمط الذى فى شعر رأسه بياض
(٤) الرشا : جمع رشوة : مثلثة : نكله : منعه بشدة والادلاج : الغارة بالليل .
(٥) استوسقوا : استقيموا . النجى : الحديث سرا لتدبير مكايد .
(٦) الناكث : الناقض . الأوداج . جمع ودج بفتح الدال . وهى عروق فى العنق .
(٧) عماية وسواج جبلان بالعالية . (٨) الضجاج : الباطل والمشاغبة .

داويتهم وشفيتهم من فتنه ... غبراء ذات دواخِنٍ وأجاج [1]

إنى لمرتقب لمـــا خوفتنى ... ولفضل سيْبك يا ابن يوسف راجى

ولقد كسرتَ سنَانَ كل منافق ... ولقد مَنَعْتَ حقائبَ الحُجّاج

وقال فى قصيدة أخرى :

رأى الحجاج عافيــة ونصراً ... على رغم المنـــافق والحسود

دعا أهل العراق دعاء هود ... وقد ضلوا ضــلالة قوم هود

كأن المرْجفين وهم نَشَاوَى ... نصــارَى يلعبون غداة عيد

وظنوا فى اللقاء لهم رواحاً ... وكانوا يُصعَقونَ من الوعيد

فجاءوا خاطمين ظليم قفر ... إلى الحجاج فى أجم الأسود [2]

لقيتهم وخيلهم سِمَانٌ ... بســاهمة النواظر والخدود

أقت لهم بمَســكنَ سوقَ موت ... وأخرى يوم زاوية الجنود [3]

ترى نفس المنَافق فى حشاه ... تعارِض كل جَائفَة عنود [4]

تَحُسُّهم السيوف كما تسامى ... حريقُ النار فى أجَمِ الحصيد [5]

وما الحجاج ، فاحتضروا نداه ... بجاذى المرفقين ولا نَكُود [6]

ألا نشكو إليك زمان محل ... وشرب الماء فى زمن الجليد

ومعتبة العيال وهم سِغَابٌ ... على درّ المُجَالحَة الرُفود [7]

زمانا يترك الفتيَاتَ سوداً ... وقد كان المحَاجر غير سود

---

(١) الدواخن : الدخان والأجاج : تلهب النار .

(٢) خاطمين ظلم قفر : راجلين النعام الذكر من خطامه .

(٣) يوم مسكن كان بين عبد الملك ومصعب ، ويوم الزاوية كان بين الحجاج وابن الأشعث ، وكاد الحجاج يهزم فيه .

(٤) الجائفة : الطعنة الغائرة . والعنود ، التى يتدفق منها الدم .

(٥) تحسهم : تقتلهم . الأجم الشجر الكثيف والحصيد المحصود .

(٦) احتضروا : احضروا . جاذى المرفقين . قصير الباع . النكود : الشحيح .

(٧) سغاب جمع ساغب ، وهو الجائع . والمجالحة : الناقة يدر لبنها فى الشتاء ، والرفود التى تملأ القدح الضخم بحلبة واحدة .

وقال يمدحه :

ومن يأمن الحجاج ؟ أما عقابه ... فمُرٌّ ، وأما عقده فوثيق
وماذقت طعم اليوم إلا مُفزَّعا ... وما ساغ لى بين الحيازم ريق [١]
وخفتُك حتى استنزلتنى مخافتى ... وقد حال دونى من عماية نِيقُ [٢]
يُسِّر لك البغضاءَ كلُّ منافق ... كما كل ذى دِينٍ عليك شفيق
وأطفأت نيران العراق وقد علا ... لهن دخانٌ ساطع وحريق
وإن امرءاً يرجو الغلول وقد رأى ... نَكالك فيما قد مضى لسروق [٣]
وأنت لنا نور وغيث وعصمة ... ونَبْتٌ لمن يرجو نداك وريق
ألا رب عاصٍ ظالم تركته ... لأوداجه المستنزفات شهيقُ

هذه أكثر قصائد جرير فى مدح الحجاج كما وردت فى الديوان . ولم نحذف منها إلا البدء بالغزل، وذكر الرحلة إلى الممدوح ،وغير ذلك ،مما كان شائعاً فى عصر بنى أمية ، وما بقى بعد ذلك فى مدح الحجاج يؤيد ماسبق أن ماذكرناه ، من أن الولاة كانوا كالخلفاء ،يحرصون على أن يكون لهم شعراء يدافعون عن سياستهم — وفى قول جرير كثير من هذا الدفاع ، وكأنه صدى لخطب الحجاج ورسائله — ويمدحونهم بمجيد أفعالهم ليسير فى الآفاق ذكرهم ، والولاة يعطونهم أجزل العطاء .

ليلى الأخيلية والحجاج :

وممن وفد على الحجاج من الشعراء ليلى الأخيلية ، وفدت مادحة ومستمنحه ، وشاكية فأجابها الحجاج إلى كل ماسألت ، فأعطاها لها ولقومها ، وأجاب شكاتها ، فعزل العامل الذى شكت منه ، ولم يفعل الحجاج ذلك لسواد عيونها ، فلم تكن له بها حاجة ، وقد كانت عجوزاً وكان لها هوى قديم فى غيره .

ولكنها مدحته فأصابت صفته ، وتحدثت فملأت نفسه ، وبعث إعجابه

---

(١) الحيازم جمع حيزيم . وهو ما أحاط بالحلقوم من ناحية الصدر .
(٢) النيق أعلى مكان فى الجبل .   (٣) الغلول : الخيانة .

بحضور بديهتها ، وقوة حجتها ، ولطيف أخبارها ، وحلو ذكرياتها .

حدث القالى فى كتابه الأمالى برواية طويلة : عن مولى لعنْبَسة بن سعيد ابن العاص أنها دخلت عليه وهى مسنة ، ثم سألها عن نسبها فانتسبت ، وعما جاء بها . فقالت إنه القحط والجفاف وسوء العيش .

ثم قالت : إنى قلت فى الأمير قولا . قال : هات . فأنشأت تقول :

أحجاج لايفْلُل سلاحك إنها المنـــايا بكف الله حيث تراها

أحجاج لاتعطى العصاة منَاهم ... ولا الله يعطى للعصاة مناها

إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة ... تتبع أقصى دائها فشفاها

شفاها من الداء العضَال الذى بها ... غلام إذا هز القناة سقاها

سقاها فروّاها بشرب سجاله[1] ... دماء رجال حيث مال حشاها

إذا سمع الحجاج رِزّ كتيبة[2] ... أعد لها قبل النزول قِرَاها[3]

أعد لها مسمومةً فارسـية ... بأيدى رجال يَحْلبون صَراها[4]

فما ولد الأبكار والعون مثله[5] ... ببحر ولا أرض يجف ثراها

قال : فلما قالت هذا الشعر قال الحجاج : قاتلها الله ! والله ما أصاب صفتى شاعر مذ دخلت العراق غيرها .

ثم التفت إلى عنبسة بن سعيد فقال : والله إنى لأعد للأمر عسى ألا يكون أبدا . ثم التفت إليها فقال : حسبك ، قالت : إنى قد قلت أكثر من هذا ، قال : حسبك ويحك ، حسبك . ثم قال : ياغلام ، اذهب إلى فلان فقل له : اقطع لسانها . قال : فأمر بإحضار الحجام . فالتفتت اليه ، فقالت : ثكلتك أمك ! أما سمعت ما قال ؟ انما أمرك أن تقطع لسانى بالصلة ، فبعث اليه يستثبته ، فاستشاط الحجاج غضبا ، وهم بقطع لسانه ، وقال : ارددها ، فلما دخلت عليه قالت : كاد والله يقطع مقولى ، ثم أنشأت تقول :

---

(١) السجال جمع سجل . وهو الدلو العظيمة . (٢) الرز : الصوت الذى يسمع من بعيد .
(٣) القرى مايعد للضيف . (٤) يحلبون ماتبقى فى ضرعها من اللبن .
(٥) العون . جمع عوان ، وهى التى ولدت مرة .

حجاج أنت الذى ما فوقه أحدُ ... الا الخليفة والمستغفر الصمد

حجاج أنت شهاب الحرب إن نقحت[1] ... وأنت للناس نورٌ فى الدُّجى يَقِد

ثم أقبل الحجاج على جلسائه فقال : أتدرون من هذه ؟ قالوا : لا والله أيها الأمير ، الا أنا لم نر قط أفصح لسانا ، ولا أحسن محاورة ، ولا أملح وجها ، ولا أرصَن شعراً ! فقال : هذه ليلى الأخيلية التى مات توبة الخفاجى من حبها ، ثم التفت اليها فقال : أنشدينا ياليلى بعض ما قاله فيك توبة . قالت نعم أيها الأمير : هو الذى يقول :

وهل تبكيَنْ ليلى اذا مُتُّ قبلها ... وقام على قبرى النساء النوائحُ

كما لو أصاب الموتُ ليلى بكيتها ... وجادَ لها دمعٌ من العين سافح

وأغْبَط من ليلى بما لا أنا له ... بلى كل ما قَرَّتْ به العين طائحُ

ولو أن ليلى الأخيلية سلَّمَتْ ... عَلىَّ ودونى جَنْدَلٌ وصفائحُ

لسلمْتُ تسليمَ البشاشة أوزَقا[2] ... اليها صَدىً من جانب القبر صائح

فقال : زيدينا من شعره ياليلى . قالت : هو الذى يقول :

حمامةَ بطن الواديين ترنمى ... سقاكِ من الغُرِّ الغوادى مطيرُها

أبينى لنا لا زال ريشُكِ ناعما ... ولازلت فى خضراء غضٍّ نضيرها

وكنت اذا ما زرْت ليلى تبرقعت ... فقد رابنى منها الغداة سفورها

وقد رابنى منها صدود رأيته ... واعراضها عن حاجتى وبسورها[3]

وأشرْف بالقور اليَفاع[4] لعلنى ... أرى نار ليلى أو يرانى بصيرها

يقول رجالٌ لا يَضيركَ نأيها ... بلى ، كل ماشَفَّ النفوس يَضيرها

بلى ، قد يضير العين أن تكثر البكا ... ويمنعَ منها نومها وسرورها

وقد زَعَمَتْ ليلى بأنى فاجر ... لنفسى تقاها أو عليها فجورها

(١) إن جاءت بشرها (٢) صاح .

(٣) البسور : الاعراض .

(٤) القور واليفاع : الجبال القليلة الارتفاع .

فقال الحجاج : ياليلى ، ما الذى رابه من سفورك ، فقالت : أيها الأمير ، كان يلم بي كثيرا ، فأرسل الى يوما : انى آتيك ، وفطن الحى فأرصدوا له ؛ فلما أتانى سفرت عن وجهى ، فعلم أن ذلك لشر ، فلم يزد على التسليم والرجوع . فقال : لله درك ، فهل رأيت منه شيئاً تكرهينه ؟ فقالت : لا والله الذى أسأله أن يصلحك ، غير أنه قال مرة قولا ظننت أنه قد خضع لبعض الأمر ، وأنشأت تقول :

وذى حاجة قلنا له لا تَبُحْ بها فليس اليها ما حييتَ سبيل
لنا صاحبٌ لا ينبغى أن نخونه وأنت لأخرى صاحبٌ وحليل

فلا والله الذى أسأله أن يصلحك ، ما رأيت منه شيئاً حتى فرق الموت بينى وبينه . قال : ثم مه ؟ قالت ثم لم يلبث أن خرج فى غزاة له ، فأوصى ابن عم له : اذا أتيت الحاضرين من بنى عِبَادة فناد بأعلى صوتك :

عفا الله عنها ، هل أبيتنَّ ليلة من الدهر لايسرى الى خيالها ؟

وأنا أقول :

وعنه عفا ربى وأحسن حاله فعزَّتْ علينا حاجةٌ لا ينالها

قال : ثم مه ؟ قالت : ثم لم يلبث أن مات فأتانا نعيُّه ، قال : فأنشدينا بعض مراثيك فيه ، فأنشدت :

لتبكِ عليه من خَفاجة نسوةٌ بماءِ شئون العبرة المتحدر

ثم استزادها ، فأنشدته .

كأن فتى الفتيان توبة لم ينخْ قلائص يفحصْنَ الحصى بالكراكر[1]

فلما فرغت من القصيدة قال محصن الفقعسى — وكان من جلساء الحجاج ، من الذى تقول هذه هذا فيه ؟ فوالله إنى لأظنها كاذبة . فنظرت إليه ثم قالت : أيها الأمير إن هذا القائل لو رأى توبة لسره ألا تكون فى داره عذراء إلا هى حامل منه . فقال الحجاج ، هذا وأبيك الجواب ، وقد كنت عنه غنياً .

---

(١) جمع كركرة وهى زور البعير .

ثم قال لها : سلى ياليل تعطى ، قالت : أعط فمثلك أعطى فأحسن ؛ قال : لك عشرون ، قالت زد فمثلك زاد فأجمل . قال : لك أربعون . قالت : زد فمثلك زاد فأكمل ، قال : لك ثمانون ، قالت زد فمثلك زاد فتمم ، قال : لك مائة ، واعلمى أنها غنم ، قالت : معاذ الله أيها الأمير ، أنت أجود جوداً وأمجد مجداً ، وأورى زندا من أن تجعلها غنما قال . فما هى ويحك ياليلى ؟ قالت مائة من الإبل برعاتها . فأمر لها بها ثم قال : ألك حاجة بعدها ؟ قالت تدفع إلى النابغة الجعدى ، قال : قد فعلت. وقد كانت تهجوه ويهجوها ، فبلغ النابغة ذلك ، فخرج هاربا عائذا بعبد الملك ، فاتبعته إلى الشام فهرب إلى قتيبة بن مسلم بخراسان ، فاتبعته على البريد بكتاب من الحجاج إلى قتيبة . فمات بقومس ويقال بحلوان :

هذه رواية الأمالى لوفادة ليلى الأخيلية على الحجاج ، ويغلب على الظن أنها وفدت عليه وهو بواسط كما وفد عليه جرير هناك فى بعض الروايات .

أما الذى يعنينا من هذه الوفادة فهو أن الحجاج كان مقصد الوفود ومطلع الجود ، وكان عارفا بالأخبار،فقد سألها عن توبة وأخبر جلساءه أنه مات من حبها ، وعرف أنه قال فيها شعراً واستنشدها هذا الشعر ، فهو أديب مطلع ، ولا تفوته الإشارات الخفية فى الشعر . فانه لما سمع قوله فيها :

وكنت إذا ما زرت ليلى تبرقعت   فقد رابنى منها الغداةَ سفورها

سألها : ما الذى رابه من سفورك ؟

ثم سألها أن تنشده بعض مراثيها فيه ، ثم أعجب بردها القاسى على محصن الفقعسى ثم أعطاها ، ثم وهب لها النابغة الجعدى (وهو صحابى دعا له النبى بخير وقال له ، وقال : لافض فوك بعد أن أنشده قصيدته الرائية التى مطلعها :

خليلى عوجا ساعة وتهجرا

وقال فيها بلغنا السماءَ مجدُنا وجدودنا   وإنا لنرجو فوق ذلك مظهراً

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأين المظهر ياأبا ليلى ، قال الجنة ، فقال له صلى الله عليه وسلم : إن شاء الله).

وروايات الأغانى متعددة ، ولكنها جميعاً تتحدث عن انشادها الحجاج، واستزادته من شعرها ومجازاتها ، وبعضها يقول انه لما سمع قولها:

غلام اذا هز القناة سقاها

قال لها لاتقولى «غلام» ، ولكن قولى «همام» . وكذلك فى الكامل ح ١ ص ٢٠٨ . وذلك دليل على حساسية الرجل وذوقه ، فلفظه من غير شك خير من لفظ ليلى الأخيلية .

ثم أدخلها إلى بعض نسائه فأكرمنها ووصلنها ، ووصلها ابنه محمد كذلك.

اجتماع الشعر عنده :

وكان الشعراء يجتمعون ببابه فقد روى القالى فى الجزء الثانى من أماليه ص ٢٦٠ أن الشعراء اجتمعوا بباب الحجاج ،وفيهم الحكم بن عبدل الأسدى فقالوا : أصلح الله الأمير ، إنما شعر هذا فى الفار وما أشبهه ، قال : ما يقول هؤلاء يابن عبدل ، قال اسمع أيها الأمير ، قال هات ، فأنشده :

وإنى لأستغنى فما أبطَرَ الغِنَى   وأعرِض ميسورى لمن يبتغى عرضى

ومر فيها كثيراً بأخلاقه وصفاته حتى قال :

ولست بذى وجهين فيمن عرفتَه   ولا البخل فاعلم من سمائى ولا أرضى

قال ، فلما سمع الحجاج هذا البيت:

ولست بذى وجهين فيمن عرفته :

فضّله على الشعراء بجائزة ألف درهم فى كل مرة يعطيهم ، ولست أرى فى البيت غرابة ، اللهم إلا الصراحة ، ولعل الحجاج أعجب به من أجل صراحته وبعده عن النفاق ، وهذا يرشدنا إلى أخلاق الحجاج نفسه ، فقد كان صريحاً كذلك .

جرير والفرزدق عنده :

وكان يجتمع عنده كبار الشعراء . كجرير والفُرزدق . وقد روى أنهما

اجتمعا يوما عنده فى قصره بالبصرة فقال لهما : ائتيانى بلباس أبيكما فى الجاهلية فلبس الفرزدق الديباج والخز وقعد فى قبة . وشاور جرير دهاة بنى يربوع فقالوا له : ماللباس آبائنا إلا الحديد ، فلبس جرير درعا ، وتقلد سيفاً ، وأخذ رمحا ، وركب فرساً لعباد بن الحصين يقال له المنْحاز ، وأقبل فى أربعين فارساً من بنى يربوع ، وجاء الفرزدق فى هيئته ، فقال جرير :

لبست سلاحى والفرزدق لعبةٌ عليه وشاحا كُرَّجى[1] وخلاخله
أعدّ مع الحَلْىِ المَلاَبَ[2] فإنما جرير لكم لعلٌ وأنتم حلائله

وقد أراد جرير بهذا أنه فارس من فرسان ، وأن الفرزدق مخنث يتحلى بما يتحلى به النساء .

وماذا يريد الحجاج بذلك ؟ إنه لم يكن يعرف على وجه الدقة ماذا سيفعل كل منهما : ولكنه كان لايشك فى أن طلبه هذا سيثير بينهما مشادة ويبعث فى نفس أحدهما أو كليهما معانى . وسيؤدى بينهما إلى هجاء ، ولعله سيؤدى كذلك إلى شىء ترتاح له نفس الحجاج ، ويستطيع أن يتسلى به ، ويستدل منه على مقدار لباقة كل منهما وحسن تصرفه . وقد كان ؛ فإن مافعله جرير يدل على حسن تخلص بديع ، وأحسن منه أن لم يسكت عن الفرزدق بل جعل مفاخره مساوىء ، وعاب عليه وعلى آبائه أن يتزينوا بزينة النساء فى الجاهلية والإسلام .

صلة الشعراء بالحجاج :

لم تكن صلة الشعراء بالحجاج صلة مدح وإعجاب بسياسته من جانبهم ، ولا صلة تقدير وعطاء من جانبه دائما ، بل كانت بينه وبين بعضهم أحقاد وضغائن ، فكثير منهم ذموا سياسته ، وناصروا أعداءه ، وقالوا فيه هجاء وذماً . وهو قد سمع بمقالهم وأهدر دماءهم ، أوعاقبهم بالسجن أو الضرب ، أو حرمهم

(١) الكرجى المخنث . (٢) الملاب : العطر

العطاء ، أو غفر لبعضهم ذنوبه وجعله من شعرائه ، أو أوفده إلى الخليفة مادحاً .

فإذا كان جرير قد مدحه وأجاد ، وأصاب فى وصف سياسته بالعراق واحتج احتجاجا شديداً لسياسته الشديدة ، وحاول أن يبرر عنفه وقسوته على أهل العراق ، فإنه لم يفعل ذلك من أول الأمر ، وإنما وفد على الحجاج بعد أن أمنه ، وكان أخافه أشد الخوف كما ذكر صاحبه ذيل الأمالى وإن لم يذكر سبباً لذلك ، وليس فى ديوان جرير شعر فى هجاء الحجاج ولا تعرض لسياسته ، فلعله كان يهوى آل الزبير ، ولعل له شعراً فى مدحهم لم أطلع عليه ، والذى كثر فى ديوانه هو تعيير الفرزدق بأن قبيلته أسلمت الزبير بن العوام أو غدرت به . ولم أقف على نص فى غير ذيل الأمالى يدل على أن الحجاج خوف جريراً خوفاً شديدا ثم آمنه . وكل ماترويه الكتب الأخرى أنه وفد عليه مادحاً فأعجب به وأعطاه .

عمران بن حطان :

ومن الشعراء الذين طلبهم الحجاج شاعر عظيم من شعراء الخوارج اسمه عمران بن حطان ، وكان يرى رأى الخوارج القَعَد . وقد اقتصر على الدعوة إلى مذهب الخوارج ، والتحريض بلسانه ، وفتن بمذهب الشراة ؛ فطلبه الحجاج فهرب إلى الشام ، فكتب الحجاج فيه إلى عبد الملك :

« أما بعد ، فإن رجلا من أهل الشقاق والنفاق كان قد أفسد علىَّ أهل العراق وخببهم بالشراية . ثم إنى طلبته فلما ضاق عليه عملى تحول إلى الشام ، فهو يتنقل فى مدائنها وهو رجل ضَرْبٌ طوال أفوه أزرق [1] » .

وقد نزل عمران على روح بن زنباع وانتسب له أزديا . وفى ليلة قال روحٌ لعبد الملك وهو يسمر عنده : ياأمير المؤمنين إن عندى رجلا ماسمعت منك حديثا قط إلا حدثنى به وزادنى ماليس عندى . قال . ممن هو ؟ قال من الأزد . قال إنى لأسمعك تصف صفة عمران بن حطان ، لأنى

---

(١) الضرب : الخفيف اللحم . الطوال : الطويل . الأفوه : واسع الفم .

سمعتك تذكر لغة نزارية وصلاة وزهدا ورواية وحفظا. وهذه صفته.
فقال روح: وما أنا وعمران!

فلما عرف روح صفته من كتاب الحجاج قال: هذه والله صفة الرجل الذى عندى. فقال له عبد الملك: ائتنى به فلما عرف ذلك عمران احتال وهرب، ونزل على زفر بن الحارث بقرقيسيا بالجزيرة، فجعل شباب بنى عامر يتعجبون من صلاته وطولها، وانتسب لزفر أوزاعيا، ثم كاد أمره ينكشف وهو عند زفر فهرب، وقال قصيدته المشهورة.

إن التى أصبحَت يعيا بها زفر　　　أعيت عياء على روح بن زنباع

ثم خرج فنزل بعمان بقوم يكثرون ذكر أبى بلال مرداس بن أدية، ويثنون عليه ويذكرون فضله، فأظهر فضله، ويسر أمره عندهم، فبلغ الحجاج مكانه، فطلبه فهرب، ونزل قريبا من الكوفة وظل هناك حتى مات.

وكان مما كتب به إلى الحجاج وهو هارب ابيات قالها عند ما دخلت غزالة الحرورية، هى وشبيب، الكوفة على الحجاج، فتحصن منها وأغلق عليه قصره، وهذه هى الأبيات:

أسـد علىّ وفى الحروب نعامة　　　ربداء تجفل من صفير الصافر(١)

هلا برزت إلى غزالة فى الوغى　　　بل كان قلبك فى جناحى طائر

وكان الحجاج يخشى خطره وشدة عارضته، فقد كان شاعرا ممتازا شهد له بذلك الفرزدق إذ قال فيه: لو لا أن الله عز وجل شغل عنا هذا برأيه للقينا منه شرا. ويروى أن الشعراء اجتمعوا عند عبد الملك بن مروان، فقال لهم: أبق أحد أشعر منكم؟ قالوا: لا. قال الأخطل: كذبوا يا أمير المؤمنين فقد بق من هو أشعر منهم. قال ومن هو؟ قال عمران ابن حطان. قال وكيف صار أشعر منهم؟ قال لأنه قال وهو صادق ففاقهم، فكيف لو كذب كما كذبوا؟

---

(١) الربداء: المغبرة: تجفل تفزع.

فشهادة الأخطل والفرزدق لعمران شهادة لها قيمتها ، فلو استخدم هذا الشعر فى الدعوة إلى مذهب أفسد على الحجاج أمره ، والحجاج يعرف هذا ويقدره ، لهذا طلبه ولج فى طلبه ولم ينقطع ، إلا أن بعد أن مات الرجل .

العديل بن الفرخ :

العديل بن الفرخ شاعر أموي مقل ولكنه مجيد طلبه الحجاج فهرب منه ثم جاء إليه فعفا عنه ووصله ؛ أما تفصيل ذلك ففيه خلاف ، فمن رواية تقول إنه لما قدم الحجاج البصرة قال العديل :

دعوا الجبن يا أهل العراق فإنما ... يهان ويسبي كل من لا يقاتل
لقد جرد الحجاج للحق سيفه ... ألا فاستقيموا لايميلن مائل
وخافوه حتى القوم بين ضلوعهم ... كنزو القطا ضمت عليه الحبائل
وأصبح كالبازى يقلب طرفه ... على مَرْقَبٍ والطير منه رواحل

فقال الحجاج ـ وقد بلغته ـ لأصحابه ماتقولون ؟ قالوا : نقول إنه مدحك فقال كلا ، ولكنه حرض على أهل العراق . وأمر بطلبه ، فهرب وقال :

أخوَّف بالحجاج حتى كأنما ... يحرك عظم فى الفؤاد مهيض
ودون يد الحجاج من أن تنالنى ... بساط لأيدى الناعجات عريض (١)
مهامهُ أشباه كأن سرابها ... ملاء بأيد الغاسلات رحيض (٢)

وجدَّ الحجاج فى طلبه حتى ضاقت عليه الارض ، فأتى واسطا. وتنكر ، وأخذ رقعة بيده ، ودخل إلى الحجاج فى أصحاب المظالم ، فلما وقف بين يديه أنشأ يقول :

هأنذا ضاقت بى الأرض كلها ... إليك وقد جولت كل مكان
فلو كنت فى ثهلان أو شعبي أجا ... لخلتك ـ إلا أن تصد ـ ترانى

(١) الناعجات : النوق البيض السريعة.

(٢) المهامه جمع مهمه ، وهى المفازة البعيدة . والرحيض : المغسول .

وفى رواية يخشوننى الحجاج ،الأبيات :

فقال له الحجاج : العديل أنت !؟ قال نعم أيها الأمير .

فلوى قضيت خيزران ـ كان فى يده ـ فى عنقه ، وجعل يقول : إيه : بساط لأيدى الناعجات عريض ، فقال : لابساط إلا عفوك . قال اذهب حيث شئت .

وهناك روايات أخرى ترجع سبب طلب الحجاج له إلى جناية جناها، وأنه هرب إلى قيصر الروم ، فهدد الحجاج قيصر بالغزو أويردالعديل،فرده واعتذر الرجل إلى الحجاج فعفا عنه ، وتحمل دية جنايته .

وأخرى تقول إنه خرج يريد الحجاج فمنعه الحاجب ، فنازعه العديل، ثم ذهب إلى يزيد بن المهلب فلما وصل إليه قال :

لئن أرْتـجَ الحجاج بالبخل بابـه فبابُ الفـتى الأزدىّ بالعُـرف يفتحَ
فتى لايبالى الدهرَ ما قلّ مالـه إذا جعلت أيدى المكارِم تسنَحُ

إلى أن يقول معرضا بالحجاج :

وليس كعِـلْج من ثمود ، بكفّـه من الجود والمعروف حزم مُطـرّحُ

فقال له يزيد عرضت بنا وخاطرت بدمك ، وبالله لا يصل إليك وأنت فى حيزى ، ثم أمرله بخمسين ألف درهم . وأمرله بأفراس . وقال له : الحق بعلياء نجد . واحذر أن تعلقك حبائل الحجاج ، أو تحتجنك محاجنه ، وابعث إلى فى كل عام ، فلك على مثل هذا . فارتحل ، وبلغ الحجاج خبره فأحفظه ذلك على يزيد . وطلب العديل ففاته . ولما نجا قال .

ودون يد الحجاج من أن تنالنى بساط لأيدى اليعملات عريض

ثم ظفر به الحجاج بعد ذلك ، فقـال ، إيه ، أنشدنى قولك: «ودون يد الحجاج من أن تنالنى» . فقال : لم أقل هذا أيها الأمير ، ولـكنى قلت :

إذا ذُكرَ الحجاجُ أضمرْتُ خيفـةً لهـا بين أحنـاء الضلوع نفيض

فتبسم الحجاج ، وقال : أولى لك ، وعفا عنه ، وفرض له .

وفى رواية أخرى أنه لماهرب ، ونبا به كل مكان هرب اليه ، نزل فى بكر بن وائل مستجيرا ، فاجتمعت وجوههم وذهبوا إلى الحجاج فقالوا : أيها الأمير انا قد جنينا جميعا عليك جناية لايغفر مثلها ، وها نحن قد استسلمنا ، وألقينا بأيدينا إليك ، فإما وهبت فأهل ذلك أنت ، وإما عاقبت فكنت المسلط ، فتبسم الحجاج ، وقال : قد عفوت عن كل جرم إلا جرم الفاسق العديل ، فقاموا على أرجلهم ، فقالوا : مثلك أيها الأمير لايستثنى على أهل طاعته وأوليائه فى شىء ، فان رأيت ألا تكدر منتك باستثناء ، وأن تهب لنا العديل فى أول من تهب . قال : قد فعلت فهاتوه قبحه الله ، فأتوا به ، فلما مثل بين يديه أنشأ يقول :

فلو كنت فى سلمى أجاً وشعابها لكان لحَجاج على دليـــل
بنى قبة الاســـلام حتى كأنما هدى النّاسَ من بعد الضلال رسول

وذكر صلة الحجاج بالخليفة ، وأن الله نصره به ، وأنه جازى أصحاب البـــلاء ثم قال :

وماخفت شيئا غير ربى وَحْدَهُ إذا ما انتحيت النفس كيف أقول
ترى الثقلين الجن والإنس أصبحا على طاعة الحجاج حين يصول

فقال له الحجاج قد نجوت ، وفرض له وأعطاه .

ومهما اختلفت الرواية وظهر فى بعضها الضعف أو القوة ، فغايتنا من ذكرها واضحة ، وهى أن الحجاج كان عاملا مهماً من العوامل التى أثرت فى الشعر ، وبعثته قويامن صدور حانقة عليه ، أو خائفة من عقابه ، فهى تمدحه ، أو تعتذر إليه ، وهو يقبل المدح أو الاعتذار ، ويجازى بالعطاء إذا رضى ، وهو رجل يقظ حذر ، حساس من جهة الشعر ، يصل إليه كل ما يتعلق به ، ويقدره ، ويعرف موقعه من نفسه ونفوس النـاس ، فيخشى أمثال عمران لخطر مذهبه وقوة شعره ، ويطلبه فى كل مكان لئلا يفسد الناس عليه بهذا الشعر السائر المشهود له ، ويغيظه انتصار العديل عليه بالهرب ، وفراره من يده . لكنه لا يرى ذنبه أجل من العفو ، فإذا اعتذر العديل فلا بأس من

قبول عذره ، لأن شعره لا خطر منه على السياسة العامة للدولة ، وإذا كان شعره تحريضا لأهل العراق ، فلم يفهم ذلك إلا الحجاج ، أما غيره ممن سألهم فقد فهموا أن العديل يمدحه ، ومثل هذا الشعر البعيد المرمى ليس من السَّهل أن يثير ؛ لأنه لا يفهم مرماه إلا الخواص فلا يخشى منه . بخلاف شعر عمران .

غيرة الحجاج :

وكان الحجاج رجلا حريصا على الأعراض، لايحب أن يعبث بها الشعراء، وأدرك جرير هذا فقال :

أم من يغار على النساء حفيظةً إذ لا يثقن بغيرة الأزواج؟

ويؤيد ذلك أن بنتا لعبد الملك حجت ، وكانت تحب أن يقول عمر بن أبي ربيعة شعراً يذكرها فيه ، فتوعده الحجاج بكل مكروه ، فلم يتعرض لها خوفا من الحجاج ، فسخطت ، ولكن ابن أبي ربيعة خاطر من أجلها، فقال فيها شعراً مؤدبا هي وجواريها ، وجعلت هي لمن يأتيها بهذا الشعر عشرة دنانير عن كل بيت ، فجاءت إليها الأبيات بعد انصرافها من الحج وبدون علم الحجاج :

النميري وزينب أخت الحجاج :

وكانت أخته زينب بنت يوسف عرضة للشعر كذلك ، ولكنه مع عفته وأدبه ، لم يمنع الحجاج من أن يهدد قائله ، ولولا الخليفة عبد الملك لنال قائله من أذى الحجاج ما هو أهله :

أما صاحب هذا الشعر فهو محمد بن عبد الله النميري الثقفي ، وكان يشبب بزينب هذه والحجاج صغير ، فكان يتوعده ويتهدده ، فلما صار قائدا لجيش الخليفة في الحجاز في حرب ابن الزبير ، ذهب أبوه إلى عبد الملك ، وقال له : ياأمير المؤمنين : إن غلاما منا قال في ابنتي زينب ما لا يزال الرجل يقول مثله في بنت عمه ، وإن هذا — يعني ابنه الحجاج — لم يزل يتنوق إليه ويهم به ، وأنت الآن تبعثه إلى ما هناك ، وما آمنه عليه ، فدعا بالحجاج فقال له : إن محمدا النميري جاري ، ولا سلطان لك عليه ، فلا تعرض له .

فلما قتل الحجاج ابن الزبير ، وجلس يدعو الناس للبيعة تأخر النميرى حتى كان فى آخرهم، فدعا به ثم قال له : إن مكانك لم يخف علىّ : ادنُ فبايع . وسأله عن أبياته فى زينب ، فقال : أيها الأمير ما قلت إلا كرما وخيرا وطيبا، ومن قصائده فيها :

تضوّع مسكا بطن نَعمان إذ مشت ... به زينب فى نسوة عطرات [1]
تهادين ما بين المحَصَّب من منىً ... وأقبان لا شُعْثا ولا غبرات [2]
أعان الذى فوق السموات عرشه ... مواشى بالبطحاء مؤتجرات .
مرون بفخ [3] ثم رُحْنَ عشية ... يلبين للرحمن معتمرات
يخبئن أطراف البنان من التقى ... ويخرجن جنح الليل مُعتجرات [4]
تقسمن لبى يوم نعمان إننى ... رأيت فؤادى عادم النظرات
جلون وجوها لم تلحها سمائم ... حرورٌ ولم يسفعن بالسَّبرات [5]
فقلت يعافير الظباء تناولت ... يَناعَ غصون الورد مُهتصرات [6]
ولما رأت ركب النميرى راعها ... وكنّ منَ انْ يلقينه حذرات
فكدت اشتياقا نحوها وصبابة ... تقطعُ نفسى إثرَها حَسرات

ويقا إن الحجاج استنشد النميرى هذه القصيدة بعد أن أمنه ، فلما قال تضوع مسكا بطن نعمان : البيت .

قال له الحجاج كذبت ، والله ما كانت تتعطر إذا خرجت من منزلها ، ثم أنشده :

ولما رأت ركب النميرى راعها : قال له : حق لها أن ترتاع لأنها من نسوة خفرات صالحات ، فلما قال :

مررن بفخ رائحات عشية . قال له صدقت : لقد كانت حجاجة صوامة ،

---

(١) نعمان بفتح النون اسم واد . (٢) المحصب مكان رمى الجمرات فى منى .

(٣) موضع بمكة . (٤) يغطين رءوسهن .

(٥) السمائم جمع سموم وهى الريح الحارة . لم يسفعن . لم تضربهن الريح الباردة .

(٦) اليعافير جمع يعفور وهو الظبى لونه كلون التراب . مهتصرات ملوية أو مكسورة .

ثم أنشده :

يخبئن أطراف البنان من التقى . البيت

فقال له : صدقت ، هكذا كانت تفعل ، وهكذا المرأة الحرة المسلمة . ثم قال له : ويحك ، إنى أرى ارتياعك ارتياع مريب ، وقولك قول برىء! وقد أمنتك .

وكان الحجاج يقول : لولا أن يقول قائل صدق ، لقطعت لسانه ، ويروى أن محمدا النميرى هذا هرب من الحجاج إلى اليمن وركب بحر عدن ، وقال فى هروبه أبياتا منها :

أتتنى عن الحجاج والبحر بيننا ... عقارب تسرى والعيون هواجع[1]

فضقت بها ذرعا وأجهشت خيفة ... ولم آمن الحجاج والأمر قاطع

وما أمنت نفسى الذى خفت شره ... ولا طاب مما قد خشيت المضاجع

ثم يقول :

إذا شئت مناًى لا أبالك واسع ... وفى الأرض ذات العرض عنك ابن يوسف

فإن نلتنى حجاج فاشتف جاهدا ... فإن الذى لا يحفظ الله ضائع

ثم اشتد به الشوق إلى وطنه، فجاء حتى وقف على رأس الحجاج ، فقال له : إيه يا نميرى ، أنت القائل :

فإن نلتنى حجاج فاشتف جاهدا .

فقال : بل أنا الذى أقول :

أخاف من الحجاج ما لست خائفا ... من الأسد العرباض لم يثنه ذعر[2]

أخاف يديه أن تنالا مقاتلى ... بأبيض عضب ليس من دونه ستر[3]

ثم أمنه الحجاج وخلى سبيله ، وأراد أن يتندر به فقال له : أخبرنى عن قولك :

---

(١) العقارب : النمائم والوشايات .

(٢) الأسد العرباض : الثقيل العظيم

(٣) العضب القاطع

ولما رأت ركب النميرى أعرضت   وكن منَ ان يلقينه حذرات

ما كنتم ؟ قال : كنت على حمار هزيل ومعى صاحب لى على أتان مثله .

ويروى أن هربه كان إلى عبد الملك ، وأنه هو الذى سأله : وما كان ركبك يا نميرى ؟ قال أربعة أحمرة لى كنت أجلب عليها القطران ، وثلاثة أحمرة صحبتى تحمل البعر ، فضحك عبد الملك حتى استغرب ضحكا ، ثم قال : لقد عظمت أمرك وأمر ركبك !

نستطيع أن نخلص من هذه الروايات إلى حقائق تهمنا فى هذا الموضوع ، فالنميرى قد شبب بزينب بنت يوسف أخت الحجاج ، ما فى ذلك خلاف ، والحجاج قد غضب لذلك ، وخاف النميرى غضبته . وقال شعراً يترضى به الحجاج فرضى عنه ، فالشعر قد أغار الحجاج وأثاره ، والشعر وحده أومع شفاعة أخرى . قد ترضى الحجاج وجعله يعفو . ولا يثور الحجاج للشعر إلا لأنه يعلم سير ورته ، ويعلم خطره على سمعة أخته ، ولا يرضى الحجاج إلا لأن الشعر قد أرضاه لما فيه من اعتذار . ولما هو عليه من رقة وعفة ولطف تعبير ، وقوة أثر فى نفس الحجاج .

مع كعب الاشقرى :

وممن خاف سطوته من الشعراء كعب الأشقرى ، وكان من شعراء المهلب ، واستبطأ الحجاج المهلب ، وأرسل إليه رسولا يستحثه على مناجزة الأزارقة ، فغضب المهلب وكتب إليه يستعفيه ، وكتب إلى عبد الملك بما كان من الحجاج إليه ، فكتب عبد الملك إلى الحجاج ألا يعارضه فيما يراه ، وأنشد كعب الأشقرى أبياتا بحضرة رسول الحجاج يقول فيها :

إن ابن يوسف غره من غزوكم   خفض المقام بجانب الأمصار[1]
لو شاهد الصفين حين تلاقيا   ضاقت عليه رحيبة الأقطار

---

(١) طيب المقام .

ورأى معاودة الرِّباع غنيمـــة أزمانَ كانَ مُحالفَ الإقتار (١)

فبلغت أبياته الحجاج ، فكتب إلى المهلب يأمره بأشخاص كعب اليه ، فأعلم المهلب كعباً بذلك ، وأوفده إلى عبد الملك يستوهبه منه ، فجاءه ومدحه فأعجب به . ثم أوفده إلى الحجاج ، وكتب إليه يقسم عليه أن يعفو عنه ، ويعرض عما بلغه من شعره ، فلما وصل إليه ودخل عليه قال : إيه يا كعب :

ورأى معاودة الرباع غنيمة .

فقال له : أيها الأمير ، والله لقد وددت فى بعض ما شاهدته فى تلك الحروب وأزَماتها ، وما يوردنا المهلب من خطرها ، أن أنجو منها وأكون حجاما أو حائكا . فقال له الحجاج : أولى لك ، لولا قسم أمير المؤمنين لما نفعك ما أسمع .

ولقى البلاء من الحجاج شعراء آخرون بعضهم سُجن ، وبعضهم هرب، ومن الغريب أن الحجاج كان سبباً فى أن جادت قرائحهم بأرق الأشعار فى الاعتذار أو الشكوى ، أوأن انطلق لسانهم بهجاء الحجاج .

مع مالك بن الريب وجحدر :

ومن هؤلاء مالك بن الريب المازنى أحد بنى مازن بن مالك بن عمرو بن تميم، وقد تقدمت أبياته فى هجاء الحجاج ونحن نتحدث عن ترجمته ، وأنه كان معلم صبيان بالطائف .

ومنهم كذلك شاعر آخر يقال له سَوَّار بن المضرِّب . وهو أحد من هرب من الحجاج وفى ذلك يقول :

أقاتِلىَ الحجاج أنْ لم أزُرْ لَهُ دَرَابِ وأتركُ عند هندٍ فؤاديا

---

(١) معاودة الرباع : العودة إلى رعى الابل التى تنتج فى الربيع : واحدها ربع كصرد . ويروى الدباغ. الاقتار : الضيق والفقر .

فإن كان لا يرضيك حتى تردنى ... إلى قطرى لا إخالك راضيا
أيرجو بنو مروان سمعى وطاعتى ... وقومى تميمٌ والفلاة ورائيا ؟

ومنهم جَحدَر العكلى ، وكان لصاً فحبسه الحجاج ، فقال فى ذلك قصيدة من أرق الشعر وأمتنه وآخذه بالقلوب . يقول فيها

أليس الله يعلم أن قلبي ... يحبك أيها البرق اليمانى
وأهوى أن أرد إليك طرفى ... على عُدَواء من شُغُلى وشانى[1]

ومما هاجنى فازددت شوقا ... بكاءُ حمامتين تجاوبان
تجاوبتا بلحن أعجمى ... على غصنين من غرب وبان[2]
فكان البان أن بانت سليمى ... وفى الغرْب اغتراب غير دان
أليس الليل يجمع أم عمرو ... وإيانا فذاك لنا تدانى
نعم وترى الهلال كما أراه ... ويعلوها النهار كما علانى

فياأخوى من كعب بن عمرو ... أقلا اللوم إن لم تنفعانى
إذا جاوزتما سعَفَات حجْر ... وأودية اليمامة فانعيانى[3]
وقولا جحدر أمسى رهينا ... يحاذر وقع مصقول يمانى
يحاذر صولة الحجاج ظلماً ... وما الحجاج ظلام لجانى
إلى قوم إذا سمعوا بقتلى ... بكى شبانهم وبكى الغوانى
وإن أهلك فرب فتى سيبكى ... علىَّ مخضب رخْص البنان
ولم أك قد قضيت حقوق قومى ... ولا حق المهند والسنان

وكانت لسجون الحجاج نفثات يرسلها الشعراء، فتسير فى الآفاق والعصور؛ فقد حبس عيَيْنَة بن خارجة بن حصن الفزارى فى جبايات كانت له ، وكتب إلى أخيه مالك بن أسماء يعلمه بذلك ، وهو يظن أنه يسره ، لأن مالكا كان

---

(١) العدواء : الشغل يصرفك عن الشىء : أى مع وجود ما يشغلنى .

(٢) الغرب شجرة شائك والبان شجر معتدل السيقان والفروع تشبه به النساء فى اعتدال القامة ولينها .

(٣) السعفات جمع سعفة وهى الجريدة وحجر اسم مدينة باليمامة .

واجداً على عُيَيْنَةَ ، فلما قرأ مالك كتاب الحجاج قال:

ذهب الرقاد فما يُحَسّ رقاد ... مما شجاك ومَلَّت العُوّادُ
خبر أتانى عن عُيَيْنَةَ مُوجِعٌ ... كادت تقطَّع عنده الأكباد
بلغ النفوسَ بلاؤُه فكأننا ... موتى ، وفينا الروح والأجساد
يرجون غِرَّةَ جدِّنا ولو انهم ... لا يدفعون بنا المكاره بادوا[1]
لما أتانى عن عُيَيْنَةَ أنه ... أمست عليه تظاهرُ الأقيادُ[2]
نخلتْ له[3] نفسى النصيحة إنه ... عند الشدائد تذهب الأحقاد
وعلمتُ أنى إن فقدتُ مكانه ... ذهب البعادُ فكان فيه بعادُ
ورأيت فى وجه العدو شكاسةً[4] ... وتغيرتْ لى أوجهٌ وبلاد

ومن ذاق مرارة السجن على يد الحجاج مالك بن أسماء هذا — أخو عيينة — وكان الحجاج زوج أختهما ، وقد وصى ألا يشرب مالكٌ فى سجنه الماء إلا ممزوجا بالرماد والملح ، ومع هذا فقد كان الحجاج يشتاق إلى حديثه . فأرسل إليه يوما فأحضر ؛ فبينا هو يحدثه إذ استسقى ماء ، فأتى به ، فلما نظر إليه الحجاج قال : لا ، هات ماء السجن فأتى به ، وقد خلط بالملح والرماد فسقيه .

وقد هرب مالك من سجنه ، وكتب إلى أبيه أسماء بن خارجة أن يدخل على الحجاج ويسأله فى أمره ، فقال أسماء فى ذلك .

أبنى فزارة لا تُعَنُّوا شيخكم ... ما لى وما لزيارة الحجاج
شبهته شبلاً غداةَ لقيتُه ... يلقى الرءوس شواخب الأوداج[5]
تجرى الدماءُ على النطوع كأنها ... راحٌ شمولٌ غيرُ ذات مزاج[6]
لا تطلبوا حاجاً إليه فإنه ... بئس المؤمَّل فى طلاب الحاج
ياليت هنداً أصبحت مرموسة[7] ... أو ليتها جلست عن الأزواج

---

(١) يرجون عثرة حظنا .
(٢) الأقياد جمع قيد .
(٣) نخلت النصيحة : قدمتها خالصة .
(٤) الشكاسة : صعوبة الأخلاق والتنكر .
(٥) شواخب الأوداج : عروق رقبتها تقطر دما .
(٦) النطوع جمع نطع وهو الأديم من الجلد ونحوه يقتل عليه الميت لئلا يتفرق دمه . والراح الخمر والمزاج الخلط بالماء .
(٧) ميتة مدفونة .

وقد طلب مالك بن أسماء فعاتبه عتابا طويلا ، ثم قال له : أنت كما قال أخو بنى جعدة :

إذا ما سوءَةٌ غرّاءُ ماتت ... أتيت بسوءة أخرى بهيم [١]
وما تنفك ترْحضُ كل يوم ... من السوءات كالطفل النهيم [٢]
أكلَّ الدهر سعيك فى تباب ... تناغى كل مومسة أثيم ؟ [٣]

فقال له : لست كما قال الجعدى ، ولكنى كما قلت .

لكل جواد عثرة يستقيلها ... وعثرة مثلى لا تقال مدى الدهر
فهبنى ياحجاج أخطأت مرة ... وجُرتُ عن المثلى وغنيت بالشعر
فهل لى إذا ما تبت عندك توبةً ... تدارك ما قد فات فى سالف العمر؟

فقال له الحجاج : بلى والله ، لئن تبت لأقبلن توبتك ، ولأعفّينّ على ما كان من ذنبك ، ومن لى بذلك يامالك ؟ قال له : لك الله به . قال : حسبى الله ونعم الوكيل ، فانظر ما تقول . قال : الحقُّ أصلحك الله لا يخفى على أحد . ثم ترك الشراب وأظهر النسك ووفى بعهده مدة ، ثم طما به الشعر ، وطال عليه ترك اللذات فعاودها ، وبلغ الحجاج خبره وشعره فى ذلك ، فقال : لا يأتى مالك بخير .

وهذا غريب من الحجاج ، فهو يعامل أصهاره معاملة قاسية ، ويشتد عليهم شدة مؤلمة ، ولا يرعى للصهر حقا ولا يعرف له واجبا ، فقد أساء إلى يزيد ابن المهلب أعظم إساءة وعذبه أشد العذاب ، وكان زوجا لأخت يزيد ، ونحن نرى الآن شدته على مالك بن أسماء ، ونرى رأى أسماء بن خارجة كذلك فيه ، فهو يراه ضاريا سفاكا تلذ له رؤية الدماء ، ولا يرضى أن يستشفع لابنه مالك عنده ، وهو زوج هند بنت أسماء هذا ، وأخت مالك وعينة

---

(١) السوءة : العيب . والغراء الواضحة ، والبهيم : السوداء .
(٢) المقصود بالرحض هنا الشرب . والنهيم : الشره .
(٣) التباب النقص والخسار . والمومسة : الفاجرة .

لعل هذا الزواج من نوع الزواج السياسى الذى لا ينبنى على حب ولا عاطفة، ولكن تدفع إليه المصلحة ، لهذا هانت حقوق الأصهار فيه ، وضعفت الصلات بين الحجاج وأصهاره عند الضرورة ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

الشعر فى أحزانه :

كان الحجاج رأى فى منامه أن عينيه قلعتا ، فطلق هندا بنت اسماء بن خارجة وهندا بنت المهلب[1] . وظن ذلك يفسر حلمه ، ولكنه لم يلبث أن جاءه نعى أخيه محمد من اليمن، فى اليوم الذى مات فيه ابنه محمد ، فقال . هذا والله تأويل رؤياى . ثم قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون » محمد ومحمد فى يوم واحد !.

حسبى بقاءُ الله من كل ميت وحسبى رجاءُ الله من كل هالكِ
إذا كان رب العرش عنى راضياً فإن شفاءَ النفس فيما هنالكِ

ثم طلب من يقول شعراً يسليه به ، فقال الفرزدق :

إن الرزية لارزية مثلها فقدانُ مثل محمدٍ ومحمد
مَلِكَان قد خلت المنابر منهما أخذ الحِمَام عليهما بالمَرْصَد

فقال : لو زدتنى ! فقال الفرزدق :

إنى لباك على ابنَىْ يوسف جَزَعاً ومثل فقدهما للدين يُبْكينى
ماسدَّ حىٌّ ولا ميتٌ مسدَّهما إلا الخلائفَ من بعد النبيئينِ

فقال له : ماصنعت شيئاً ، إنما زدت فى حزنى . فقال الفرزدق :

لئن جزع الحجاج مامن مصيبة تكون لمحزون أجل وأوجعا
من المصطفى والمصطفَى من خيارهم جناحيه لما فارقاه فودعا
أخ كان أغنى أيمنَ الأرض كلَّه وأغنى ابنُه أهل العراقين أجمعا
جناحا عُقابٍ فارقاه كلاهما ولو نزعا من غيره لتضعضعا

---

(١) سبق أن طلقها لما صاحت وهو يندب أخاها يزيد : ولا مانع من تظاهر السببين .

فقال : الآن !

ومات له ابن آخر من هند بنت النعمان بن بشير واسمه ابان ، فوقف على قبره فتمثل بقول زياد الأعجم :

الآن لما كنت أكمل من مشى وافتر ثغرك عن شباة القارح[1]

وتكاملت فيك المروءة كلها وأعنت ذلك بالفعال الصالح !

فلما انصرف إلى منزله ، قال : أرسلوا خلف ثابت بن قيس الأنصارى ، فأتاه فقال : أنشدنى مرثيتك فى ابنك الحسن ، فأنشده ، فقال له الحجاج : ارث ابنى أبان . فقال له : إنى لا أجد به ما كنت أجد بابنى . قال : وما كنت تجد به ؟ قال : ما رأيته قط فشبعت من رؤيته ، ولا غاب عنى قط إلا اشتقت إليه . فقال الحجاج : كذلك كنت أجد بأبان !.

رغبة فى المديح :

وكان الحجاج يحب المدح ويتوقعه من أوليائه وعماله، وبخاصة الشعراء منهم: روى الأغانى بسنده قال : دعا الحجاج بن يوسف يزيد بن الحكم الثقفى، فولاه كورة فارس ، ودفع إليه عهده بها . فلما دخل عليه ليودعه قال له الحجاج : أنشدنى بعض شعرك ، وإنما أراد أن ينشده مديحاً له ، فأنشده قصيدة يفخر فيها ويقول :

وأبى الذى سلب ابن كسرى راية بيضاء تخفق كالعقاب الطائر .

فلما سمع الحجاج فخره نهض مغضبا ، وخرج يزيد من غير أن يودعه . فقال الحجاج لحاجبه : ارتجع منه العهد ، فاذا رده فقل له : أيهما خير لك ، ماورثك أبوك أم هذا ؟ فرد يزيد على الحاجب العهد ، وقال : قل له :

وورثتُ جدى مجدَه وفعَاله وورثت جدك أعنُزاً بالطائف

وخرج عنه مغضباً فلحق بسليمان بن عبد الملك ومدحه بقصيدة أولها أمسى بأسماء هذا القلب معموداً .

---

(١) الشباة الحد ، والقارح المسن . والمقصود . وبدت عليك علامات النجابة .

يقول فيها :

سمّيتَ باسم امرىء أشبهتَ شيمته عدلا وفضلا سليمانَ بنَ داودا

فلما أتمها قال له سليمان : وكم كان أجرى لك لعمالة فارس ؟ قال : عشرين ألفا . قال : فهى لك علىّ ما دمتُ حيا . والعلائق بين سليمان والحجاج كانت منقطعة ، فلهذا أكرم يزيد بن الحكم كما آوى يزيد بن المهلب ، وشفع له عند أخيه الوليد . وغضب الحجاج هـذا يذكرنا بغضب سليمان ابن عبد الملك على الفرزدق فى وفادته عليه ، وقد توقع سليمان أن يمدحه الفرزدق ففخر بآبائه . وقال :

وركب كأن الريح تطلب عندهم لها ترةً من جَذْبها بالعصائب

إذا استوضحوا نارا يقولون : ليتها ـ وقد خَصِرَتْ أيديهمُ ـ نار غالب

فغضب سليمان من فخره . وكان النُّصَيْبُ حاضرا فأنشد سليمان :

أقول لركب قافلين لقيتُهم قفَا ذاتِ أوشالٍ ومولاكَ قارب

قفوا خبرونى عن سليمان إننى لمعروفه من أهلِ وَدّانَ طالب

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

فقال سليمان : ياغلام : أعط النصيب، وألحق الفرزدق بنار أبيه ، فخرج الفرزدق وهو يقول :

وخير الشعر أشرفه رجالا وشر الشعر ما قال العبيد

والحق أن حب الثناء طبيعة ، فما بالك بالخلفاء والولاة ، وخصوصا إذا كان لهم فضل يرتجى ، أو معروف يشكر ! لقد أساء يزيد إذ لم يمدح ، وكذلك الفرزدق . ولعل من الناس من يرى فى عملهما احتفاظا بالكرامة ، وترفعا عن التملق ، والقول الذى لا يرضاه الضمير . وهذا نبل حقا ، ولكن يزيد قد ولى عملا ، أفلا يشكر موليه ؟ ولم وفد الفرزدق على سليمان ؟ أليخبره بنار أبيه وشهرتها ، وأنها موئل المقرور ، وقد خصرت يداه من شدة البرد ؟ لقد أخطأ كل من يزيد بن الحكم والفرزدق مافى ذلك شك ،

وكان يمكن أن يمدحا أو يشكرا ، بمالا يؤخذ عليهما ، وكان يمكن أن يقولا للمحسن المتفضل : شكراً لك ، فى عزة واحتفاظ بالكرامة .

معرفة الحجاج بالرجال :

قدمنا أن الحجاج قد أساء إلى كثير من رجالات بنى أمية عمالا وقوادا وولاة وأهل علم وفقه ، كالمهلب ويزيد ابنه ، وابن الأشعث وسعيد بن جبير؛ لأنه كان يرى لهم ـ مع فضلهم ـ من الذنوب مايبرر إساءته إليهم كما تقدم ، ولكنه إذا بعد عن دائرة السياسة ، واتصل بالناس خارجا عن محيطها قدرهم حق قدرهم ولو كانوا من أبناء العجم؛ فإنه عندماجيء إليه بابن جبير بعد هزيمة ابن الأشعث . بين له سابق إكرامه له ، كما ذكرناه .

والقصة التالية شبيهة بقصة ابن جبير؛ فإن ابن عبد ربه يروى [1] أن الحجاج أمر ألا يؤم بالكوفه إلا عربى . وكان يحيى بن وثاب يؤم قومه بنى أسد ، وهو مولى لهم . فقالوا : اعتزل . فقال : ليس عن مثلى نهىَ ؛ أنا لاحقٌ بالعرب . فأبوا . فأتى الحجاجَ فقرأ ، فقال : من هذا ؟ فقالوا يحيى بن وثاب . قال : ماله ؟ قالوا أمرتَ ألا يؤم إلا عربى ، فنحاه قومه ، فقال ليس عن مثل هذا نهيتُ ، يصلى بهم . قال : فصلى بهم يحيى يوما . ثم قال : اطلبوا إماما غيرى ، إنما أردت ألا تستذلونى؛ فأما إذ صار الأمر إلى فأنا أؤمكم ؟ لا ، ولا كرامة !

وطلب الشعبيَّ بعد دير الجماجم — وكان الشعبى فيمن خرج ، فلما اعتذر عن خروجه مع ابن الأشعث اصطفاه لنفسه ، وكان مستشاره فى المسائل الفقهية ، ثم طلب عبد الملك من الحجاج أن يبعث إليه رجلا يصلح للدين والدنيا ليتخذه سميرا وجليساً وخلياً ، فقال الحجاج : ماله إلا عامر الشعبى ،

---

(١) فى العقد ح ١ ص ٢٧٤ .

فلما وفد على عبد الملك وجد عنده ما أراد ، فكان اختيار الحجاج موفقاً ، ورأيه فى الشعبي صواباً [1] .

واختياره لرجل يوليه شرطته ، والصفات التى أرادها متوفرة فيه دليل كذلك على حسن تقديره [2]

وكاتبه [3] وكان له كاتب اسمه يزيد بن أبى مسلم من الموالى ، كان مولى الحجاج وكان فيه كفاية ونهضة ، قدمه الحجاج بسببهما . ولما حضرته الوفاة استخلفه على الخراج بالعراق ، فلما مات أقره الوليد ولم يغير عليه شيئاً . وقالوا إن الوليد قال يوماً : مثلى ومثل الحجاج وابن أبى مسلم كرجل ضاع منه درهم فوجد ديناراً

وتلك شهادة من الوليد تؤيد أن الحجاج كان يحسن اختيار رجاله ، وكانت له معرفة بالرجال ، لا يختارهم لحسن هيئتهم ولا لكرم أصلهم ، وإنما يختارهم لغَنَائهم وكفايتهم .

وقد كان يزيد هذا يعرف قدر نفسه كذلك ، على الرغم من قبح منظره . يروى ابن خلكان أن سليمان بن عبد الملك عزله ، وأمر أن يرسل إليه فى جامعة ، وكان رجلا قصيراً دميما قبيح الوجه عظيم البطن ، تحتقره العين ، فلما نظر اليه سليمان قال : أنت يزيد بن أبى مسلم ؟ قال نعم ، أصلح الله أمير المؤمنين ، قال : لعن الله من أشركك فى أمانته ، وحكمك فى دينه . قال : لا تفعل ياأمير المؤمنين ، فانما رأيتنى والأمور عنى مدبرة ، ولو رأيتنى والأمور مقبلة لاستعظمت ما استصغرت ، ولاستجللت ما استحقرت .

فقال سليمان : قاتله الله ! ما أشد عقله وأعضب لسانه !

---

(١) عقد ج ١ ص ٩٨ . (٢) ص ١٢٦ من هذا الكتاب . (٣) ابن خلكان ٣٦٥ ج ٢

رأى النـاس فيه

كثرُ الـكلام فى الحجاج ومصيره يوم القيامة ،بسبب ما قدم فى هذه الدنيا من أعمـال . وما يأخذه عليه أعداؤه ، وأصحاب الآراء السيئة فيه هو أنه أسرف فى القتل ، ولم يعرف حدا يقف عنـده فى تأيد سلطان عبـد الملك وابنه الوليد ، فقتل ابن الزبير وهو صحابى جليل ، واعتدى فى الشهر الحرام ،والبلد الحرام ، ورمى الـكعبة حتى تصدعت . وأساء الأدب فى حق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمن يطوفون بقبره ، « إنمـا يطوفون برمة وأعواد » . وجعله بعضهم فاسقا ، وبعضهم كفره ، وحـكم عليه بالخروج عن الإسلام بهذه الأفعال.

فقد روى عن عمر بن عبدالعزيز [١] أنه قال: لوجاءت كل أمة بمنافقيها وجئنا بالحجاج لفضلناهم .

وحلف رجل بطلاق امرأته أن الحجاج فى النـار ، فأتى امرأته فمنعته نفسها . فسأل الحسن بن أبى الحسن البصرى ، فقال : لاعليك يابن أخى ، فإنه إن لم يكن الحجاج فى النار ، فاعليك أن تـكون مع امرأتك على زنا.

وقيل للشعبي : يزعم النـاس أن الحجاج مؤمن ، قال مؤمن بالجبْتِ والطاغوت ، كافر بالله

وذهب قوم إلى مجاهد [٢] فقالوا إنا قـد اختلفنا فى الحجاج ، فقال : أجئتم تسالونني عن الشيخ الكافر ؟

وقال القاسم بن محمد : كان الحجاج ينقض عرى الإسلام عروة عروة .

وعن عطاء بن السـائب : قال : كنت جالسا مـع أبى البخترى والحجاج يخطب، فقال فى خطبته : إن مثل عثمان عند الله كمثل عيسى بن مريم ، قال الله فيه : إنى مُتَـوَفِّيكَ وَرافِعُـكَ إلَيَّ ومُطَـهِّـرُكَ من الذين كفروا، وجاعلُ

---

(١) عقد ج ٣ ص ٢٥٣ (٢) عقد م ص ٢٥٤

الذين اتّبعوكَ فوقَ الذين كفروا إلى يوم القيامة » فقال أبو البخترى : كفر ورب الكعبة ». ونسب إليه أنه كتب إلى عبد الملك يعظم أمر الخلافة، ويزعم أنه ماقامت السموات والأرض إلا بها، وأن الخليفة عند الله أفضل من الملائكة المقربين ، والأنبياء والمرسلين . وأنه احتج لذلك بأن الله خلق آدم بيده، وأسجد له الملائكة، وأسكنه جنته ، ثم أهبطه إلى الأرض وجعله خليفة ، وجعل الملائكة رسلا إليه، وأن عبد الملك أعجب بذلك .

ويروى أن عمر بن عبد العزيز تكلم يوما فقال : الوليد بالشام ، والحجاج بالعراق ، وقرة بن شريك بمصر ، وعثمان بن حيان بالحجاز . ومحمد بن يوسف باليمن ! امتلأت الأرض والله جورا .

ولكن هذه الروايات والأحاديث فيها من الغموض أو الضعف مالا بد من الإشارة إليه ، فأن قصة تفضيله الخليفة على الرسول ، لأن آدم أفضل من الملائكة . وقد جعله الله خليفة ، قصة سخيفة لا يقول بها الحجاج، ولا يتلقاها عبد الملك بالإعجاب كما تقول الرواية ، ولم يكن عبد الملك من الجهل أو الحماقة، بحيث يعرض نفسه لسخط الأمة ، فيقبل تفضيل نفسه على الرسل ، وليس من البله بحيث يقبل هذا المنطق السخيف الذى ساقه الحجاج ،

ولكنه تشويه تاريخ الحجاج ، إذ كان مقصودا بهذا ـ كما قصد بغيره من الحوادث أحيانا ـ أن تنسب إليه الكبائر والصغائر . حتى مثل هذه المفتريات التى لا تليق بعبد الملك الفقيه الحازم الأريب ، الذى اشتد على الحجاج من أجل أنس بن مالك رضوان الله عليه ، فكيف يمكن أن يعجب بمثل هذه السفاسف من الحجاج أو غيره ، أو يسكت عنها ؟

والأحكام الأخرى أحكام فردية ، لم يبين لنا أصحابها سبب تكفيرهم للحجاج إلا بأفعاله فى الحروب. ولهم وجهة نظرهم ، ولعل له وجهة أخرى ؛ فقد كان الحجاج عاملا لخليفة يعترف بإمامته أكثر الأمة ، وهؤلاء قد شذوا عن السلطان، وأرادوا زوال سلطانه ، وخرجوا عن طاعته ، وهم فى نظر الخلافة الأموية بغاة ، وللبغاة حكم مقرر فى القرآن .

«أنْ يُقتّلوا أو يُصلّبوا أو تُقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنفَوا من الأرض، ذلك لهم خزيٌ في الدنيا، ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم»

وهؤلاء يرون الإمام جائرا ، وعماله من الظالمين ، فالخروج عليه فرض لازم ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . ولكن أى عصيان يؤخذ على الحجاج؟ القتل؟ انه لم يقتل ظلما فيما يرى . السجن؟ إنه كذلك لم يحبس بريئا، ولكنه حبس أقواما وجهت إليه تهم ،ولعله لم يتثبت من صحتها ، واكتفى بالشبهات . وكان أولى له أن يدرأ بها الحدود ، ولعل هذا مما دعا عمر بن عبد العزيز إلى أن يسيء الرأى فيه . ولكن من قال إن الحجاج كان يفعل ذلك متعمدا الخروج على الدين، وأنه كان يتحدى به قوانين الإسلام وأصوله؟

وقد رويت عنه أحاديث وأخبار تدل على أنه كان يؤمن بالله واليوم الآخر،وكان يرى محمدا أفضل الخلق ، وأن العمل الصالح فى الدنيا ينفع فى الآخرة ، وكان يرجو الله واليوم الآخر . وله خطب وعظيه ومن ذلك قوله فى الحض على محاربة النفس والامتناع عن الشهوات [١]

أيها النـاس : اقدعوا [٢] هذه الأنفس ، فإنها أسألُ شيء إذا أعطيت، وأمنع شيء إذا سئلت ، فرحم الله امرءا جعل لنفسه خطاما وزماما [٣] فقادها بخطامها إلى طاعة الله ، وعطفها بزمامها عن معصية الله ، فإنى رأيت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه »

وكان يقول [٤] : إن أمرءا أتت عليه ساعة من عمره ، لم يذكر فيها ربه، أو يستغفر من ذنبه ،أو يفكر فى معاده، لجدير أن تطول حسرته يوم القيامة. ومرض الحجاج [٥] ففرح أهل العراق . وقالوا مات الحجاج ،مات الحجاج فلما أفاق صعد المنبر وخطب الناس فقال :

---

(١) كامل ا ص ١٠٩ (٢) اقدعوا : امنعوا

(٣) الخطام : كل ماوضع فى أنف البعير ليقاد به . والزمام ما يقاد به من حبل ونحوه

(٤) كامل ص ١٠٩ ح م (٥) عقد ح م ص ٢٥٢

يا أهل العراق . يا أهل الشقاق والنفاق ، مرضت فقلتم مات الحجاج ، أما والله لأَحبُّ إلى أن أموت من أن لا أموت ، وهل أرجو الخير كله إلا بعد الموت ؟ وما رأيت الله رضى بالخلود فى الدنيا لأحد من خلقه إلا لأبغض خلقه إليه، وأهونهم عليه، ابليس ، ولقد رأيت العبد الصالح(١) يسأل ربه ، فقال : «ربِّ اغفر لى وَهَبْ لى مُلْكا لاينبغى لأحد من بَعْدِى» ففعل. ثم اضمحل بعد ذلك فكأنه لم يكن.»

ومات ابنه محمد ، ثم جاءه نعى أخيه محمد من اليمن ، ففرح أهل العراق وقالوا : انقطع ظهر الحجاج وهِيضَ جناحُه . فخرج فصعد المنبر ، ثم خطب الناس فقال :

أيها الناس ، محمدان فى يوم واحد! أما والله ما كنت أحب أنهما معى فى الحياة الدنيا ، لما أرجو من ثواب الله لهما فى الآخرة(٣) : وايم الله ، ليوشكن الباقى منى ومنكم أن يفنى ، والجديد أن يبلى ، والحى منى ومنكم أن يموت ، وأن تدال الأرض منا كما أدلنا منها (٢) ، فتأكل من لحومنا وتشرب من دمائنا ، كما مشينا على ظهرها ، وأكلنا من ثمارها ، وشربنا من مائها ، ثم تكون كما قال الله تعالى « ونُفِخَ فى الصُّور فإذاهمْ من الأجْداث إلى ربهم يَنْسِلُونَ » ، ثم تمثل بهذين البيتين :

عزائى نبى الله عن كل ميت ... وحسبى ثواب الله من كل هالك
إذا ما لقيت الله عنى راضياً ... فإن شفاء النفس فيما هنالك

ثم نزل :

وقيل للحجاج (١) : كيف وجدت منزلك بالعراق ؟ قال خير منزل ، لو أدركت بها أربعة لتقربت إلى الله بدمائهم : قيل ومن هم ؟ قال : مقاتل ابن مسلم : بسط الناس له أرديتهم فقال : « لِمثلِ هذا فَلْيعمَلِ العاملون» . وعبيد

---

(١) سيدنا سليمان .

(٢) أن تأخذ منا كما أخذنا منها ، أو تأكلنا كما أكلنا منها .

(٣) عقد ج ٣ ص ٣٥٥ .

الله بن ظبيان : قام فخطب خطبة أوجز فيها، فنادى الناسُ من أعراض المسجد: أكثر الله فينا أمثالك . قال : لقد سألتم الله شططا [١]. وسعيد بن زُرَارة : كان جالساً على الطريق فمرت به امرأة فقالت : يا عبدالله، أين الطريق إلى مكان كذا ؟ فغضب وقال . أمثلى يقال ياعبد الله ؟ وأبو سماك الحنفى ، أضل ناقته فقال : لئن لم يردها على لاصَلَّيْتُ أبداً . فلما وجدها قال : علم أن يمينى كانت بَرَّة [٢]

أفيقال فى مثل هذا الرجل الحريص على حقوق الله وعلى أموال الأمة وعلى الأدب فى حق الله . والتواضع لله ، إنه كان كافراً ؟

إنه لم يرض من مقاتل بن مسلم أن يتخذ مال الله وسيلة إلى استعباد الناس، ولا لهذا الجلف المتكبر . عبيد الله بن ظبيان ، ان يُعجِزَ الله عن خلق مثله، ولا لسعيد بن زرارة أن يستنكف أن يكون عبداً لله كما دعته المرأة ، ولا لسماك الحنفى أن ينسب إلى الله خوفا من تهديده بترك الصلاة إذا لم يرد عليه ناقته. وأراد أن يتقرب إلى الله بدمائهم لسوء أدبهم .

لاشك أنه كان مسرفاً فى القتل ، ولكنه قد يعذر إذا عرفنا الظروف التى كان يعيش فيها ، وهو وال لخليفة يريد رد الناس إلى طاعته ، أو إبادة من خرج عليه ، واستباح الأموال والدماء والأعراض والأطفال كالخوارج .

وما للشعبي يشهد عليه بالكفر . وقد أتاه تائبا مبايعا لعبد الملك بعد قتل ابن الأشعث ؟ وما للناس يلومونه على قتل سعيد بن جبير بعد أن نقض بيعة كانت للخليفة فى عنقه، وخرج محاربا له ولو ظفر به لقتله ؟

لقد كان للعصبية على بنى أمية وشيعتهم، زمن تدوين التاريخ والأخبار، أثر فى نسبة كثير من العيوب إلى الأمويين وولاتهم ، ولعل لهذه العيوب أصلا

---

(١) شيئاً عظيما فوق الطاقة .

(٢) خاف لأنه علم عزمى على تنفيذ ماحلفت عليه . وهو ترك الصلاة .

ولكن هذا الأصل لايكفى على كل حال للحكم بالكفر . بل يجب أن يترك أمرهم لله ، ويحكم على أعمالهم بدون عصبية ، ولا شك أن التاريخ يعترف للحجاج بالحزم والمضاء ، والقدرة على تسكين الفتن، ورد العصاة إلى طاعه السلطان، والاستعانة بكبار الرجال فى ذلك .

وأمره بعد ذلك متروك إلى الله إن شاء الله عفا عنه، وتجاوز عن سيئاته ، وإن شاء عذبه بما خرج على حدود الله وحرماته .

مرض موته وما وقع بينه وبين يعلى بن مخلد المجاشعي :

يروى القالى [1] عن الرواة : أنه لما حضرت الحجاج الوفاة ، وأيقن بالموت قال : اسندونى ، وأذن للناس فدخلوا عليه ، فذكر الموت وكربه ، واللحد ووحشيته ، والدنيا وزوالها ، والآخرة وأهوالها ، وكثرة ذنوبه . وأنشأ يقول :

إن ذنبي وزن السموات والأر ض وظنى بخالقى أن يحابى

فلئن منَّ بالرضا فهو ظنى ولئن مرَّ بالكتاب عذابى

لم يكن ذاك منه ظلما ، وهل يظـلم رب يرجى لحسن المآب ؟

ثم بكى وبكى جلساؤه . ثم أمر الكاتب أن يكتب إلى الوليد :

«أما بعد فلقد كنت أرعى غنمك، أحوطها حياطة الناصح الشفيق برعية مولاه ، فجاء الأسد فبطش بالراعى ،ومزّق المرعىَ كل مُمَزق. وقد نزل بمولاك مانزل بأيوب الصابر ، وأرجو أن يكون الجبار أراد بعبده غفرانا لخطاياه ، وتكفيراً لما حمل من ذنوبه . ثم كتب فى آخر الكتاب :

إذا مالقيت الله عنى راضيا فإن شفاء النفس فيما هنالك

فحسبي بقاء الله من كل ميت وحسبي ثواب الله من كل هالك

لقد ذاق هذا الموت من كان قبلنا ونحن نذوق الموت من بعد ذلك

فإن مت فاذكرنى بذكرٍ محبَّب فقد كان جمًّا فى رضاك مسالكى

---

(١) النوادر ص ١٧١ :

وإلا ففى دبر الصلاة بدعوة يُلقىَّ بها المسجون فى نار مالك

عليك سلام الله حيًا وميتاً ومن بعد ماتحيا عتيقاً لمالك

ثم دخل عليه أبو المنذر يَعْلىَ بن مخلد المجاشعى وقال : كيف ترى مابك ياحجاج من غمَرَاتَ الموت وسكراته ؟ فقال : يايعلى غماً شديداً وجهداً جهيداً ، وألما مضيضاً (١) ، ونزعا جريضا (٢) وسفراً طويلا ، وزاداً قليلا، فويلى ويلى إن لم يرحمنى الجبار . فقال له : ياحجاج : إنما يرحم الله من عباده الرحماء الكرماء ، أولى الرحمة والرأفة والتَحنُّن ، والتعطف على عباده وخلقه . أشهد أنك قرين فرعون وهامان ؛ لسوء سيرتك ، وترك ملتك ، وتَنكُّبك عن قصد الحق (٣) ، وسَنن المحجَّة (٤) وآثار الصالحين . قتلت صالحى الناس فأفنيتهم ، وأبَرْت عترة التابعين فتبرتهم (٥) ، وأطعت المخلوق فى معصية الخالق وهرقت الدماء ، وضربت الأبشار ، وهتكت الأستار ، وسسَت سياسة متكبر جبار . لاالدين أبقيت ، ولا الدنيا أدركت، أعززت بنى مروان ، وأذللت نفسك ، وعمرت دورهم وأخربت دارك . فاليوم لاينجونك ولا يغيثونك ؛ إذ لم يكن لك فى هذا اليوم ولا لما بعده نظر ، لقد كنت لهذه الأمة اهتماما واغتماما ، وعناء وبلاء . فالحمد لله الذى أراحها بموتك ، وأعطاها مناها بخزيك .

قال : فكأنما قطع لسانه عنه ، فلم يُحرْ جوابا وتنفس الصعداء ، وخنقته العبرْة ، ثم رفع رأسه فنظر إليه فأنشأ يقول :

رب إن العباد قد أيأسونى ورجائى لك الغداة عظيم

وفاة الحجاج :

مات الحجاج فى الرابعة والخمسين من عمره بمدينة واسط سنه ٩٥ ه .

---

(١) ألما شديدا محرقا محزنا .
(٢) النزع خروج الروح من الجسد ، والجريض الذى يجفف الريق .
(٣) التنكب الانحراف والميل . (٤) طريق الصواب .
(٥) أبر : قتل باطعام الابرة ، والعترة . الكرام ، وتبر : أهلك .

وأما سبب موته فقد اختلف فيه ، فقيل إنه مات مما أصابه من أمراض معوية نشأت من حبه للطعام وإسرافه فيه .

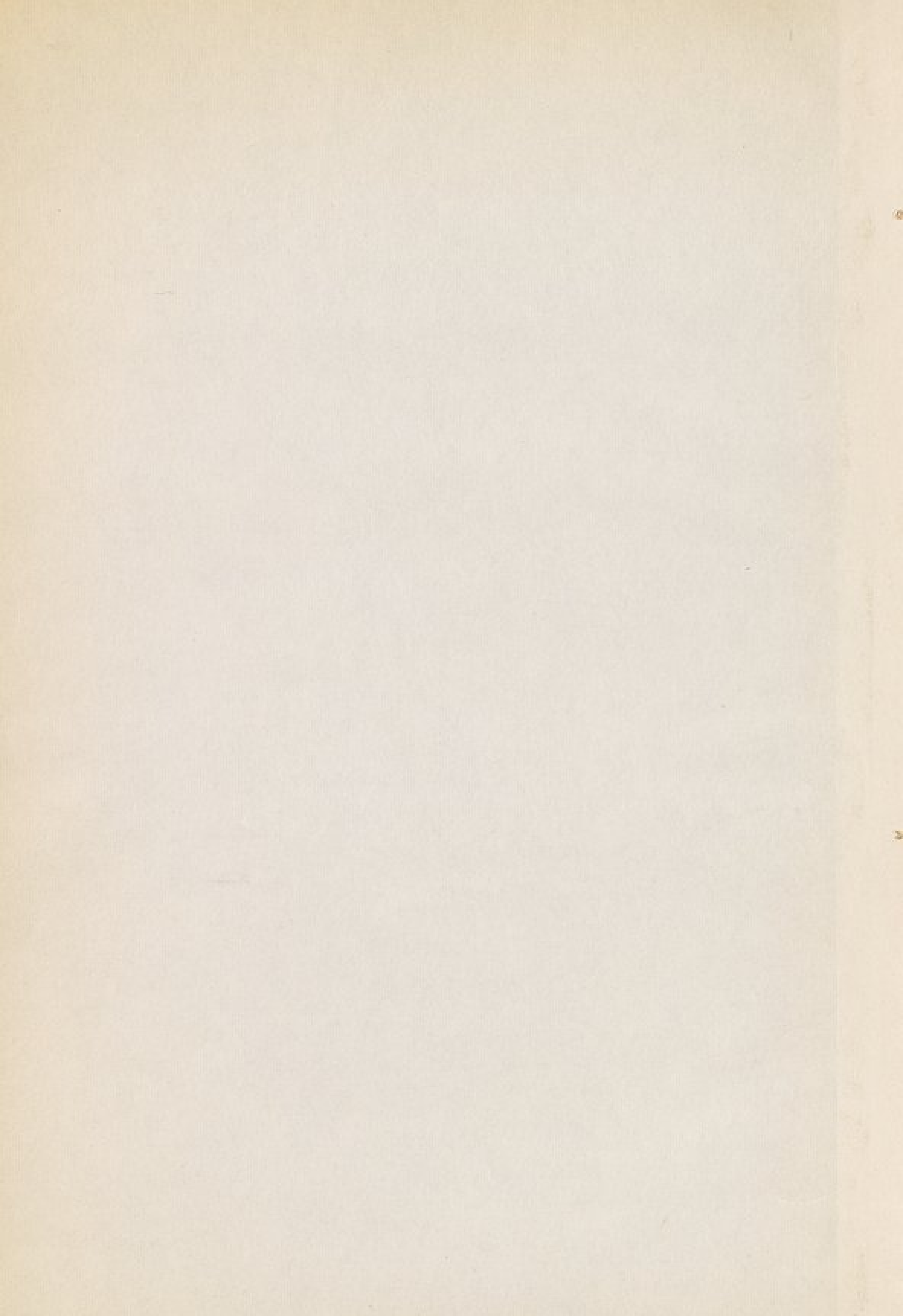
وإذا استعنا بالأدب رأينا الخبر السابق عن أبى على القالى يشير إلى أنه كان مريضاً مرضاً طويلا قبل موته ، وليس من الحتم أن يكون هذا المرض أقعده عن تصريف الأمور . إنه يقول : « وقد نزل بمولاك مانزل بأيوب الصابر » وفى هذا مايشير إلى معاناته للمرض زمنا قبل وفاته .

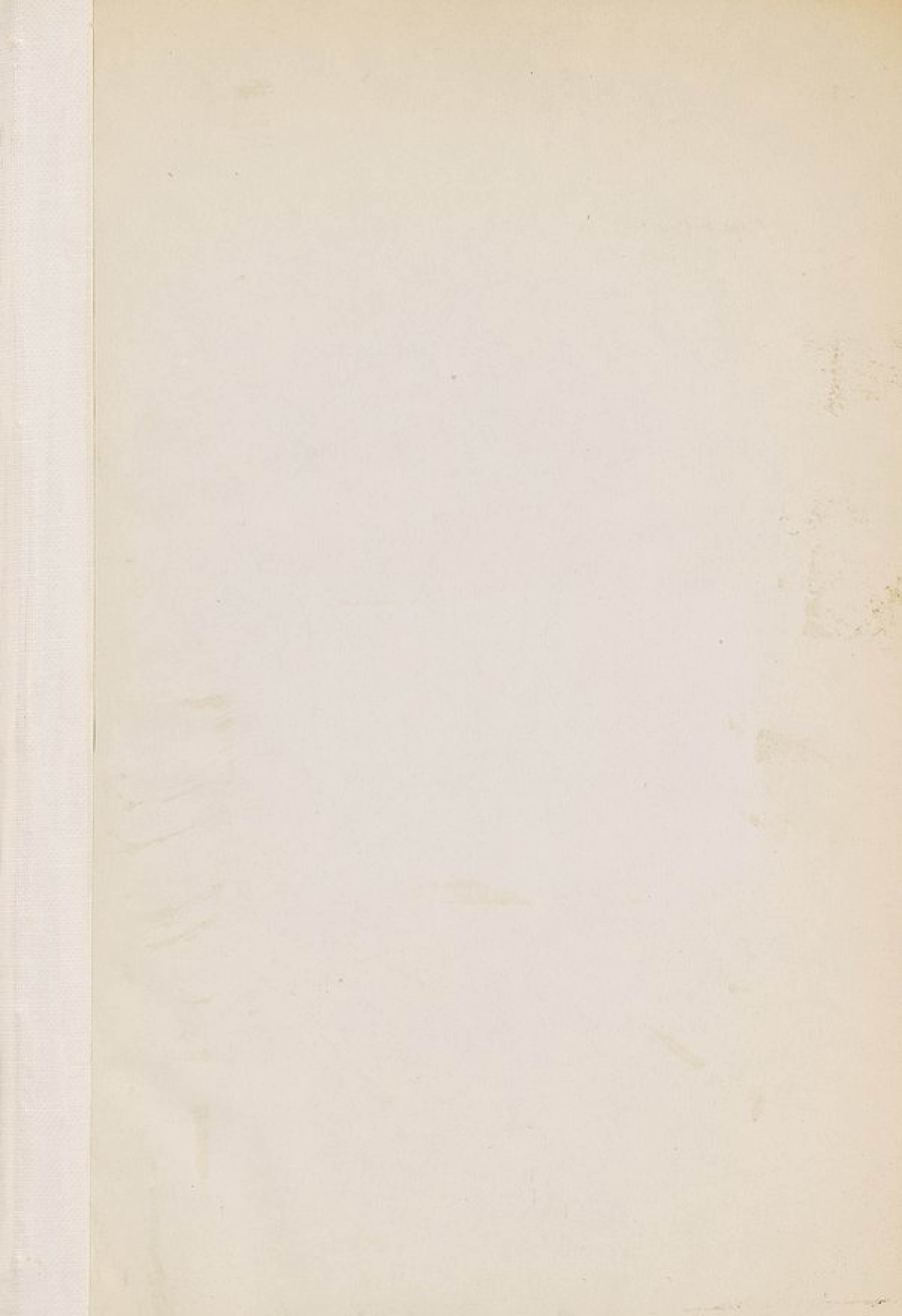
ويروى أنه دفن حيا ، وهى رواية طريفة ، فلم يخل موته من خبر يستحق القراءة لغرابته : قالوا إنه أغمى عليه إغماء شديداً فظن أهله أنه مات حقاً ، فدفنوه .. ثم سمع الناس صياحا فى قبره ، فأتوا إلى يزيد بن أبى مسلم كاتبه — وكان يبغض الحجاج ويرى رأى الخوارج ويكتمه — فلما سمع يزيد بالخبر ذهب إلى القبر ومعه جماعة من أهل الشام ، فوقفوا على قبره فسمعوا صياحه فقال يزيد : يرحمك الله أبا محمد ، فما تدع القراءة حتى ميتاً . ولعل يزيد قد قال ذلك تمويها لئلا يظن أهله أنه حى فيخرجوه من قبره

وعلى كل فقد مات الحجاج بعد أن ثبت ملك آ ل مروان ، وأذل كثيراً من النفوس وقضى على المعارضين ، وأخاف كثيراً من الآمنين ، وترك لنفسه ذكراً سيئاً فى الآخرين .

وترك لرجال الأدب والمؤرخين مادة تشغل نقدهم وتعليقهم ، وتقوم ألسنتهم وبيانهم ، وترك لرجال الورع والنساك أديما يمزقونه بعد موته كما أساء إلى أسلافهم فى حياته .

ولكنه كان يعمل بوحى من إرادته ورأيه ، وكان يحاول الإصلاح ما استطاع فبنى مدينة ، وحفر نهراً ، وقوم دعائم إمبراطورية وأصلح كتابة ، وفتح بلاداً ما زالت إلى اليوم تشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وأخرجت رجالا كان لهم فى تاريخ الفقه واللغة والفلسفة ، والعلوم الإسلامية بوجه عام ، فضل عظيم .







٢٥